

المملكة العربية السعودية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
عمادة التعليم عن بعد
كلية الشريعة ـ الانتساب المطور

(عقد "١١١")

مقرر التوحيد

المستوى الثالث

أستاذ المادة:

د . يوسف السعيد

(المذكرات تم تفريغها سماعاً من المحاضرات الصوتية)

إعداد طلاب وطالبات كلية الشريعة

انتساب مطور

نسخة مدققة و مزيدة

١٤٣٣هـ

(كتب الله أجر كل من عمل على إعدادها وجعلها له صدقة جارية)

﴿تـقـديـم﴾

هذه هي الطبعة النهائية لمذكرات كلية الشريعة انتساب مطور تعليم عن بعد
وقد اعتمدت بتوفيق من الله بعد أن تم تدقيقها أكثر من مرة
من قبل طلاب وطالبات كلية الشريعة انتساب مطور
واخترنا أفضلها تدقيقاً وتم تلوينها وتنسيقها لتكون هي الطبعة النهائية
ولأنها جهد بشري لا يخلو من الخطأ ولا يصل للكمال
فنرجو عند وجود خطأ أو ملاحظة
كتابة تنبيه في الموضوع المخصص لذلك في منتدى المستوى الخاص بالمذكرة
في منتدى مكتبة كلية الشريعة: www.imam8.com

وسوف يتم تصحيح الأخطاء بعد التنبيه عليها من قبل القائمين على إعداد المذكرات

ونسأل الله جزيل الثواب لكل من يعين على ذلك ويشاركنا فيه

(مجموعة إعداد مذكرات كلية الشريعة انتساب مطور)

مفردات المقرر:

وتدرس فيه الموضوعات التالية:

- الإسراء والمعراج- الحوض- الشفاعة
- شفاعة الرسول لأهل الكبائر من أمته
- حكم الاستشفاع برسول الله وغيره في الدنيا
- الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند البشر
- الميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته-الإقرار

بالربوبية

- قد علم الله في الأزل أهل الجنة وأهل النار
- كل إنسان ميسر لما خلق له والأعمال بالخواتيم
- أصل القدر سر الله في خلقه ، والنهي عن السؤال لما فعل
- منشأ ضلال الفرق –التسوية بين المشيئة والإرادة

والمحبة والرضا

- أسباب الخير ثلاثة: الإيجاد والإعداد والإمداد
- ما يرضى من المقضي وما يسخط
- –مبني العبودية والإيمان على التسليم
- الإيمان باللوح والقلم
- اختلاف العلماء في القلم هل هو أول المخلوقات
- جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة
- الرد على من يظن أن التوكل ينافي تعاطي الأسباب
- سبق علم الله بالكائنات قبل خلقها
- القدرية مجوس هذه الأمة
- القدر ينظم أحوالا عظمية
- للقلب حياة وموت ومرض وشفاء
- العرش والكرسي حق
- استغناء الله عن العرش وإحاطته بكل شيء ،
- بحث الفوقية –كلام السلف في إثبات صفة العلو
- بحث في كون السماء قبلة الدعاء
- إن الله اتخذ إبراهيم خليلا وكلم موسى تكليما
- محبة الله وخلته كما يليق به
- وجوب الإيمان بالملائكة والنبيين والكتب المنزلة
- حقيقة قول الفلاسفة إنهم لم يؤمنوا بالله ولا كتبه ولا

رسله

- أصول المعتزلة الخمسة التي هدموا بها كثيرا من الدين
- كلام الناس في المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر
- أولوا العزم من الرسل
- أهل القبلة مسلمون مؤمنون
- لا نخوض في الله ولا نماري في دين الله
- لا نجادل في القرآن ،ونشهد أنه كلام الله رب العالمين
- ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله
- الجواب عن الإشكال بأن الشارع قد سمى بعض الذنوب

كفرا

- الحكم بغير ما أنزل الله قد يكن كفرا يخرج عن

الملة

- نرجو للمحسنين العفو والجنة
- عشرة أسباب تسقط عها العقوبة
- الأمن واليأس ينقلان عن الملة
- تعريف الإيمان واختلاف الناس فيه
- نور الإيمان في القلوب درجات
- الكلام في زيادة الإيمان إجمالا وتفصيلا
- أدله أصحاب أبي حنيفة ومناقشتها
- الأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه من الكتاب السنة

كثيرة جدا

- أقوال العلماء في مسمى الإسلام
- حال اقتران الإسلام بالإيمان غير حالة إفراد أحدهما

عن الآخر

- حكم الاستثناء في الإيمان
- أهل البدع يعرضون النصوص على بدعتهم
- طريق أهل السنة ألا يعدلوا عن النص الصحيح ولا

يعرضوه بمعقول

- خبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول عملا به وتصديقا له

أفاد العلم اليقيني-نفاه الصفات جعلوا قوله تعالى { **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** } مستندا في رد الأحاديث الصحيحة

- المؤمنون كلهم أوليا الرحمن
- تفسير معنى الولاية ..

الحلقة (١)

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد ...

فهذا هو مقرر التوحيد للمستوى الثالث لطلاب كلية الشريعة ، وسنتناول في هذه المحاضرة إن شاء الله تعالى شيئا من موضوع **الإسراء والمعراج** ، وسنتناول من هذا الموضوع:

- تعريف الإسراء والمعراج .
- ودليل الإسراء والمعراج وهو القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ وإجماع الصحابة وإجماع المسلمين .

فالإسراء والمعراج آيتان من الآيات التي أيد الله تعالى بهما نبيه ﷺ ، وجعلهما من دلائل نبوته، ومضى معكم فيما تقدم من الفصول أن دلائل نبوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كثيرة جدا.

وإن ما يسميه المتكلمون بالمعجزة دليل صحيح على صدق نبوة الأنبياء عليهم السلام ، ولكنها ليست هي الدليل الوحيد وإنما الأدلة على صدق نبوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كثيرة جدا، وهاتان الآيتان [أعني الإسراء والمعراج] هما من الآيات التي أُيد بها النبي ﷺ ، وامتحن بها المشركون وامتحن بها صحابة النبي ﷺ الذين أسلموا معه؛ لأن مثل هاتين الآيتين تحار فيهما العقول وهذا هو موطن الإيمان بالغيب، وموطن تصديق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام يأتون بما تحار فيه العقول ، لكنهم لا يأتون بما تحيله العقول ، فالذي تحيله العقول لا تأتي به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأعني بالعقول [العقول الصحيحة السالمة من الأهواء والشبهات]، أما العقول التي دخل فيها ما دخل وأصابها ما أصابها من اللوث، فهذه عقول تُصدِّق بما لا يجوز التصديق به، وتكذب بما لا يجوز التكذيب فيه.

فالإسراء والمعراج هما كما ذكرت لك آنفا مما تحار فيه العقول يعني [تتحير]، لكنهما ليستا مما تحيله العقول .

انظر إلى ما جرى للنبي ﷺ من الإسراء والمعراج، وقارنه بما حصل في هذه الأزمنة من سرعة الانتقال من محل إلى محل ، فهذا دليل على أن العقول السليمة لا تمنع من مثل هذا ولا تحيله .

تعريف الإسراء و المعراج :

والإسراء في اللغة / من سرى وأسرى وهو السير بالليل والمشي فيه .

يقال : سرى القوم ليلهم إذا مشوا ، ويقال : سرى القوم بمعنى أنهم ساروا ليلا.

ويقال : أسرى القوم وهو بمعنى سرى وهو المشي في الليل .

والمراد به هنا: والمراد به هنا : الانتقال بالنبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليلا على دابة بين البغل والحمار تسمى [بالبراق] ، فهذا الانتقال الذي انتقل به النبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في جزء من ليلة هذا هو الذي يسمى [**بالإسراء**]

وأما المعراج / فهو مفعال من العروج، وهو الذهاب في الصعود والارتفاع، والمعراج مفعال منه .

والمراد به هنا : : الآلة التي عرج بالنبي ﷺ عليها ، وصعد عليها من بيت المقدس إلى السماء.

فالآلة هي المعراج ، والفعل بالنبي ﷺ هو العروج ، فالإسراء اسم للفعل ، والمعراج اسم للآلة فهذا هو تعريف الإسراء والمعراج .

الإسراء والمعراج دل عليهما كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ و إجماع المسلمين ومنكرهما كافر ، من أنكر الإسراء فهو كافر، ومن أنكر العروج بالنبي ﷺ تقام عليه الحجة، فإن عاند وكابر فله شأن، وإنكاره جرم كبير، ولم يوجد أحد ممن

ينتسب إلى الإسلام أنكر الإسراء والمعراج، وإن كانوا قد يختلفون في تفاصيله وفي كيفية الإسراء والعروج بالنبي ﷺ كما سيأتي معنا إن شاء الله تعالى .

الأدلة من الكتاب :

القرآن الكريم دل على الإسراء ودل على المعراج، يقول الله جل وعلا : {**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** }، فقال : هنا {أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى}، فالإسراء كان بالليل وكان بالعبد وهو محمد ﷺ ، ووصفه بالعبودية جاء في أشرف المقامات ومنها هذا المقام الذي نحن فيه وهو مقام الإسراء، قال : {أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً } ولم يقل الليل كله وإنما أسرى به في جزء من ليلة، كما سيأتي معنا أنه ﷺ أسري به من المسجد الحرام ثم عاد إلى المسجد الحرام في ليلته تلك ، الانطلاق من المسجد الحرام في الإسراء والانتهاء إلى المسجد الأقصى وأما المعراج وهو العروج فهو مبتدؤه من المسجد الأقصى ومنتهاه عند سدرة المنتهى، فهذا دليل الإسراء من كتاب الله تعالى.

وأما دليل المعراج فهو قول الله جل وعلا : ﴿ **أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إذ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨)**﴾ ، فهذا هو دليل المعراج من القرآن العظيم .

الأدلة من السنة :

وأما دليل الإسراء والمعراج من سنة النبي ﷺ فالأحاديث فيه كثيرة جدا، ومن ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : ((**أُتيت بالبراق ، وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، قال :فركبته حتى أتيت بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء عليهم السلام، قال : ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن، فقال جبريل عليه السلام : اخترت الفطرة ثم عَرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت ؟ ، قال : جبريل، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بُعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بآدم عليه السلام فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل عليه السلام ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل قيل : ومن معك ؟ ، قال : محمد ﷺ قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحي بن زكريا صلوات الله عليهما وسلامه فرحبا ودعوا لي بخير ، ثم عَرج بي- يعني جبريل عليه السلام- إلى السماء الثالثة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ﷺ قال : وقد بعث إليه؟ قال : قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام ، إذا هو قد أُعطي شطر الحسن فرحب ودعا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل عليه السلام ، فقيل: من هذا ؟ قال:جبريل قيل: ومن معك ؟ قال: محمد قال: قد بعث إليه ؟ قال: قد بعث إليه ؟ ففُتح لنا فإذا أنا بإدريس عليه السلام فرحب ودعا لي بخير ، قال الله عز وجل: {وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا } الذي هو إدريس عليه الصلاة والسلام ، ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل قيل:من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل: ومن معك ؟ قال : محمد ﷺ، قيل : قد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بهارون عليه السلام فرحب ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل عليه السلام قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل ومن معك؟ قال : محمد ﷺ قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بموسى عليه السلام فرحب ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل قيل : ومن معك ؟**

قال : محمد ﷺ قيل : وقد بعث إليه؟ قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله - يعني البيت المعمور- كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه - يعني لكثرتهم- ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال، قال ﷺ : فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها.

فأوحى الله إلي ما أوحى ففرض عليَّ خمسين صلاة في كل يوم و ليلة، فنزلت إلى موسى عليه السلام فقال : ما فرض ربك على أمتك ؟ قلت :خمسين صلاة قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، فرجعت إلى ربي فقلت : يا رب خفف عن أمتي، فخفف عني خمسا، فرجعت إلى موسى فقلت : حط عني خمسا، قال : إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فقال: فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى و بين موسى عليه السلام حتى قال - يعني الله-: يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم و ليلة، لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة، و من همّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشرا، و من همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا فإن عملها كتبت سيئة واحدة. قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى عليه السلام فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فسأله التخفيف، فقال الرسول ﷺ فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه)) .

هذا الحديث الصحيح الذي رواه مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه دليل على الإسراء والمعراج، فهو ﷺ أتي بالبراق وركب عليه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به ﷺ من المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى، وكان ﷺ يمر بكل سماء من السماوات الدنيا .

ومما يدل على الإسراء والمعراج أيضا من سنة النبي ﷺ ما أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن أبي ذر رضي الله عنه، فأنس رضي الله عنه روى هذا الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه، وأبو ذر روى هذا الحديث عن رسول ﷺ قال : أنس كان أبو ذر يحدث عن رسول الله ﷺ قال : فُرِجَ عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا، فأفرغه في صدري، [يعني أنه أفرغ ما في هذا الطست من الحكمة والإيمان في صدر النبي ﷺ ، ومثل هذا لا ينبغي السؤال عن كيفيته لكن ينبغي أن نؤمن بما أخبرنا به النبي ﷺ دون السؤال عن كيفيته ودون البحث عنه]، قال : ثم أطبقه [يعني أطبق صدر النبي ﷺ بعد ما فرجه وملأه حكمة وإيمانا] ، قال : ثم أخذ بيدي [يعني جبريل عليه السلام] فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء الدنيا، قال جبريل لخازن السماء: افتح قال: من هذا؟ قال: جبريل قيل: هل معك أحد؟ قال: نعم، معي محمد ﷺ فقال: أأرسل إليه؟ قال: نعم.

ثم ذكر الحديث وفيه مرور النبي ﷺ على السموات السبع، وفيه أيضا ذكر ملاقاته ﷺ للأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى غير ذلك من الأحاديث، فهذه الآيات وهذه الأحاديث دلت على الإسراء بالنبي ﷺ وعلى العروج به .

الدليل الثالث / الإجماع :

وأما الإجماع / فقد أجمع المسلمون على أن النبي ﷺ أُسري به وعُرج، فلم يختلف المسلمون في هذا وإنما اختلفوا كما ذكرت قبل قليل في شيءٍ من تفاصيله، أما جملته وهو الإسراء به ﷺ والعروج به فهذا لم يختلف فيه المسلمون؛ لهذا قلنا بأن من ينكر الإسراء فإنه كافر؛ لأنه رد على الله جل وعلا قوله، ورد على النبي ﷺ قوله ،وخالف إجماع المسلمين والله جل وعلا يقول : {**وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**} . فهذا ما يتعلق بهذه المحاضرة .

الحلقة (٢)

سبق في المحاضرة الماضية أن عرَّفنا الإسراء والمعراج من حيث اللغة والشرع، و تكلمنا أيضا عن حكم منكر الإسراء والمعراج، و أيضا عن الأدلة على الإسراء والمعراج، وذكرنا أن الأدلة كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وإجماع المسلمين. وفي هذه المحاضرة سنتناول إن شاء الله تعالى شيئًا مما يتعلق بالإسراء و المعراج، ومن ذلك تاريخ الإسراء والمعراج.

وهنا قد يسأل سائل فيقول : إذا كان الإسراء و المعراج لم يذكر تاريخهما فلم البحث في ذلك يعني ما الفائدة من بحث تاريخ الإسراء والمعراج ؟

فالجواب عن هذا نقول : نعم، إن تاريخ الإسراء و المعراج -كما سيأتي معنا بعد قليل إن شاء الله- اختلف فيه الناس اختلافاً كثيرًا، ولم يستندوا إلى أدلة صحيحة تبين تاريخه، وحينما نتكلم عن تاريخه نريد أن نبين أمراً مهماً و قضية يقع فيها كثير من الناس اليوم و هي قضية ما يسمى بعيد الإسراء والمعراج، فإذا نحن تكلمنا عن هذا التاريخ وعرفنا أنه تاريخ مختلف فيه وأن العلماء لم يصيروا إلى شيء منه، يعني:لم يجمعوا على شيءٍ منه فإننا ندرك حينئذ أن تحديد يومٍ للإسراء و المعراج و جعله عيدًا خطأ محض، وبدعة لم يأذن بها الله؛ فهذا هو السبب الذي نتكلم من أجله عن تاريخ الإسراء و المعراج.

فأقول : اختلف أهل العلم رحمهم الله في زمن وقوع الإسراء و المعراج على أقوال :

- فقيل قبل البعثة [قبل بعثة النبي ﷺ] وهذا شاذ ، ما وجه شذوذ هذا القول ؟ وجه شذوذ هذا القول هو أن النبي ﷺ أخبر قريشًا، فكذبته وكان مع النبي ﷺ قوما قد آمنوا به فصدقوه، وقوماً قد آمنوا به فلما ذكر ذلك النبي ﷺ ارتدوا تكذيبا له، فلا يمكن أن يكون والحالة هذه قبل البعثة.

- فالصحيح أنه بعد أن بُعث النبي ﷺ **وهؤلاء الذين قالوا إنه بعد البعثة اختلفوا اختلاف كبيرا**

فقالت طائفة من أهل العلم: أنه قبل الهجرة بسنة ، وهذا القول يروى عن ابن مسعود رضي الله عنه و جزم به النووي عليه رحمة الله

وقيل إن النبي ﷺ أُسري به وعرج قبل الهجرة بثمانية أشهر وهذا قول حكاه ابن الجوزي رحمه الله

وقيل بستة أشهر و هذا حكاه أبو الربيع بن سالم.

وقيل بإحدى عشر شهر وهذا قاله إبراهيم الحربي عليه رحمة الله.

و قيل بخمسة عشر شهر حكاه ابن فارس و قيل بسبعة عشر شهر قاله السدّي.

و قيل بثمانية عشر شهر حكاه ابن عبد البر رحمه الله وقيل بعشرين شهر.

و قيل بثلاث سنين حكاه ابن الأثير .

و قال الزهري رحمه الله بخمس حكاه عنه القاضي عياض رحمه الله في الشفا، و رجحه بالاتفاق على أن خديجة-رضي الله عنها- صلت معه بعد فرض الصلاة، وإنها ماتت قبل الهجرة بثلاثٍ أو خمسٍ، ولا خلاف أن فرضها ليلة الإسراء. لاحظ كيف استدل الزهري رحمه الله على هذا!

يقول: بأن خديجة رضي الله عنها أُتفِق على أنها صلت مع النبي ﷺ بعد فرض الصلاة يعني: والصلاة متى فرضت؟ قالوا: فرضت ليلة الإسراء، وأنها ماتت قبل الهجرة بثلاث أو خمس سنين، ولا خلاف أن فرضها الصلاة كان ليلة الإسراء.

أجاب من ضعّف هذا القول بأن الصلاة التي صلتها خديجة مع النبي ﷺ هي التي كانت قبل البعثة وهما ركعتان بالغداة و ركعتان بالعشي والذي فرض على النبي ﷺ ليلة الإسراء هي هذه الخمس صلوات التي نصليها نحن في اليوم والليلة.

فهذا خلاف في السنة أو في تاريخ الإسراء. يعني متى كان تاريخ الإسراء؟
ثم اختلف أهل العلم -رحمهم الله- في أي شهر كان يعني اختلفوا قبل متى كان هل قبل البعثة أو بعد البعثة ؟ ثم بعد البعثة متى كان؟ هل هو قبل الهجرة بشهر أو شهرين أو خمسة أشهر؟ ...الخ الأقوال، ثم الآن الاختلاف في أي شهر كان

فاختلف أهل العلم رحمهم الله في هذا على أقوال :

فقيل : في رجب

وقال الواقدي رحمه الله : في رمضان

وقال الماوردي رحمه الله : في شوال فهذا الآن اختلاف في الشهر

وقيل : في ربيع الأول

وقيل في ربيع الآخر فهذه أقوال في المسألة

ثم اختلف أهل العلم أيضا رحمهم الله في أي يوم من الشهر :

- **فذهب ابن سعد عليه رحمة الله** إلى أنها في ليلة السابعة عشرة من رمضان
- **وذهب إبراهيم الحربي رحمه الله** إلى أنها في ليلة سبع وعشرين من ربيع الآخر
- علمتَ الاختلاف في تحديد الإسراء و المعراج في تحديد تاريخهما إذا عرفت الاختلاف في تاريخهما
- **فلتعلم إذن أن تحديد يوم يكون عيدا للإسراء و المعراج بدعة من البدع المحدثة لأمور منها :**
- **أولا** / أن هذا لم يفعله النبي ﷺ والداعي قائم له ، و النبي ﷺ يقول: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)، فهذا الذي يُحدث هذا العيد مردود عليه؛ لأن النبي ﷺ لم يفعله.

ثانيا / لم يفعله أيضا صحابة النبي ﷺ من بعده ولم يفعله التابعون أيضا ولو كان هذا الأمر خيرا لسبقونا إليه ؛ فهم أهل الفضل و أهل السبق لكل خير، فصحابة النبي ﷺ لم يؤثر عنهم أنهم احتفلوا بليلة الإسراء و المعراج، ولا نقل عنهم أنهم اجتمعوا، ولا نقل عنهم أنهم خصصوا عبادة من العبادات أو يوماً من الأيام يزيدون فيه عبادة، أو يحتفلون به بفرح أو سرور فلم يفعل صحابة النبي ﷺ شيئا من ذلك.

ثالثا / لو كان هذا مما شرعه الله تعالى -يعني: لو كان عيد الإسراء والمعراج أو ما يسمى بعيد الإسراء و المعراج؛ لأنا لا نقره عيدا- أقول: : لو كان هذا مما شرعه الله تعالى لما جهلنا هذه الليلة ، كما أننا لم نجهل يوم الفطر ولا يوم الأضحى، فيوم الفطر ويوم الأضحى لم نجهلهما؛ لأنهما يوم عبادة ذلك أن الأمور العبادية لابد من إيضاحها، لابد أن توضح زمانا كشهر رمضان وعيد الفطر وعيد الأضحى ووقت الحج وصيام عاشوراء وغير ذلك.

أما وقد أخفى الله تعالى علمها فليس لنا أن نبحث عنها مادام أن الله عز وجل أخفى عنا علم [هذه الليلة (متى كانت؟)] فليس لنا أن بحث عنها؛ لأن البحث عنها لو كان فيه خير لبينه الله جل وعلا لنا فما أبهمه الله تعالى، و أبهمه رسوله ﷺ فلنؤمن به كما جاء وهذا هو حظنا من الإيمان، فهذا ما يتعلق بتاريخ الإسراء و المعراج و متى كان.

ننتقل بعد هذا إلى نقطة أخرى و هي:

هل كان الإسراء و المعراج في ليلة واحدة أو كان في أكثر من ليلة ؟

اختلف أهل العلم في هذه المسألة على قولين :

القول الأول / **وهو قول الجمهور و هو الصحيح أنهما كانا في ليلة واحدة .**

القول الثاني / **أنهما كانا في ليلتين ولم يكونا في ليلة واحدة .**

و كما تقدم إن الصحيح هو قول الجمهور أنهما كانا في ليلة واحدة _ **دليل هذا** :

ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (**أُتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند مُنتهى طرفه قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس، قال:** -[لا حظ وتنبه إلى قوله ﷺ فركبته حتى أتيت بيت المقدس] - **فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء عليهم السلام قال: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل** عليه السلام **بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل** عليه السلام: **اخترت الفطرة ثم عرج بنا إلى السماء الدنيا)** فهذا الحديث دل على كونهما في ليلة واحدة؛ لأن النبي ﷺ قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس ، فهذا هو الإسراء، ثم قال ﷺ: [يعني لما وصل إلى البيت المقدس وربط الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام]قال: ثم عرج بنا إلى السماء الدنيا، فدل هذا على أن الإسراء والمعراج كانا في ليلة واحدة ولم يكونا في ليلتين **فهذا هو القول الصحيح .**

أنتقل بعد هذا إلى مسألة أخرى و هي:

مكان الإسراء بالنبي ﷺ [يعني مبتدأ الإسراء بالنبي ﷺ من أين أُسري بالنبي ﷺ]

يقول الله جل و علا: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ** ﴾ فهنا قال: من المسجدِ الحرام ومن لابتداء الغاية.

فمبتدأ الإسراء من المسجد الحرام، و هذا أجمع عليه المسلمون، ، **لكن اختلفوا من أي مكان أُسري بالنبي ﷺ من المسجد**

فقيل : من مسجد الكعبة

وقيل : من بين المقام و زمزم

و قيل : من الحِجر

و قيل : من بيته ﷺ

و قيل: من بيت أم هانئ

وقيل : من بيت خديجة

وقيل : من شعبِ أبي طالب

والصحيح أنه أسري به ﷺ من بيت أم هانئ ، والمسجد الحرام يطلق على ما كان داخل الأميال، وبيت أم هانئ كان داخل الأميال فهو في المسجد الحرام، وقد وردت آثار كثيرة أوردها ابن جرير -رحمه الله- و بعضها يشد بعضًا.

والدليل على أن ما كان داخل الأميال له حكم مسجد الكعبة: أن النبي ﷺ لما كان في صلح الحديبية كان إذا حضر وقت الصلاة دخل ﷺ داخل الحرم، يعني: داخل الأميال وصلى، والله جل وعلا يقول: ﴿ **وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ** ﴾ يعني: إخراج أهله من المسجد الحرام.

فالنبي ﷺ أسري به من بيت أم هانئ و يصدق عليه أنه ﷺ أسري به من المسجد الحرام؛ لأنه كما تقدم يطلق المسجد الحرام على ما كان داخل الأميال من الحرم، فهذا هو القول الصحيح في مكان الإسراء بالنبي ﷺ. أنتقل بعد هذا إلى نقطة أخرى، وهذه المسألة مسألة طويلة سنتناول إن شاء الله تعالى جزءاً منها في هذه المحاضرة و نكمل الباقي في المحاضرات القادمة بإذن الله.

هذه المسألة: **هل كان الإسراء بالروح والجسد، أو هو بالروح فقط؟ وهل كان يقظة أو مناما؟**

اختلف أهل العلم في هذه المسألة على أقوال:

القول الأول: أنه أُسري بالنبي ﷺ وعُرج به بروحه وجسده، يقظة لا منامًا، و هذا قول الجمهور، يقول القاضي عياض -رحمه الله- في كتابه الشفا: " و ذهب معظم السلف والمسلمين إلى أن الإسراء بالجسد وفي اليقظة وهذا هو الحق، وهو قول ابن عباس وجابر وأنس وحذيفة وعمر وأبي هريرة ومالك ابن صعصعة، وابن مسعود والضّحاك وسعيد بن جبير وقتادة وابن المسيب وابن شهاب وابن زيد والحسن وإبراهيم ومسروق ومجاهد وعكرمة وابن جُريج وهو دليل قول عائشة وهو قول الطبري وابن حنبل وجماعة عظيمة من المسلمين، وهو قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين " أ. هـ كلام القاضي رحمه الله.

وهذا القول هو القول الصحيح يعني: أن النبي ﷺ أُسري به بروحه وجسده، و أن النبي ﷺ أسري به يقظة لا منامًا، وأنه ﷺ عُرج به بروحه وجسده وأنه ﷺ عرج به يقظة لا منامًا.

فهذا هو القول الصحيح، وهو كما عرفتَ قبل قليل هو قول جماهير المسلمين.

يدل على هذا: قول الله جل وعلا:﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**﴾ [الإسراء:١] والعبد هو الروح والجسد ومجموع الروح والجسد وهنا قال الله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ** ﴾ ، يقول القرطبي رحمه الله في تفسيره: ولو كان منامًا يعني: الإسراء منامًا لقال: بروح عبده ولم يقل: بعبده فدل على أن الله جل و علا أسرى بعبده روحه وجسده، يقظة لا منامًا.

فهذا هو الدليل الأول من أدلة قول الجمهور الذي قلنا: بأنه هو الصحيح على أن النبي ﷺ أسري به بروحه وجسده وعرج به بروحه وجسده يقظة لا منامًا .

نكمل الأدلة والأقوال في المحاضرة القادمة إن شاء الله، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحلقة (٣)

تحدثنا في المحاضرة الماضية عن الإسراء والمعراج، وكان آخر ما تكلمنا عنه ما يتعلق بالإسراء والمعراج بالنبي ﷺ، هل كان بروحه وجسده، أو كان بروحه فقط، أو كان يقظة لا مناما؟ .

وذكرنا في الحلقة السابقة أن القول الصحيح هو أن النبي ﷺ أُسري به وعرج بروحه وجسده، يقظة لا مناما، وذكرنا الدليل الأول لجماهير أهل العلم وهو قول الله جل وعلا: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى**﴾،ووجه الاستدلال من هذا هو أن الله جل وعلا قال: {بعبده}، والعبد هو مجموع والروح والجسد.

الدليل الثاني: هو أن الله جل وعلا قال: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ** ﴾، وكلمة {سبحان} وكما يقول أهل اللغة: يؤتى بها للتعجب، فإذا تعجبت من شيء قلت: سبحان الله، وكان النبي ﷺ إذا تعجب من شيء سبح، يقول الشاعر :

لله در الغانيات المُدَّهِ *** سبحن واسترجعن من تألهي

ويقول: سبحان من علقة الفاخري.

والله جل وعلا هنا يقول: ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده** ﴾، فهو أمر عجيب ولو كان بالروح أو كان منامًا، لما كان عجيبًا ؛ لأن الإنسان وهو نائم – وكما سيأتي معنا – يرى أمورًا كثيرة وليس فيها مما يتعجب منه.

الدليل الثالث: قول الله جل وعلا: {**مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى**}، أي: ما عدل عن رؤية ما أمر برؤيته من عجائب الملكوت وما جاوزها. وهذه الآية صريحة في كونه بجسده؛ لأنه أضاف الأمر إلى البصر وهو لا يكون إلا يقظة بجسده، فالمنام لا

يقال: "بصر"، وأما في اليقظة فيقال:" بصر" ، فهنا قال: {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى}، فأضاف الفعل إلى البصر فدل هذا على أنه ﷺ أسري به وعرج بروحه وجسده الشريف.

الدليل الرابع: أنه لو كان مناما لما استبعده الكفار ولا كذبوه، لماذا؟ لأن مثل هذه المنامات لا تُنكر، وهذه قريش كانت تقول: يزعم محمدا أنه أتى بيت المقدس ورجع إلى مكانه في ليلته، والعير تضطرد إليها شهرًا مقبلة وشهرًا مدبرة! ولو كانت منامًا لم يستبعدوا هذا؛ لأن النائم يرى نفسه في الشرق وهو في المغرب، ويرى نفسه في السماء وهو في الأرض، ولا يُكذّب، فإذا قال: رأيت اليوم نفسي وكأني قد خرجت من هذه الدنيا إلى عالم آخر، لا يُكذبه الناس؛ لأن مثل هذا يرد كثيرًا، فلو كان الإسراء بالنبي ﷺ منامًا لما كذبته قريش.

الدليل الخامس: إخبار النبي ﷺ قريشًا أنه شرب من ماء قوم مر بهم في طريقه، ثم جاء القوم وأخبروا بما كان، وهذا لا يمكن أن يكون منامًا، أي: أن يخبر النبي ﷺ قريشا أنه مر على قوم يعرفونهم وأنه شرب الماء الذي كان عندهم، ثم يأتي هؤلاء القوم إلى قريش ويخبرونهم بأن النبي ﷺ فعل ذلك، أو أنهم وجدوا ماءهم قد شُرب، ثم يقال: بأن هذا منام ؟! لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون هذا مناما، إنما هذا فعل يقظة وفعل جسد مقترنة به الروح.

الدليل السادس: يقول القرطبي رحمه الله: "ليس الإسراء بجسده ﷺ في حال يقظته استحالة، ولا يُعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة ". يعني: أن اللفظ يحمل على حقيقته، والنبي ﷺ أخبر أنه عُرج به، وليس لأحد أن يصرفه عن ظاهره وهو العروج به جسدا وروحا، إلى معاني أخرى لم ترد بها النصوص، فالنبي ﷺ أخبرنا بهذا فكيف نقول: إن النبي ﷺ تحتمل ألفاظه أنه أسري بروحه دون جسده؟! أو أنه ﷺ أُسري به مناما لا يقظة؟! فهذا اللفظ لا يحتمله؛ لأن اللفظ يحمل في الأصل على ظاهره وحقيقته.

فهذه بعض أدلة أصحاب القول الأول، وهو قول الجمهور وهو الذي عليه جماهير المسلمين.

القول الثاني : أنه أُسري بالنبي ﷺ وعُرج به بروحه دون بدنه. وتفطن إلى الفرق بين هذا القول وبين القول الذي سيأتي، فأصحاب هذا القول يقولون: بروحه ولم يقولوا: إنه بالمنام، أو إنه كان مناما، إنما يقولون: إن الإسراء بالروح.

والروح لها تعلقات كثيرة كما سيأتي معكم في الفصول القادمة، فلها تعلق بالعبد وهو في بطن أمه، ولها تعلق به في حال يقظته، ولها تعلق به حال منامه، ولها تعلق به حال موته، ولها تعلق به حال بعثه، وحال وجوده في الجنة أو النار – عياذا بالله من النار.

فأصحاب هذا القول يقولون: إن النبي ﷺ أُسري بروحه دون جسده، ولم يقولوا: إنه أسري به مناما. وهذا القول مروي عن أم المؤمنين عائشة، ومعاوية رضي الله عنهما، تقول عائشة رضي الله عنها -فيما يروى عنها-: "ما فقدت جسد رسول الله ﷺ ليلة أُسري به، إنما أُسري بروحه". وفي لفظ "ما فقدت"، لكن الذي روي بالإسناد هو "ما فقد" وكان معاوية رضي الله عنه إذا سُئل عن الإسراء، قال: "كانت رؤية من الله صادق"

واستدل أصحاب هذا القول بأدلة منها:

أن هذا القول وهو قول عائشة رضي الله عنها وهي زوج النبي ﷺ، وهي أخبر الناس بأحواله. يعني: أن القائلين بهذا القول بعد معاوية وعائشة رضي الله عنهما، استدلوا بقول عائشة ومعاوية- رضي الله عنهما-، فقالوا: إن عائشة رضي الله عنها أخبر الناس بالنبي ﷺ، وهي تقول: ما فقد جسد رسول الله ﷺ ليلة أُسري به وإنما بروحه، بل في لفظ آخر "ما فقدت"

وأسندت الفعل إليها، "ما فقدت جسد رسول الله ﷺ"

القول الثالث: يقولون: أنه أُسري بالنبي ﷺ مناما، يعني: أُسري به وعرج به مناما.

واستدلوا على هذا بأدلة منها:

الدليل الأول: قوله تعالى: {**وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ**} .ووجه الاستدلال من هذه الآية هو: أن الله سماها رؤيا، والرؤيا في لغة العرب –كما يقولون– لا تطلق إلا على الرؤيا المنامية. لاحظ أنني قلت: "كما يقولون"، ولم أجزم بأن العرب لا يطلقون الرؤية إلا على الرؤية المنامية؛ لأنه سيأتي أنهم يطلقونها على غير ذلك.

الدليل الثاني : أنه جاء في بعض ألفاظ الحديث: **(بينا أنا نائمٌ)**، وفي بعض ألفاظه: **(فاستيقظت وأنا في المسجد الحرام)** . فهنا قال: (بينا أنا نائمٌ) هذا لفظ من الرسول –صلى الله عليه وسلم– يدل على أنه كان نائما، ثم إنه قال: (فاستيقظت وأنا بالمسجد الحرام) ،فقالوا: إن ابتداءه كان نوما، وآخره كان نوما، فالإسراء والمعراج يكون نوما لا يقظة.

القول الرابع: كان الإسراء يقظة، وأما المعراج فكان مناما.

واستدل أصحاب هذا القول بأدلة منها:

الدليل الأول: أن الإسراء ذكر في القرآن الكريم في معرِض الامتنان، ولو كان متصلا باليقظة إلى الملأ الأعلى لما اقتصر على قوله: (إلى المسجد الأقصى)، مع كون شأنه أعجب وأغرب، يعني: أن المعراج أعجب وأغرب من الإسراء، ومع ذلك ذُكرت آية الإسراء ولم تذكر آية المعراج، ولم يذكر المعراج متصلا بالإسراء، فدل على أن غاية الإسراء بالنبي ﷺ يقظة بجسده وروحه هو المسجد الأقصى، وأما المعراج فعُرج به مناما. يعني: أنه نام بالمسجد الأقصى ثم عُرج به ﷺ.

الدليل الثاني: إن قريشا أنكرت على النبي ﷺ دعواه الإسراء ولم تُنكر المعراج، فدل على أنه لم يحدثهم أنه عرج به يقظة. يقولون: إن الإنكار جاء منصبا على الإسراء ولم يكن إنكارهم قد ذُكر المعراج، فدل هذا على أن الإسراء كان يقظة، وعلى أن المعراج كان مناما، فقريش كذّبت بما يمكن التكذيب به، وهو دعوى الإسراء يقظة بالجسد والروح، ولم تكذب بما لا يمكن التكذيب به وهو دعوى العروج مناما.

فهذان الدليلان هما دليلان من قال: بأن الإسراء كان يقظة وأن المعراج كان مناما، وذكرنا أن الصحيح هو القول الأول وهو الذي تعضده الأدلة وهي شاهد له.

<u>الإجابة على الأقوال الأخرى</u> :

نجيب عن ما ذهب إليه أصحاب القول الثاني، وهو القول بأن النبي ﷺأُسري به وعرج به بروحه دون جسده .

فنقول : أما ما ورد عن عائشة رضي الله عنها فقد أخرجه ابن إسحاق في السيرة، ومن طريقهِ ابن جرير –رحمه الله– في تهذيب الآثار، يقول ابن إسحاق: أخبرني بعض آل أبي بكر، أن عائشة رضي الله عنها قالت: وذكر الأثر. فهذا الإسناد فيه علتان:

العلة الأولى: جهالة آل أبي بكر، فلا يدرى من آل أبي بكر الذين حدثوا ابن إسحاق بهذا، فقد يكون ابن إسحاق أخذه عن ضعيف.

والعلة الثانية: الانقطاع بين هذا المجهول من آل أبي بكر وبين عائشة رضي الله عنها؛ لأنه يقول: أخبرني بعض آل أبي بكر أن عائشة –رضي الله عنها– فهنا انقطاع؛ لأن آل أبي بكر الذين أخذ عنهم ابن إسحاق لا يتصور أن أحداً منهم أدرك عائشة رضي الله عنها؛ لأن بينهما سنين طويلة، وهذا إذاً إسناد لا تقوم به حجة.

وقد أورده القاضي عياض بلفظ: "ما فقدت جسد رسول الله ﷺ"، ومعلوم أن عائشة رضي الله عنها حين أُسري بالنبي ﷺلم تكن زوجة للنبي ﷺ ، فكيف تقول: "ما فقدتُ"، تذكر أنها ما فقدت والنبي ﷺ لم يكن تزوجها بعد؟! فهذا علة ثالثة لهذا اللفظ الذي هو"ما فقدت"، فيكون عندنا علتان في لفظ "ما فقد جسد رسول الله ﷺ"، ويكون عندنا ثلاث علل في قولها: "ما فقدت جسد رسول الله ﷺ"

فإن قال قائل: لماذا لا يكون في المرة الأولى أيضا ثلاث علل؟

فعائشة رضي الله عنها حينما تقول: "ما فُقد جسد رسول الله ﷺ" تدرك أنها أيضاً لم تدرك النبي ﷺ، إنما أخذته عن غيرها! قول: إن عائشة –رضي الله عنها – أو غيرها من الصحابة إذا أبهموا أحدا فإن حديثهم صحيح؛ لأن جهالة الصحابي لا تضر، فَعِلْمنا الصحابي أو جهلنا له لا يؤثر هذا في الحديث عن رسول الله ﷺ.

وأما ما يروى عن معاوية رضي الله عنه فقد أخرجه ابن إسحاق قال: حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة ابن الأخنس! أن معاوية بن أبي سفيان –رضي الله عنهما– كان إذا سئل عن مسرى رسول الله ﷺ، قال: كانت رؤيا من الله تعالى صادقة. فهذا المروي عن معاوية رضي الله عنه ضعيف؛ لأن يعقوب بن عتبة وإن كان ثقة إلا أنه لم يدرك معاوية رضي الله عنه، فهذا الأثر الذي يُروى عن معاوية رضي الله عنه أثر ضعيف لا تقوم به حجة. فدل على أن ما ذهب إليه أصحاب القول الثاني من دعوى أن الإسراء والمعراج كان بروح النبي ﷺ، ولم يكن بجسده أنه قول ضعيف، وأن الأدلة التي استدلوا بها لا تنتهض أن تكون حجة

الإجابة عن أدلة القول الثالث:

- تقدم أن أصحاب القول الثالث استدلوا بقول الله تعالى: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ** ﴾.

فنقول: أن وجه الدلالة من هذه الآية ضعيفة وبيان هذا من وجوه :

الوجه الأول: أنه ثبت عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في صحيح البخاري وغيره أنه قال في قوله جل وعلا " الرؤيا " قال: "رؤيا عين أُريها الرسول ﷺ ليلة الإسراء"، فانظر إلى قول ابن عباس وتفسيره للرؤيا في هذه الآية بأنها رؤيا عين، والذين قالوا: بأنها رؤيا منام، قالوا: إن الرؤيا إذا أُطلقت في لغة العرب فإنها لا تنصرف إلا إلى الرؤيا المنامية، فنقول: هذا ابن عباس رضي الله عنه إمام في اللغة ويقول: إنها رؤيا عين أُريها النبي ﷺ ليلة أسري به. ويقول الحافظ ابن حجر في فتح الباري: "إضافة الرؤيا للعين؛ للاحتراز عن رؤيا القلب" يعني: أن ابن عباس لما قال: "رؤيا عين"، احترز بها من أن تكون رؤيا قلب .

الوجه الثاني: أن الرؤيا تُطلق على الرؤيا المنامية وتطلق على الرؤيا البصرية، يقول الراعي النُميري وهو يصف رجلا خرج يتصيد صيدا فطال عليه الانتظار فرأى الصيد مقبلا، فلما رآه قال بيتاً قال:

فكبّر للرؤيا وهش فؤاده *** وبشّر نفسا كان قبلا يلومها

فهذه رؤيا بصرية، فهو رأى الصيد قد أقبل وسماها الراعي النُميري –وهو من أهل الاحتجاج– سماها رؤيا، وقال: فكبر للرؤيا وهش فؤاده، فهذه رؤيا بصرية ومع ذلك قال: " للرؤيا "، فدل هذا على أن الرؤيا تُطلق على الرؤيا البصرية وعلى الرؤيا المنامية.

وابن عباس رضي الله عنه قال: هي رؤيا عين أُريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به، فهذان وجهان من أوجه الرد والمناقشة لما استدل به أصحاب هذا القول من قوله جل وعلا:﴿**وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ**﴾، وسيأتي معنا إن شاء الله تعالى في الحلقة القادمة الإجابة عن الأدلة الأخرى، وأيضا سنتم الإجابة عن هذا الدليل الذي احتجوا به.

الحلقة (٤)

سبق في الحلقة الماضية أن تحدثنا عما يتعلقُ بالإسراء والمعراج و بخاصة ما يتعلقُ بأدلة القائلين بأن النبي ﷺ أُسريَ به يقظةً لا منامًا، و أنهُ عُرجَ به يقظةً لا مناما بروحهِ و جسده، و أيضاً تحدثنا عن أدلة القائلين بأن النبي ﷺ أُسريَ بهِ بروحهِ دون جسده، وذكرنا الجواب عما استدلوا به، ثم تكلمنا أيضاً عن أدلة القائلين بأن النبي ﷺ أُسريَ به و عُرج في المنام لا في اليقظة وذكرنا أدلتهم وبدأنا بالإجابةِ عما استدلوا به فكان مما استدلوا به قولهُ جَلَّ وعلا: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ** ﴾[الإسراء:٦٠]، وذكرنا تفسير ابن عباسٍ -رضي الله تعالى عنهما- لهذه الرؤيا، وذكرنا أيضاً أن الرؤيا كما أنها تطلق على الرؤيا المنامية، فإنها أيضاً تطلق على الرؤيا البصرية، وذكرنا بيتَ الراعي النُميري في هذا الشأن.

ونكملُ في هذه الحلقة الوجه الثالث من أوجه مناقشة دليل أصحاب هذا القول وهو قول الله جَلَّ وعلا: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ** ﴾[الإسراء:٦٠]، فنقول: **الوجه الثالث**: وهي أن هذه الرؤيا هي الرؤيا التي رآها النبي ﷺ وهي المذكورة في سورة الفتح في قوله جَلَّ وعلا: ﴿ **لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً** ﴾[الفتح:٢٧]، فهذا تفسيرٌ لهذه الرؤيا إن حملناها على الرؤيا المنامية، لكن الصحيح أنها رؤيا بصرية كما روي ذلك أو كما روى ذلك البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- لكننا نقول: إن قُلتم إنها رؤيا منامية فنقول: إنها مفسرةٌ بهذه الآية، و إلا فإنا لا نحتاج إلى هذا الوجه على تفسير ابن عباس -رضي الله عنهما-.

الوجه الرابع: أن الله تعالى جعلها فتنةً للناس، وليس فيما يراهُ النائمُ فتنة ولا يُكذبُ به أحد فدل هذا على أنها رؤيا عين فإنهُ لما قال: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ** ﴾ [الإسراء:٦٠]، نقول: إن رؤيا المنام لا تكونُ فتنةً لأحد وإنما تكون الفتنة في رؤيا العين، فالله جل وعلا جعلها فتنةً للناس، فدل هذا على أنها رؤيا عين وليست رؤيا منام.

- وأما استدلالهم وهذا الاستدلال بالدليل الثاني أو الرد على الدليل الثاني و أما استدلالهم ببعض ألفاظ الحديث وفيها: (**و أنا نائم**) وفيها (**فاستيقظت وأنا بالمسجد الحرام**).

فالجوابُ عن هذا أن يقال: إن هذا اللفظ أو هذه الألفاظ من الألفاظ التي غلّط الحُفاظُ فيها شريكاً، وهو راوي الحديث حتى قال الإمام مسلم -رحمه الله-: "فقدَّمَ و أخَّر وزادَ فيهِ ونقص" فمسلمٌ -رحمهُ الله- لما ذكرَ حديث الإسراء تركَ روايةَ شريك ثمَ قال: "فقدّمَ و أخّر وزاد فيه ونقص" والحفاظ غلطوا شريكاً في ألفاظٍ كثيرة بلغت عشرة ألفاظ، منها هذان اللفظان فهم غلَّطوا شريكاً في هذين اللفظين، وعلى التسليم بأن شريكاً -رحمه الله- لم يغلط في هذين اللفظين، فالسيوطي رحمه الله حملَ قولهُ: (**و أنا نائم**) على أن أول مجيء الملك إليه وهو نائم فأيقظه، لا أنهُ استمر نائما وقولهُ: (فاستيقظت وأنا بالمسجد الحرام)، يعني: أنهُ بعد انتهاءِ ما جرى من الإسراء والمعراج عاد النبي ﷺ إلى المسجد الحرام ونام ثم استيقظ، فهذه إجابةٌ عما استدل به أصحاب القول الثالث وهم القائلون: بأن ﷺ أُسريَّ به وعُرجَ به مناماً لا يقظة.

الإجابة عن أدلة القول الرابع:

فنقول: - أما استدلالُ أصحاب هذا القول بكون الإسراء ذُكر في القرآن فكان مداهُ المسجدِ الأقصى، ولم يُذكر المعراج مع كونه أغرب فيدلُ هذا على أنهُ ﷺ، أُسريَّ به جسداً يقظةً وعُرجَ به مناماً.

فنقول: السُنةُ مبينةٌ للقرآن، و القرآن قد جاء فيه ذكر المعراج وقد جاءت السُنةُ مُبينةً له.

- وأما استدلالهم بإنكار قريشٌ للإسراء دون المعراج فيقال: إنهم إذا أنكروا الأسهل فإنكارهم لما هو أعظمُ من باب

أولى، يعني: أنهم إذا أنكروا الإسراء وهو أسهل فكونهم ينكرون المعراج وهو أعظم من باب أولى ويقول بعض أهل العلم: إنهم استدرِجوا إلى الإيمان بذكر الإسراء ثمُ ذُكِرَ لهم ما هو أعظم منه وهو المعراج.

فتبين بهذا أدلةُ القول الجمهور وضعف أدلة الآخرين.

فَتَلَخَصَ من هذا أن النبي ﷺ أُسريَ به بجسدهِ وروحه، يقظةً لا مناما، وأنه ﷺ عُرجَ به بروحهِ وجسده يقظةً لا مناما، فهذا هو خلاصةُ هذا الموضوع وهو موضوع الإسراء والمعراج.

نتنقلُ بعد هذا إلى موضوعٍ آخر و هو موضوع الـحـوض:

فنقول: من الأمور التي يجب الإيمان بها الحوض، وقد ثبت الحوض للنبي ﷺ بالقرآن والسنة والإجماع.

أما القرآن: فقولهُ تعالى: {**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ** }[الكوثر:١]، وقد فسر النبي ﷺ الكوثر، فقد أخرجَ مسلمٌ في صحيحه عن أنس بن مالك ﷺ قال: بينما رسول الله ﷺ ذات يومٍ بين أظهرنا إذا أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسهُ متبسما، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله، قال: (أُنزلت عليّ آنفاً سورة) فقرأ: (بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**{١} **فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**{٢} **إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**{٣}﴾.ثم قال: (أتدرون ما الكوثر ؟) فقلنا: الله ورسولهُ أعلم، قال: (فإنهُ نهرٌ وعدنيه ربي عز وجل، عليه خيرٌ كثير هو حوضٌ تردُ عليه أُمتي يوم القيامة، آنيتهُ عدد النجوم، فيختلج العبدُ منهم فأقول: ربي إنهُ من أمتي فيقول: ما تدري ما أحدثت بعدك) .

يقول ابن أبي العز -رحمه الله- في شرحه للعقيدة الطحاوية: " وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَشْخُبُ منهِ مِيزَابَانِ مِنْ ذَلِكَ الْكَوْثَرِ إِلَى الْحَوْضِ، وَالْحَوْضُ فِي الْعَرَصَاتِ قَبْلَ الصِّرَاطِ، لِأَنَّهُ يُخْتَلَجُ عَنْهُ، وَيُمْنَعُ مِنْهُ أَقْوَامٌ قَدِ ارْتَدُّوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَمِثْلُ هَؤُلَاءِ لَا يُجَاوِزُونَ الصِّرَاطَ".

فهذا الحديث الذي فسرَ به النبي ﷺ الكوثر ليس هو صريحاً في الحوض الذي يكون يوم القيامة، وإنما هو صريحٌ في الحوض الذي يكون في الجنة، لكن هذا الحوض يشخبُ منهُ ميزابان يُمدان الحوض الذي يكون في عرصات يوم القيامة.

فهذا شارح الطحاوية يقول في النص الذي ذكرناه قبل قليل يقول: " وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَشْخُبُ منهِ مِيزَابَانِ مِنْ ذَلِكَ الْكَوْثَرِ إِلَى الْحَوْضِ "، فالكوثر الذي في الجنة حوضٌ عظيم يشخبُ منهُ ميزابان يمدان الحوض الذي في عرصات يوم القيامة.

وأما السنة يعني: الدليل من السنة على الحوض.

فقد قال ابن أبي العز رحمهُ الله: الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي ذِكْرِ الْحَوْضِ تَبْلُغُ حَدَّ التَّوَاتُرِ، رَوَاهَا مِنَ الصَّحَابَةِ بِضْعٌ وَثَلَاثُونَ صَحَابِيًّا، وقال الحافظ السيوطي رحمهُ الله: " ورد ذكر الحوض من روايةِ بضعةٍ وخمسين صحابيا منهم الخلفاء الأربعة الراشدون وحُفّاظ الصحابة المكثرون وغيرهم، فأحاديث الحوض بلغت حد التواتر، من هذه الأحاديث: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في صحيحه، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ قَدْرَ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى صَنْعَاءَ مِنَ الْيَمَنِ، وَإِنَّ فِيهِ مِنَ الْأَبَارِيقِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ**». وَعَنْهُ ﷺ أنِ النَّبِيِّ ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحة قَالَ: «**لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِي، حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمُ اخْتَلَجُوا دُونِي، فَأَقُولُ: أُصَيحابِي، فَيَقُولُ: لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وأيضاً من الأدلة ما رواه الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ**». وَالْفَرَطُ: الَّذِي يَسْبِقُ إِلَى الْمَاءِ.

وأيضاً من الأدلة ما رواه: الْبُخَارِيُّ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ، قَالَ: «**قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونَنِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ**). قَالَ أَبُو حَازِمٍ: -وهو

الراوي- فَسَمِعَنِي النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي عَيَّاشٍ [وَأَنَا أُحَدِّثُهُمْ هَذَا] فَقَالَ: هَكَذَا سَمِعْتَ مِنْ سَهْلٍ ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ. فَقَالَ: أَشْهَدُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ لَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَزِيدُ: (**فَأَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنْ أُمَّتِي فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**). **فَقَالَ: (سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي)**.

وأما الإجماع: فإن المسلمين أجمعوا على إثبات الحوض للنبي ﷺ عدا من شذ منهم ممن لا يُعتدُ بوِفاقه ولا خلافه، فشذ من هذا المعتزلة وقالوا: بأنهُ ليس هناك حوض وحجتهم في هذا أمران:

الأمر الأول: أن العقل يأباه فما وردَ من صفات فالعقل يُحيل هذا عند المعتزلة، عقولهم الفاسدة أحالت هذا.

الأمر الثاني: عدمُ احتجاجهم بأخبار الآحاد.

<u>والجواب عن هذا أن يقال</u>:

الأمر الأول: أما دعواكم بأن هذا من أخبار الآحاد، وأنهُ لا يُحتجُ بها فباطل، فأخبار الآحاد يُحتجُ بها على مسائل الاعتقاد، احتجَ بها صحابة النبي ﷺ وبعث النبي ﷺ رُسُلَهُ أحادا، ولم يزل صحابة النبي ﷺ يدعون إلى الإسلام ويرسلون الرُسل أحادًا، ولم يزل الناس يقبلون أخبار الآحاد ولم يفرقوا بين عمل و اعتقاد، وسيأتي إن شاء الله تعالى معنا في نهاية هذا الفصل ما يتعلق بأخبار الآحاد.

الأمر الثاني: أن نقول: إنَ هذه الأخبار وهي الأخبار الواردة في الحوض ليست أخبار آحاد، و إنما هي أخبار متواترة فتواترت الأخبار بذلك عن رسول الله ﷺ.

وأما دعواكم بأن العقل يُحيلُها فنقول: إن العقل الصحيح لا يُحيلُها لأن الله جَلَّ وعلا يقول: ﴿**أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ**﴾[الأعراف: ٥٤] ، والعقل الصحيح السالمُ من الشُبهات هو من خَلْقِ الله، وما جاء به النبي ﷺ هو من أمر الله، وخلق الله جل وعلا كائنٌ بأمره الكوني القدري، وشرع الله جل وعلا كائنٌ بأمره الديني الشرعي، ولا يمكن أن يتعارض الأمران، فالتعارض إنما هو في عقولكم الفاسدة، وأما أهل السُنةِ والجماعة فإن عقولهم تقبلُ ما جاء به النبي ﷺ وإن لم تدركه فهي تقبلهُ وتُسلم ولا تُجادلُ فيه، هكذا علّمنا دينُنا وهكذا علمنا نبينا ﷺ فخلاف هؤلاء المعتزلة لا يُعتدُ به فالمسلمون أجمعوا قبلهم على أن لنبينا ﷺ حوضا.

أنتقلُ بعد هذا إلى مسألةٍ أُخرى وهي :

صفات الحوض :

لهذا الحوض صفاتٌ عظيمة منها:

أنهُ حوضٌ عظيم فهذا النبي ﷺ يقول: (**حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى صَنْعَاءَ**). وموردٌ كريم فالنبي ﷺ أخبر بحلاوته، و أخبر النبي ﷺ بما يكون فيه من الآنية ومن جمالها، وأن ماء هذا الحوض أشدُ بياضاً من اللبن، و أنهُ أحلى من العسل، و أنهُ أبردُ من الثلج، وأنهُ أطيب ريحاً من المسك، وأنهُ في غاية الاتساع، و أن عرضهُ وطولهُ سواء كُلُ زاويةٍ من زواياه مسيرةُ كذا وكذا مما حدده النبي ﷺ فهذا شيءٌ من صفات هذا الحوض الذي أخبر به النبي ﷺ .

<u>هل يُقال: بأن حوض النبي ﷺ دائريُ الشكل ؟</u>

نقول: لا يقال هذا؛ لأن النبي ﷺ قال : (**عرضهُ وطولهُ سواء**) ، وأخبر النبي ﷺ بأن لهُ زوايا، والدائرةُ ليس لها زوايا فدل هذا على أنهُ ليس بدائري.

أنتقلُ بعد هذا إلى مسألةٍ أُخرى وهي:

من يُذاد عن الحوض ؟

الذي يُذادُ عن هذا الحوض هم الذين ارتدوا على أدبارهم، و أحدثوا في الدين ما لم يأذن به الله، يقول الْقُرْطُبِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فِي ((التَّذْكِرَةِ)): قال علماؤنا -رحمة الله تعالى عليهم أجمعين-: فكلُ من ارتد عن دين الله، أو أحدث فيه مالا يرضاه الله ولم يأذن به الله، فهو من المطرودين عن الحوض المبعدين عنه، و أشدهم طرداً من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم، وهذا يُفيد العبد المؤمن الحذر من الوقوع في البدع والمحدثات؛ وذلك أن البدع والمحدثات تتضمنُ عدم الشهادة للنبي ﷺ بالبلاغ، فالمحدث المبتدع يرى أن النبي ﷺ قد قصّرَ في بلاغه ولذا فهو يستدركُ على النبي ﷺ ويزيدُ في دينه، ويشرع ما لم يأذن به الله، والله تعالى سمى هؤلاء شُركاء فقال: ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [الشورى:٢١] فأهل الإحداث وأهل الخروج على جماعة المسلمين وعلى إمام المسلمين هم من المطرودين عن هذا الحوض؛ ولهذا فلا تغتر باللذين يخرجون باسم الدين على ولي أمر المسلمين بتفجيرات واغتيالات وغيرها، ويزعمون أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فهؤلاء خوارج يطردون عن الحوض فهم من أولى الناس طردا عن هذا الحوض الذي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه إذا سأل عن سبب طردهم وذودهم عن هذا الحوض، قيل له: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (سحقا سحقا) أي: بعدا بعدا، فهؤلاء هم الذين يذادون عن حوض النبي صلى الله عليه وسلم.

ننتقلُ إلى مسألةٍ أخرى وهي :

تحديد الحوضِ وتقديرهُ:

وهذه المسألة و هي مسألة تحديد الحوض وتقديرهُ سببُ بحثها هو اختلاف الروايات في تحديد الحوض وفي تقديره، فهي اختلفت في هذا التحديد وفي هذا التقدير و معلومٌ أن ما جاء به النبي ﷺ، وما جاء في كتاب الله تعالى لا يمكن أن يتعارضا؛ لأنهما من الله جل وعلا والله جَلَّ وعلا يقول: ﴿ **أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً** ﴾ [النساء:٨٢]، فالاختلاف نتيجة الاضطراب وهو دليلٌ على الكذب لكن لا يمكن بحالٍ من الأحوال أن يوجد اختلافٌ وتعارضٌ بين ما جاء في النبي ﷺ، وبين ما جاء في كتاب الله، أو بين ما في كتاب الله، وبين ما في سنة رسول ﷺ، ومن ذلك تحديد الحوض وتقديرهُ. وسيأتي إن شاء الله تعالى معنا في الحلقة القادمة الأدلة الدالة على هذا التحديد، وعلى هذا التقدير. وسنتناول إن شاء الله تعالى وجه الجمع بين هذه النصوص.

الحلقة (٥)

ذكرنا في الحلقة الماضية ما يتعلق بتحديد الحوض وتقديره، فأشرنا إلى ذلك إشارة موجزة؛ نظرًا لانتهاء وقت الحلقة ، وفي هذه الحلقة نستكمل الكلام عن **تحديد الحوض وتقديره**؛ فأقول وبالله التوفيق : اختلفت الروايات في تحديد الحوض وتقديره: فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أنس ؓ عن رسول الله ﷺ أنه قال : ((**إن قدر حوضي كما بين أيلة إلى صنعاء من اليمن**)) . وأخرج مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (**حوضي مسيرة شهر ، وزواياه سواء ، وماؤه أبيض من الورق ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء ، فمن شرب منه ؛ فلا يظمأ بعده أبدًا**)) . وأخرج مسلم في صحيحه من حديث حارثة ؓ قال : حوضه – يعني حوض النبي ﷺ – ما بين صنعاء والمدينة . وأخرج أحمد في مسنده من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ ((**حوضي كما بين**

عدن وعمان)) . وأخرج أحمد أيضا من حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : **((مثل مابين ناحيتي حوضي ؛ مثل مابين صنعاء والمدينة ، أو مثل ما بين المدينة وعمان))** .

وأخرج أحمد في مسنده عن ثوبان ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : **((أنا عند عُقر حوضي أذود الناس عنه لأهل اليمن أني لأضربهم بعصاي حتى يرفضى عليهم وإنه ليصب فيه ميزابان ؛ أحدهما من ورق ، والآخر من ذهب ، مابين بصرى وصنعاء ، أو مابين أيلة ومكة ، أو قال: من مقامي هذا إلى عمان))** .

وأخرج مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ قال: **((إن أمامكم حوضا مابين ناحيتيه كما بين جرباء وأذرح))** . إلى غير ذلك من الأحاديث التي حددت قدر حوض النبي ﷺ ، وهذا الاختلاف اختلاف لا يوجب الضعف كما ذكر ذلك أهل العلم عليهم رحمة الله ؛ لأنه من اختلاف التحديد والتقدير ، لا من الاختلاف في الرواية ، وفرق بين الأمرين؛ لأن ذلك لم يقع في حديث واحد فيعد اضطرابًا ، وإنما جاء في أحاديث مختلفة عن غير واحد من الصحابة، وكان النبي ﷺ يمثل لكل قوم الحوض بحسب ما يعلم المتكلم، ويفهم السائل .

يقول القرطبي رحمه الله تعالى في التذكرة : ظن بعض الناس في هذه التحديدات في أحاديث الحوض اضطراب واختلاف، وليس كذلك ؛ وإنما تحدث النبي ﷺ بحديث الحوض مرات عديدة، وذكر فيها تلك الألفاظ المختلفة؛ مخاطبًا كل طائفة بما كانت تعرف من مسافات مواضعها ؛ فيقول لأهل الشام: ما بين أذرح وجرباء ولأهل اليمن : من صنعاء إلى عدن ؛ لأنهم يعرفون هذا ، وهكذا . وتارة أخرى يقدر بالزمان ، فيقول : مسيرة شهر ، والمعنى المقصود :أنه حوض كبير متسع الجوانب والزوايا، فكان ذلك بحسب من حضره ممن يعرف تلك الجهات؛ فخاطب كل قوم بالجهة التي يعرفونها .إذا هذا الاختلاف لا يوجب الضعف في الأحاديث ، ولا يوجب الاضطراب فيها ، وإنما هذا الاختلاف من جنس ما كان النبي ﷺ يمثل لكل قوم بما يعرفونه ، وهذا من حسن تعليمه ﷺ . إذا كان إنسان يعرف التحديد من الرياض إلى جدة، وآخر يعرف التحديد من عمان إلى القاهرة، وآخريعرف التحديد من واشنطن إلى نيويورك ، فإن من الحكمة أن تمثل لكل قوم بما يعلمون ؛ لا أن تمثل لهم بما لا يعلمون ، أي تذكر لهم شيئا لا يعلمونه ، فليس هذا من الأساليب الجيدة في التعليم ، فإن الأسلوب الجيد والأسلوب الحسن هو ما كان عليه النبي ﷺ من مخاطبة كل قوم بما يعلمونه من حالهم ومن مسافاتهم، إلى غير ذلك.

يقول بعض أهل العلم: ليس في ذكر المسافة القليلة ما يدفع المسافة الكثيرة، فالأكثر ثابت بالحديث الصحيح؛ فلا معارضة. يعني: أنه إذا جاء عندنا ذكر لمسافة قليلة، ثم جاء بعده ذكر لمسافة طويلة، فيقولون: لا معارضة بينهما؛ لأن المسافة القليلة داخلة في المسافة الكثيرة، فإذا قلت مثلا: إن مدينة كذا وكذا هو ما بين الرياض وجدة، ثم قلت مثلا: إنه ما بين الرياض ومدينة أخرى تعادل جدة، فحينئذ لا يكون في هذا اضطراب ولا اختلاف، هنا المسافة متساوية، لكن إذا كان عندنا مسافة قليلة ثم ذكرت لنا مسافة كبيرة – مثل الحوض الذي معنا هنا في هذه الأحاديث – النبي ﷺ ذكر شيئا فيه مسافة قليلة ثم ذكر النبي ﷺ شيئًا فيه مسافة بعيدة؛ فإذا ذكر النبي ﷺ شيئًا فيه مسافة بعيدة فإن هذا لا ينفي ما فيه مسافة قليلة؛ لأنها داخلة فيه .

فيقول بعض أهل العلم: سبب الاختلاف ملاحظة سرعة السير وعدمها؛ فقد عهد في الناس من يقطع مسافة عشرة أيام في ثلاثة أيام وأكثر وأقل، يعني بعض الناس مسافة العشرة أيام عند غيره يقطعها في مسيرة ثلاثة أيام، وآخر يقطعها في مسيرة خمسة أيام، وآخر يقطعها في مسيرة يومين. يقولون: فالنبي ﷺ ذكر هذا باعتبار أحوال الناس في قطعهم للسير فمن يقطع مسافة عشرة أيام في عشرة أيام، المسافة هي مسافة من يقطع مسيرة عشرة أيام في ثلاثة أيام، فالاختلاف إنما هو في

ملاحظة سير السرعة وعدمها.

أنتقل بعد هذا إلى مسالة أخرى وهي: **هل لكل نبي حوض ، أو أن هذا خاص بالنبي ﷺ ؟**

جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((**إن لكل نبي حوضاً، وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردًا، وإني أرجو الله أن أكون أكثرهم واردًا**)). وهذا الحديث صححه الشيخ الألباني رحمه الله تعالى ، فدل هذا الحديث على أن لكل نبي من الأنبياء عليهم السلام حوضًا، وأن أممهم ترده، لكن حوض النبي ﷺ هو أكبرهم وأكثرهم واردًا، فالنبي ﷺ خُص بهذا وإن كان لكل نبي من الأنبياء عليه الصلاة والسلام حوضاً. وبهذا نكون قد انتهينا من مسألة أو موضوع الحوض الذي نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يرده في عرصات يوم القيامة، ويشرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدًا .

ننتقل بعد هذا إلى موضوع آخر وهو موضوع: **الشفاعة.**

الشفاعة في اللغة: من جعل الوتر شفعًا أي زوجًا، والوتر هو الواحد، فالشفع خلاف الوتر؛ فالوتر : واحد، وثلاثة، وخمسة، وسبعة، وتسعة، وأحد عشر، إلى غير ذلك، والشفع هو الزوج، فإذا كان - مثلا – عندك أحد عشر فتشفعه زوجًا، فيكون اثني عشر، فإن كان عندك تسعة وأردت أن تجعله شفعًا؛ فزد عليه واحدًا فيكون عشرة. إذا كان عندك واحدًا وأردت أن تشفعه، فتجعل معه واحدًا فيكون حينئذ شفعًا .

وأما الشفاعة في الاصطلاح: فهي سؤال الخير للغير أو التوسط للغير في جلب مصلحة أو دفع مضرة أي تتوسط لغيرك لكي تجلب له مصلحة أو لتدفع عنه مضرة، فهذه هي الشفاعة .

الشفاعة ثابتة في كتاب الله تعالى، وفي سنة رسوله ﷺ ، وفي إجماع المسلمين، إلا من شذ منهم من أهل البدع الذين لا يعتد بوفاقهم ولا بخلافهم في هذا الباب، وسيأتي إن شاء الله معنا شيء من النصوص الدالة على الشفاعة حين نتكلم في أنواع الشفاعة، فلا نذكرها هنا لئلا نطيل بإعادتها مرة أخرى.

الشفاعة جاءت في كتاب الله على نوعين : ١ / شفاعة منفية. ٢ / شفاعة مثبتة.

فالنصوص القرآنية جاء فيها نفي للشفاعة، وجاء في نصوص أخرى إثبات للشفاعة أيضا ، **فهل هذه النصوص متعارضة؟**

نقول: ليست هذه النصوص متعارضة، وإنما المنفي منها إنما نفي لانتفاء شرطه، والمثبت منها أُثبتَ لاستيفاء شروطه وزوال موانعه، وسأذكر هُنا النصوص النافية والنصوص المثبتة ثُمَّ سأذكر إن شاء الله تعالى الجمع بينهما :

أولا:النصوص النافية للشفاعة:

يقول الله جل وعلا : ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يؤخذ منها عدلٌ ولا هُمْ يُنْصَرُونَ**﴾ . ويقول تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾. ويقول تعالى حاكيا عن صاحب " يس " : ﴿ **أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ**﴾ . فهذه الآيات فيها نفي للشفاعة . ويقول تعالى : ﴿**وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ ، ويقول تعالى : ﴿**وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ**﴾ .

ويقول تعالى : ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ...**﴾ .

ويقول تعالى حاكيًا عن أهل النار : ﴿ **فمالنا من شافعين ولا صديق حميم** ﴾ .

ويقول جل وعلا : ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ** ﴾ ، ﴿ **أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ**﴾ . ﴿ **قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ ، ويقول جل وعلا : ﴿ **وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ** ﴾ .

فهذه الآيات فيها نفي للشفيع، والآيات التي قبلها فيها نفي للشفاعة؛ إذًا: مجموع هذه الآيات نفت الشافع ونفت الشفاعة.

ثانيا : النصوص المثبتة للشفاعة : يقول تعالى : ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾ . هذا استفهام جاء بعده استثناء فكان مثبتة. ويقول جل وعلا : ﴿**مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ**﴾ فهذا نفي لأن يكون أحد يشفع إلا بإذنه ، فأثبت الشافع بإذنه ، ونفى الشافع بغير إذنه .

ويقول جل وعلا : ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ**﴾ . فنفى الشفاعة عمن لم يرتضه جل وعلا وأثبتها لمن رضيه جل وعلا .

ويقول تعالى : ﴿**يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِي لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتْ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً يَوْمَئِذٍ لا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً**﴾، ويقول جل وعلا : ﴿**وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ . ويقول جل وعلا : ﴿**وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى**﴾ .فهذه الآيات أثبت الله جل وعلا فيها الشفاعة .

فهل هذه الآيات المثبتة للشفاعة معارضة للآيات النافية ؟

نقول: ليست هذه الآيات المثبتة معارضة للآيات النافية، فالشفاعة المنفية هي الشفاعة التي تطلب من غير الله، أو بغير إذنه، أو بغير رضىً من الله تعالى عن الشافع أو عن المشفوع له أو عنهما جميعًا، فلا بد من تحقق هذا الأمر، أما الشفاعة المثبتة فهي المستوفية للشروط.

واستمع إلى شروط هذه الشفاعة المُثبتة :

فالشرط الأول: قدرة الشافع على الشفاعة، يعني لا بد أن يكون الشافع قادرًا على الشفاعة، أما إذا لم يكن قادرًا على الشفاعة فإنها لا تطلب منه، حينئذ لا تنفع إذا طلبت منه وهو غير قادر على الشفاعة، وهذه كمن يطلب الشفاعة من الأصنام أو من الأولياء من أصحاب القبور أو من الصالحين أو من الأنبياء عليهم الصلوات والسلام بعد موتهم، فهذه الشفاعة لا يقدر عليها هؤلاء، يقول جل وعلا: ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ . ما لا يعلمه الله تعالى موجود، فليس بموجود، وهؤلاء يطلبون هذه الأشياء ممن لا يقدر عليها، فحقيقته كأنه غير موجود، يقول جل وعلا : ﴿**وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ .

فعلم من هذا أن طلب الشفاعة من الأموات طلب ممن لا يملكها ولا يقدر عليها، يقول تعالى : ﴿**إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾ . ويقول جل وعلا: ﴿**قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ من ظَهِيرٍ * وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ**

عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ .إذا لا بد من أن يكون الشافع قادرًا على الشفاعة، فإذا كان غير قادر؛ كأن يكون لا يملكها، أوهم عاجزون عنها، فإنها حينئذ لا تطلب منهم.

فإن قيل هل تطلب الشفاعة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بعد موتهم ؟

نقول: طلب الشفاعة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على ثلاثة أنواع :

الأول:شفاعة تطلب منهم وهم أحياء ، **وهذا جائز**، كما كان النبي ﷺ؛ تطلب منه، ويقول الله جل وعلا: **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾**، جاؤوك: أي في حال حياتك، فحينئذ إذا طلبوها حال حياته فهذا أمر جائز .

ثانيا: طلبها منهم في القبور، **فهذا لا يجوز ، وهو شرك أكبر مخرج من الملة .**

ثالثا: طلبها منهم بعد البعث والنشور، **فهذا الطلب جائز** – كما سيأتي معنا أن الناس يستشفعون بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ولعلنا نستكمل إن شاء الله تعالى شروط الشفاعة في الحلقة القادمة .

الحلقة (٦)

ذكرنا في نهاية الحلقة الماضية شروط الشفاعة المثبتة التي متى اختلَ شرطٌ منها أو انتفى فإن الشفاعة تكون حينئذٍ منفية وليست مُثبتة وذكرنا من هذه الشروط قدرة الشافع على الشفاعة ، وقلنا بأن من لا يقدرُ عليها كمن لا يملكها لا تُطلبُ منه وذكرنا **أن الأنبياء عليهم الصلاةُ والسلام في طلب الشفاعةِ منهم لهم أحوالٌ ثلاثة** :

الحالُ الأولى: أن تُطلبَ منهم وهم أحياء، **وهذا جائز** كما كان يطلب من النبي ﷺ ذلك.

الحال الثانية: أن تُطلبَ منهم وهم في البرزخ وهم في قبورهم فإنها حينئذٍ **لا يجوزُ طلبُ الشفاعةِ منهم** وكذلك من لم يمت كعيسى ابن مريم عليه السلام، فإن الله جل وعلا رفعُه حيًا فإنها لا تُطلبُ منه بعد رفعه .

الحال الثالثة: أن تُطلبَ منهم بعد في يوم الحشر و النشور **فإن هذا جائز** و الأنبياء عليهم الصلاةُ والسلام يأتيهم الناس يستشفعون بهم في ذلك الموقف العظيم .

الشرط الثاني من شروط الشفاعة المثبتة: إسلام المشفوع له، فإذا كان المشفوع له غير مسلم فإن الشفاعةَ لا تجوز إلا في حالٍ واحدة وهي شفاعة النبي ﷺ لعمهِ أبي طالب وهذه خاصةٌ به كما سيأتي معنا إن شاء الله تعالى، فالشفاعة للكافر لا تجوز، فلابد إذاً من أن يكون المشفوع لهُ مُسلمًا يقول الله جَلَّ وعلا:**﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾** غافر١٨.

والمراد بالظالمين هُنا الكافرون كما قال الله جَلَّ وعلا : **﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾**البقرة٢٥٤.

يقول البيهقي رحمه الله تعالى في ((شعب الإيمان)) : "فالظالمون هاهنا هم الكافرون ويشهد لذلك مفتتح الآية إذ هي في ذكر الكافرين". **ويقول ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره**: أي: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريبٍ منهم ينفعهم ولا شفيعٍ يشفعُ فيهم بل قد تقطّعت بهم الأسباب من كل خير ويُستثنى من المشركين كما تقدم أبو طالب فإن النبي ﷺ يشفعُ له حتى يصير في ضحضاح من نار وشفاعتهُ ﷺ لأبي طالب ليست شفاعة إخراج و إنما هي شفاعة تخفيف من العذاب و أما غيرهُ من الكافرين فإن الشفاعةَ لا تنفعُ فيه سواءً كانت شفاعة إخراج أو كانت شفاعة تخفيف من العذاب .

الشرط الثالث: الإذنُ للشافعِ بأن يشفع ، عندما قال جَلَّ وعلا : **﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾** البقرة٢٥٥.

فلا بد من الإذن للشافع فإذا شفع بغير إذن فإنهُ حينئذ تكون شفاعتهُ مردودة.

الشرط الرابع: الرضا عن المشفوع له، كما قال جَلَّ وعلا: **﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ**

أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ النجم٢٦ . ويقول تعالى : ﴿**وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ...** ﴾ الأنبياء٢٨ .

فهذه هي شروط الشفاعة المثبتة فإذا انتفى شرطٌ من هذه الشروط فإن الشفاعة حينئذ تكون شفاعةً منفية ولا تُقبل بل تكون مردودة ، فتبين بهذا أن شفاعةَ من تُطلبُ منهم الشفاعة من المشركين ونحوهم غيرُ نافعة، وشفاعةُ الناس أو شفاعةُ بعض الناس للمشركين غيرُ نافعة فالشفاعة لابد أن تتوفر فيها هذه الشروط .

أنواع الشفاعةُ المثبتة :الشفاعةُ المثبتة أنواع وسنذكر هنا هذه الأنواع ونبين ما هو خاصٌ بالنبي ﷺ وما يشاركهُ فيه غيرهُ.

النَّوْعُ الْأَوَّلُ من أنواع الشفاعة المثبتة: الشفاعةُ الْعُظْمَى، وهذه الشفاعة خاصةٌ بالنبي ﷺ لا يشاركهُ فيها أحد فهي خاصةٌ به في ذلك الموقف العظيم، وهذه الشفاعة دلَّ عليها القرآن في قول الله جَلَّ وعلا: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً** ﴾الإسراء٧٩ . ودلالة هذه الآية محتملة فليست بصريحة، لأنهُ قد أُختُلِفَ في هذا المقام المحمود اختلافًا كثيرًا. **والدليل الصريح لهذه الشفاعة** : هو ما أخرجه الشيخان في صحيحهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: «أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يوماً بِلَحْمٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ مِنْهَا الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً، فقَالَ: (**أَنَا سَيِّدُ ولد آدم يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ لِمَ ذَلِكَ ؟**) -يعني :بأي شيء صرت سيد الناس يوم القيامة أو سيد ولد آدم يوم القيامة، (**يَجْمَعُ اللَّهُ يوم القيامة الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَيَسْمَعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسُ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ**)، قوله ﷺ : فَيَبْلُغُ النَّاسُ هذا مفعولٌ به مقدم والاسم الموصول في قوله: (**مَا لَا يُطِيقُونَ** هذا هو الفاعل ، **وَمَا لَا يَحْتَمِلُونَ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: ائتوا آدَمُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ** عليه السلام **فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلَا تَرَى إلى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ آدَمُ** عليه السلام : **إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُه، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا** عليه السلام **فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ لهم: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قد كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ** عليه السلام **فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ** عليه السلام **فَيَقُولُونَ: أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمَ** عليه السلام**: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى** عليه السلام **فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ فضلك اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى** عليه السلام : **إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُؤْمَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى** عليه السلام **فَيَأْتُونَ عِيسَى** عليه السلام **فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى** عليه السلام : **إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ**) - فانظر إلى أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام كيف أنهم اعتذروا عن الشفاعة ثم انظر إلى هذا المقام المحمود الذي حصلهُ النبي ﷺ فضلاً من ربه جَلَّ وعلا وهو كونهُ يشفع - قال: (**فَيَأْتُونِي،فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَغَفَرَ اللَّهُ لَكَ ذَنْبَكَ، مَا تَقَدَّمَ مِنْهُ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى**

رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَأَنطلقُ، فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لأَحَدٍ قَبْلِي، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ الجنةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوى ذلك مِنَ الْأَبْوَابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إنّ ما بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى».أَخْرَجَاهُ فِي ((الصَّحِيحَيْنِ)) بِمَعْنَاهُ، وَاللَّفْظُ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ

فهذه الشفاعة هي شفاعة ﷺ لأهل الموقف شفاعة النبي ﷺ لأهل الموقف ، **فإن قلت: إن هذه الشفاعة ليس فيها ذكرٌ بأن النبي ﷺ شفع فيها لأهل الموقف إنما قال: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ الجنةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ ؟** فالجواب : أن أهل العلم رحمهم الله يقولون إن في هذا حذف يعني أن النبي ﷺ أُعطيَ الشفاعة لأولئك يعني لأهل الموقف ثم شفع النبي ﷺ بعد ذلك لأمته ، فشُفِّعَ ﷺ الشفاعتين في ذلك الموقف ، فهذا هو دليل الشفاعة العظمى وهي خاصةٌ بالنبي ﷺ ؛ وذلك أنك كما سمعت أن الأنبياء عليهم الصلاةُ السلام يتأخرون عن هذه الشفاعة ويتقدم إليها النبي ﷺ فهو ﷺ كان سيد ولد آدم وكان سيد الناس يوم القيامة بهذا الموقف العظيم وبهذه الشفاعة التي فضلهُ الله جل وعلا بها على سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاةُ والسلام .

النَّوْعُ الثَّانِي من أنواع الشفاعة : **الشفاعة لأهل الكبائر**، ودليل هذا النوع ما أخرجهُ أبو داودَ في سُننه والترمذي في جامعه و ابن ماجه في سننه، عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، عن النبي ﷺ أنهُ قال: «**شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**»، فالنبي ﷺ أخبرَ أنهُ يشفع لأهل الكبائر من أُمته، وأخرج أبو داود في سُنَنِهِ والترمذي في جامعه من حديث عمران بن حصين ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**ليخرجن قومٌ من أُمتي من النار بشَفَاعَتِي يسمون جهنّميون** »، قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح ، وأخرجَ مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخُدري ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال« **أما أهل النارِ الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن ناسٌ أصابتهم النار بذنوبهم،أو قال:بخطاياهم، فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فحماً أُذن بالشفاعة فجيء بهم** ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبّةِ تكون في حميل السيل »

وهذه الشفاعة وهي **الشفاعة لأهل الكبائر لا يختصُ بها النبي ﷺ بل يشركهُ فيها غيرهُ** يعني أن هذه ليست من الشفاعات الخاصة بالنبي ﷺ و إنما هي من الشفاعات التي يُشاركهُ فيها غيرهُ.

الدليل على أن هذه الشفاعة ليست خاصة بالنبي ﷺ: ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري ﷺ **:أن ناسًا في زمن النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله:هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ : (نعم، قال: "هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحوًا ليس معها سحاب؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحوًا ليس فيها سحاب؟" قالوا: لا يا رسول الله . قال: "ما تضارون في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، إذا كان يوم القيامة أذَّن مؤذِّن: ليتَّبع كل أمة ما كانت تعبد، فلا يبقى من كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر وغُبَّرِ أهل الكتاب، فيدعى اليهود فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزيرًا ابن الله، فيقال: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فماذا تبغون؟ قالوا :عطشنا يا رب فاسقنا، فيشار إليهم: ألا تردون؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضًا، فيتساقطون في النار، ثم يدعى النصارى، فيقال لهم :ما كنتم تعبدون ؟ قالوا: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال لهم: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فيقال لهم: ماذا تبغون؟ فيقولون: عطشنا يا ربنا! فاسقنا، قال: فيشار إليهم: ألا تردون؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضًا،**

فيتساقطون في النار، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله تعالى من بر و فاجر أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من التي رأوه فيها، قال: فماذا تنتظرون! تتبع كل أمة ما كانت تعبد، قالوا: يا ربنا! فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم، ولم نصاحبهم، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، لا نشرك بالله شيئًا – مرتين أو ثلاثًا- حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب، فيقول: هل بينكم وبينهُ آية فتعرفونه بها ؟ فيقولون : نعم، فيكشف عن ساقٍ فلا يبقى من كان يسجدُ لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجدُ اتقاءً و رياءً إلا جعل الله ظهرهُ طبقةً واحدة كلما أراد أن يسجد خرَّ على قفاه، ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أولَ مرة، فقال : أنا ربكم، فيقولون : أنت ربنا، ثم يضرب الجسر على جهنم، وتحل الشفاعة، ويقولون: اللّٰهُمَّ سلم سلم، قيل: يا رسول الله وما الجسر ؟ قال: دحض مزلة، فيه خطاطيف وكلاليب وحسك تكون بنجد، فيها شويكة، يقال لها: السعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلّم، ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم، حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فو الذي نفسي بيده! ما من أحدٍ منكم بأشدَّ مناشدةً لله في استيفاء الحق، من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار، يقولون: ربنا ، كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم – فتحرمُ صورهم على النار– فيخْرُجونَ خلقاً كثيرًا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه و إلى ركبتيه . ثم يقولون: ربنا! ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به . فيقول : ارجعوا، فما وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقاً كثيرًا ، ثم يقولون: ربنا! لم نذر فيها أحدًا ممن أمرتنا به. ثم يقول : ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا! لم نذر فيها أحد ممن أمرتنا أحدًا ، ثم يقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها خيرًا». وكان أبو سعيد الخدري يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم : **﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾**النساء٤٠، فيقول الله تعالى : « **شفعت الملائكةُ وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبقَ إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرجُ منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط، قد عادوا حِممًا فيلقيهم في نهرٍ في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرجُ الحبةُ في حميل السيل، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر: ما يكون إلى الشمسِ أُصيفر و أُخيضر، وما يكون منها إلى الظل يكونُ أبيض؟** »، فقالوا: يا رسول الله! كأنك كنت ترعى بالبادية ".

فهذا الحديث فيه شفاعة المؤمنين لإخوانهم المؤمنين الذين دخلوا النار وهم أهل الكبائر فإنهم يشفعون فيهم حتى إنهم ليشفعون فيمن كان في قلبه مثقالُ ذرة من خير ، فهذا دليلٌ على أن هذه الشفاعة شفاعةٌ يُشاركُ فيها الأنبياء غيرهم من الأولياء والصالحين والمؤمنين .

الحلقة (٧)

تكلمنا في المحاضرة السابقة عن الشفاعة المنفية وعن الشفاعة المثبتة وعن شيء من أنوع الشفاعة المثبتة وتكلمنا عن الشفاعة العظمى وقلنا أنها خاصة بالنبي ﷺ لا يشاركه فيها أحد غيره حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ثم ذكرنا الشفاعة لأهل الكبائر وقلنا الشفاعة لأهل الكبائر ليست خاصة بالنبي ﷺ إنما يشاركه فيها غيره وذكرنا الدليل الطويل الذي أخرجه مسلم رحمه الله في صحيحه وفيه شفاعة المؤمنين لإخوانهم المؤمنين الذين دخلوا النار، أيضاً نذكر في هذه الحلقة من الأدلة أيضاً ما أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ؓ أنه قال: قيل: يا رسول الله! من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: **((لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك؛ لما رأيت**

من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إلٰه إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه)).

وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة ﷺ قال :((**سألت رسول الله ﷺ ماذا رد إليك ربك في الشفاعة ؟ ، فقال : والذي نفس محمد بيده لقد ظننت أنك أول من يسألني عن ذلك من أمتي؛ لما رأيت من حرصك على العلم، والذي نفس محمد بيده ما يهمني على انقضاضهم على أبوب الجنة أهم عندي من تمام الشفاعة وشفاعتي لمن شهد أن لا آله إلا الله مخلصاً يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه**).وهذان الحديثان وإن لم يكونا صريحين فإنهما دالين على ذلك لأن أهل الكبائر من جملة المسلمين ،

وهذا النوع من أنوع الشفاعة أثبتها سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب وأهل الحديث وغيرهم، فالسلف من صحابة النبي ﷺ أثبتوا هذا؛ لأن نبيهم ﷺ أخبرهم بهذا، واقتفى أثرهم من اقتفى من التابعين ومن أهل العلم ومن أهل الحديث وخالف في ذلك شرذمة من أهل البدع وهم المعتزلة ومن أخذ بمذهبهم من الطوائف الأخرى. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: " إن أحاديث الشفاعة لأهل الكبائر ثابتة متواترة عن النبي ﷺ ، وقد اتفق عليها السلف من الصحابة وتابعيهم بإحسان وأئمة المسلمين، وإنما نازع في ذلك أهل البدع من الخوارج والمعتزلة ونحوهم ولا يبقى في النار أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان، بل كلهم يخرجون من النار ويدخلون الجنة .

فالخوارج والمعتزلة ومن تبعهم من الطوائف والمذاهب الأخرى أخذوا بهذا القول أخذوا بنفي شفاعة النبي ﷺ وشفاعة غيره لأهل الكبائر و استدلوا على هذا بأدلة من القرآن الكريم ظنوها أدلة لهم على مذهبهم والحقيقة أنها ليست دليلاً لهم إنما هي دليل عليهم فمن هذه الأدلة:

الدليل الأول: قوله تعالى﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨)**﴾

هؤلاء **استدلوا بهذه الآية على ما ذهبوا إليه من وجهين** :-

- **الوجه الأول**: هو أن الله تعالى أخبر أن لا تحمل نفس عن نفس شيئًا من الآثام ولا تؤثر في إسقاط العقاب عنها، ولو أثرت الشفاعة في إسقاط العذاب لكان قد أجزت نفس عن نفس شيئاً، وهذا يناقض ما دلت عليه الآية بزعمهم ، يعني يقولون: إن الله جل وعلا أخبر أنه لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا تحمل نفس عن نفس شيئاً من الآثام ولا تؤثر في إسقاط العقاب عنها فلو كانت شفاعة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو شفاعة غيرهم من الأولياء والصالحين نافعة لكانت قد أثرت وأجزت نفس عن نفس شيئاً والله جل وعلا نفى ذلك وإن كان نفى ذلك وجب الوقوف عند ما نفاه وإلا نكون على هذا مناقضين لما دلت عليه الآية هذا هو الوجه الأول من وجوه الاستدلال عندهم.
- **الوجه الثاني**: قالوا أن شفاعة جاءت في الآية نكرة في سياق النفي فتعم جميع أنوع الشفاعة معلوم أن النكرة إذا جاءت في سياق النفي أنها من صيغ العموم قالوا وشفاعة هنا جاءت نفي ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا تقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ** ﴾ فهنا قال ﴿**لا تقبل**﴾ نفي و﴿**شفاعة**﴾ جاءت نكرة فدل هذا على العموم.
- **الوجه الثالث**: قالوا: إن الله تعالى أخبر أنهم لا ينصرون بشفاعة ولا بغيرها؛ لأنه قال: ﴿**وَلا هُمْ يُنصَرُونَ**﴾ ولو كان محمد ﷺ شفيعاً لأحد من العصاة لكان ناصراً لهم وهذا خلاف الآية .

هذه هي الثلاث حجج أو ثلاث أوجه جعلوها أو أخذوها كما يزعمون من الآية، يزعمون أنها دالة على ما ذهبوا إليه والجواب عن هذا الاستدلال من وجوه ذكرنا أوجه استدلالهم الآن نذكر **أوجه الرد على أوجه استدلالهم:**

• **الوجه الأول**: يقول الرازي رحمه الله في تفسيره :" لا يجوز أن يكون المراد من الآية نفي الشفاعة في زيادة المنافع لأنه تعالى حذر من ذلك اليوم بأنه لا تنفع فيه شفاعة وليس يحصل التحذير إذا رجع نفي الشفاعة إلى تحصيل زيادة النفع لأن عدم حصول زيادة النفع ليس فيه خطر ولا ضرر يبين ذلك أنه تعالى لو أنه قال " اتقوا يوماً لا أزيد فيه منافع مستحق لثواب بشفاعة أحد" لم يحصل لذلك زجر للمعاصي ولو قال " اتقوا يوماً لا أسقط فيه عقاباً لمستحق العقاب بشفاعة شفيع كان ذلك زجراً عن المعاصي"فثبت أن المقصود من الآية نفي تأثير الشفاعة في إسقاط العقاب لا نفي تأثيرها في زيادة المنافع يعني هي لم تنفِ تأثيرها في زيادة المنافع إنما نفت تأثيرها في إسقاط العقاب، هذا إذا قلنا بأن هذه الشفاعة ليست خاصة ليست منتفية عن الكفار فقط.

• **الوجه الثاني** : وهو أن هذه الآية وإن كان ظاهرها العموم إلا أنها مخصوصة بالكفار فحينئذ تكون هذه الشفاعة لها تأثير في إسقاط العقاب لكن تأثيرها في إسقاط العقاب عن طائفة واحدة وهم المؤمنون، أما الطائفة الأخرى وهم الكفار فإنها لا تنفع فيهم، فيكون تأثيرها في إسقاط العقاب وكذلك في تخفيف العقاب عن المؤمنين خاصة، يبين أن هذه الآية وإن كان ظاهرها العموم إلا أنها مخصوصة بالكفار يبين هذا **الأمور الآتية**:-

١. **سبب نزول هذه الآية** : فهذه الآية نزلت في اليهود الذين زعموا أن آباءهم يشفعون لهم .

٢. **هو إلزام للمعتزلة ومن وافقهم** ،فالمعتزلة و الخوارج ومن وافقهم قالوا: الشفاعة في زيادة الثواب إذا قال في الشفاعة في زيادة الثواب أليس ينقضون قولهم بأن هذه الشفاعة غير مؤثرة البتة يكونون بهذا قد نقضوا قولهم فدل على أنهم يوافقوننا في أن هذه الآية إنما هي من العام المخصوص .

٣.أن الشفاعة العظمى للنبي ﷺ وافقت عليها المعتزلة والخوارج ولم يدخلوها في عموم هذه الآية .

• **الوجه الثالث من أوجه الرد على استدلالاتهم**: أن هذه الآية إنما هي في حق الكفار أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في هذه الآية أنه قال:(لا تغني نفس مؤمنة عن نفس كافرة من المنفعة شيئاً، فنفي الشفاعة إنما هو عن الكفار وليس عن أهل الكبائر).

الدليل الثاني : للمخالفين وهم الخوارج والمعتزلة ومن أخذ بمذهبهم: استدلوا بقول الله تعالى ﴿ **وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ** ﴾ [غافر: ١٨] .

ووجه الاستدلال من هذه الآية: أن الله تعالى نفى عن الظالمين وجود صديق حميم أو شفيع يشفع لهم أو وجود شفيع يشفع لهم وصاحب الكبيرة ظالم فدل عموم هذه الآية على نفي الشفاعة لهم .

والجواب عن استدلالهم بهذه الآية من وجهين :-

• **الوجه الأول** : أن المراد بالظالم هنا هو المشرك الكافر وهذا منتفية عنه الشفاعة بالاتفاق فالظالم هنا هو الكافر ونحن وإياهم وجميع المسلمين جميع أهل القبلة متفقون على أن الشفاعة منتفية عنهم. يقول ابن كثير رحمه الله: (أي ليس الذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم أو شفيع يشفع لهم بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير والظلم هنا نظير الظلم في قوله تعالى ﴿ **وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ أن الظلم هنا نضير الظلم هناك فقوله ﴿ **مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ** ﴾يعني ما للكافرين الذي هو ظلم الشرك .

• **الوجه الثاني** : أن الله تعالى نفى شفيعاً يطاع ولم ينفِ شفيعاً يجاب لاحظ قوله جل وعلا : ﴿**مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ** ﴾ ما قال: إنه شفيع يجاب؛ لأن الطاعة تكون لمن هو أدنى ممن هو أعلى، فمن هو أعلى يطيعه من هو أدنى منه،

والله جل وعلا ليس فوقه أحد، أما الإجابة فإن الله جل وعلا يستجيب لعباده وهو جل وعلا أعلى منهم، فالله جل وعلا نفى شفيعاً يطاع ولم ينفِ شفيعاً يجاب، والشفيع لا يكون إلا دون المشفوع إليه.

ففرق بين الأمرين: الشفيع لا يكون إلا دون المشفوع إليه، المشفوع إليه هنا **من هو؟** هو الله جل وعلا، والشفيع هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن أذن الله جل وعلا ورضي له أن يشفع، فهم دون الله جل وعلا فالمشفوع إليه هو الله والشافع والشفيع هم هؤلاء الشفعاء فالله جل وعلا يستجيب لهم إذا طلبوا الشفاعة؛ لكنه لا يطيعهم؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿ **مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ** ﴾.

الدليل الثالث : قوله جل وعلا: ﴿ **يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾سورة البقرة(٢٥٤)

ووجه الاستدلال من هذه الآية:دعواهم أن ظاهر الآية يقتضي نفي الشفاعات بأسرها؛ لأنه قال: ﴿ **لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ** ﴾ وشفاعة هنا نكرة جاءت في سياق النفي فدلت هذه الآية على نفي عموم الشفاعات ومن ذلك الشفاعة لأهل الكبائر.

والجواب عن استدلالهم بهذه الآية من وجوه :-

- **الوجه الأول** : أنهم لا يقولون بعموم هذه الآية لكل أنواع الشفاعة، بدليل إثباتهم للشفاعة العظمى والشفاعة لزيادة الثواب فهم إذاً يقولون بالشفاعة العظمى ويقولون بالشفاعة لزيادة الثواب وهم هنا احتجاجهم بهذه الآية ينفون أي شفاعة يلزمهم أن تكون الشفاعة العظمى والشفاعة في زيادة الثواب منتفية وهم لا يقولون بذلك، فدل هذا على أنهم لا يقولون بعموم هذه الآية.
- **الوجه الثاني من أوجه الرد عليهم** : أن هذه الآية واردة في حق الكفار المتصفين بالظلم على الإطلاق لا على أهل الظلم من المؤمنين. **يقول ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره**: (وهذه الآية مخرجها في الشفاعة عام والمراد بها خاص، وإنما معناه من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة لأهل الكفر بالله؛ لأن أهل ولاية الله والإيمان به يشفع بعضهم لبعض.. إلى أن قال: قوله: { **وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ** } إنما هو المراد به أهل الكفر فلذلك اتبع قوله ذلك:{ **وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ** } فدل بذلك على أن معنى ذلك حرمنا الكفار النصرة من الأخلاء والشفاعة من الأولياء والأقرباء ولم نكن لهم في فعلنا ذلك بهم ظالمين إذ كان ذلك جزاء منا لما سلف منهم بالكفر بالله في الدنيا بل الكافرون هم الظالمون أنفسهم بما أتوا من الأفعال التي أوجبوا لها العقوبة من ربهم. فابن جرير رحمه الله يبين في هذه الآية أن المراد بنفي الشفاعة هنا إنما هي نفي الشفاعة عن أهل الكفر بدليل أنه قال:{ **وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**} ، أما الشفاعة لأهل الإيمان فإن هذه الآية لم تنفها وإنما نفت المتصفين بالظلم على الإطلاق وهم الكفار؛ لأن أهل الإيمان لا يتصفون بالظلم على الإطلاق وإنما يكون فيهم ظلم كما يكون فيهم أيضاً معصية كما تجتمع فيهم الطاعة والمعصية ويجتمع فيهم الكفر والإيمان ويجتمع فيهم الظلم والعدل إلى غير ذلك من الأمور التي لا تكون على الإطلاق إلا في حق الكفار .

الدليل الرابع: للمخالفين من الخوارج والمعتزلة ومن وافقهم: قوله جل وعلا : ﴿ **رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ** ﴾. **ووجه الاستدلال من هذه الآية**: أن الله تعالى بين أنه ليس للظالم يوم القيامة من نصير ينصره من الله وهذا عام وإن كان الرسول ﷺ يشفع لأهل الكبائر من أمته لكان الفسقة منصورين؛ لأنهم إذا تخلصوا بشفاعة الرسول ﷺ من العذاب فقد بلغ الرسول النهاية في نصرتهم. هذا هو وجه استدلالهم من هذه الآية.

والجواب عن هذا الاستدلال من وجوه :-

- **الوجه الأول** : أن هذا خاص بالكفار وهم لا يخرجون من النار يقول أنس بن مالك ﷺ في قوله من تدخل بمعنى من تخلد ويقول سعيد بن المسيب رحمه الله الآية جاءت خاصة في قوم لا يخرجون من النار وهم الكفار .
- **الوجه الثاني**: أن هذه الآية وإن كان ظاهرها العموم إلا أنها خصصت بأدلة أخرى ولا تفيد أن الظالم كافر لا يستحق الشفاعة أبدا .
- **الوجه الثالث**: لو سُلّم أن هذه الآية في عصاة الموحدين ونحن لا نسلم إنما لو سلمنا جدلاً أن هذه الآية في عصاه الموحدين، يعني لو فرضنا أن هذه الآية في عُصاة الموحدين ، فالمراد به الحياء؛ لأن العرب تقول خزي يخزا خزايا إذا استحيا، فخزي المؤمنين يومئذ استحياؤهم من دخول النار لكنهم يخرجون بالشفاعة فقوله جل وعلا ﴿ **رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ**﴾ يعني أن هذا الخزي هو الحياء فإنهم يستحيون حينما يأمر بهم إلى النار فيدخلون النار وهم يرون الكافرين قد دخلوها؛ لكن دخولهم للنار لا يعني خلودهم فيها ولهذا قال أنس بن مالك ﷺ : إنك من تدخل النار يعني من تخلد وهؤلاء لا يخلدون فيها بل يخرجون منها، فدل هذا على أنه لو سلمنا أن الآية في عصاه الموحدين فليس المراد بذلك الخزي الذي هو يقتضي الخلود في النار أبد الآبدين. فهذا الوجه هو الوجه الثالث من أوجه الرد على استدلالهم بقوله تعالى ﴿ **رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَه** ﴾

الحلقة (٨)

الدليل الخامس : للمخالفين من الخوارج والمعتزلة هو قوله جل وعلا : ﴿ **وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى** ﴾ ، وجه الاستدلال عندهم من هذه الآية ، قالوا : إن الله تعالى أخبر عن الملائكة أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله تعالى ، والفاسق والفاجر من المؤمنين غير مرتضيين فالملائكة لا تشفع لهم ، وكذلك الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه إذ لا فرق بينهم ، فإذا لم تشفع الملائكة ولم يشفع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فغيرهم من المؤمنين من باب أولى .

والجواب عن هذا أن يقال: لا يصح القول بأن العاصي المؤمن قد خرج عن رضى الله عز وجل كخروج المشرك عنه ، وليس من حكمة الله تعالى المساواة بين هذا وهذا ، فحكمة الله عز وجل تأبى ذلك ﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين** ﴾، فالله جل وعلا لا يجعل المسلمين كالمجرمين، فالمسلمون ولو كان معهم ذنوب وكبائر فإنهم لا يكونون كالمجرمين الذين هم الكفار ، كما أن العقل الصحيح يمنع المساواة بينهما، فالمؤمن جمع بين إساءة وإحسان فله من الإحسان أجره ، وأما الكافر المشرك فهو كما قال تعالى : ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا** ﴾ الفرقان:٢٣ ، فدل بذلك على أن المؤمن مرضي من وجه ومسخوط عليه من وجه ، فإذا أمر به ودخل النار فحينئذ يكون قد أخذ حقه من جزاء عمله ، ويكون هذا من وجه السخط عليه ، فإن الله جل وعلا لما سخط عليه – والسخط صفة لله جل وعلا – عذبه ؛ لكن تعذيبه تطهير له من الذنوب والخطايا حتى يدخل الجنة نقياً ، فهو بهذا مسخوط عليه من هذا الوجه ؛ لكنه مرضي من وجه آخر ولذلك قُبِلَتْ الشفاعة فيه .

الدليل السادس : للمخالفين قوله جل وعلا : ﴿ **فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ** ﴾ ، وجه الاستدلال عندهم قالوا : إن الله تعالى أخبر عن الفساق أنهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين ولا تغني عنهم شيئاً ، ولو أثّرت الشفاعة في إسقاط العذاب لكانت الشفاعة تنفعهم وهذا مناقض للآية .

والجواب عن هذا : أن شفاعة الشافعين لا تنفع من وصفوا غي هذه الآية ولا من كان على طريقتهم فالله تعالى يقول : ﴿ **كُلُّ**

نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * ﴾ المدثر (٤٢:٨٣) ، اسمع إلى ما سلك هؤلاء المجرمين في سقر :

- الأمر الأول : ﴿ **قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ** ﴾ .
- الأمر الثاني : ﴿ **وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ** ﴾ .
- الأمر الثالث : ﴿ **وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ** ﴾ .
- الأمر الرابع : ﴿ **وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ** ﴾ .
- الأمر الخامس : ﴿ **حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ** ﴾ .

قال الله جل وعلا : ﴿ **فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ** ﴾ ، فمن كان متصفاً بمثل ما اتصف به هؤلاء فإن الشفاعة لا تنفعه ؛ لكن أهل الإيمان لم يتصفوا بهذه الصفات ، فهم من المصلين ، وهم يحضون على طعام المسكين ، وهم يؤدون زكاتهم ، وهم يؤدون صلاتهم ، ويصدّقون بيوم الدين ، ولا يخوضون مع الخائضين ، فهذه الصفات منتفية عنهم ، فحينئذٍ تنفعهم شفاعة الشافعين ، فمن لم يكن متصف بهذه الصفات فشفاعة الشافعين تنفعه . يقول ابن كثير رحمه الله : "**من كان متصفًا بمثل هذه الصفات فإنها ، يعني** : **الشفاعة لا تنفعه يوم القيامة ؛ لأن الشفاعة إنما تنجح إذا كان المحل قابلاً ، فأما من وافى الله كافراً يوم القيامة فإن له النار لا محالة خالداً فيها** " ، وعصاة أهل القبلة – كما ذكرنا قبل قليل – ليسوا من هذا الجنس فتنفعهم الشفاعة .

الدليل السابع : للمخالفين قول الله جل وعلا : ﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧)** ﴾ وجه الاستدلال من هذه الآية ، قالوا : لو كانت الشفاعة حاصلة للفاسق لم يكن لتقييدها بالتوبة والاتباع للسبيل معنى ولا فائدة ، إذ هي حاصلة من دون هذا التقييد ، فدل هذا على أن من مات منهم ، أي : من مات من أهل الإيمان ، من غير توبة فإن الشفاعة لا تنفعه ولا حق له فيها . ((يعيد الشيخ الكلام))

والجواب عن هذا الاستدلال من وجهين :–

- **الوجه الأول** : أن هذا لفظ عام لا يدخل فيه أهل الإيمان وإنما هو خاص بأهل الشرك ، يدل على ذلك ما ورد في سنة النبي ﷺ من حصول الشفاعة لأهل الكبائر ، كما في قوله ﷺ : (**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة**) .
- **الوجه الثاني** : أن غاية الأمر أن الملائكة خَصّوا بدعائهم قسماً خاصاً من الناس لمزيد العناية ، وهم من اتصف بالتوبة والاستغفار ، هذا الخصوص لهذه الطائفة لا ينافي العموم السابق ، وهو استغفارهم للذين آمنوا ، ومرتكب الكبيرة لا يسمى كافراً ، فدعاء الملائكة يشمله بما معه من الإيمان ، فإذن أهل الكبائر داخلون في أهل الإيمان ، وأهل الإيمان هم الذين تجوز لهم الشفاعة ، وأما غيرهم فإنها لا تجوز له وليست من حقه .

الدليل الثامن: للمخالفين قول الله جل وعلا: ﴿ **وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾ **وجه الاستدلال من هذه الآية** ، قالوا : إن الله تعالى أخبر أن العصاة يعذبون في النار ويخلّدون فيها ، والعاصي اسم يتناول الفاسق والكافر جميعاً لا يخص بشيء ، فيجب حمله عليهما ، يعني : على الفاسق والكافر ، لماذا يجب حمله ؟ لأنه تعالى لو أراد أحدهما دون الآخر لبينه ، فلما لم يبينه دل على أن إرادته للطائفتين جميعاً ، يقولون : الاسم في قوله جل وعلا : ﴿ **وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ يدخل فيه الكافر والفاسق ؛ لأن كل منهما يسمى عاصيًا ، فلماذا قصدتم به الكافر دون العاصي أو

دون الفاسق ؟ لماذا خصصتم اسم العاصي الكافر دون الفاسق ؟ ، قالوا : لو كان الله جل وعلا يريد طائفة دون طائفة لبينه ؛ لكن لما لم يبينه دل على أنه أرادهم جميعاً .

والجواب على هذا أن يقال : أن العاصي المذكور هنا هو من حاد الله ورسوله ، وشك في حكم الله في الميراث ، ومن شك في حكم الله في الميراث فهو كافر ، يقول ابن جرير رحمه الله : (فإن قال قائل : أوَ يُخلّد من عصى الله ورسوله في قسمة المواريث ؟ قيل : نعم . إذا جمع إلى معصيته ما في ذلك شك بأن الله فرض عليه ما فرض على عباده في هاتين الآيتين) ، يعني : أنه يكون مخلداً في النار إذا عصى في الميراث جامعًا مع معصيته الشك ، أما إذا عصى بلا شك وبلا ارتياب وإنما عصى مخالفة فقط فسقاً وفجوراً ، كأن يقال للمرأة النصف فيأكل نصف نصفها ولا يعطيها إلا الربع ، أو يأكله جميعاً ، فأنه يكون بهذا فاسقاً و لا يكون كافراً ، أما إذا جمع مع المعصية شكًا في أن الله جلا وعلا فرض هذا على عباده ، فإنه يكون بذلك خالد مخلد في النار ، فهذا ابن جرير رحمه الله يقول : (فإن قال قائل : أوَ يُخلّد في النار من عصى الله ورسوله في قسمة المواريث ؟ قيل : نعم ، إذا جمع إلى معصيتهما في ذلك من شكا في أن الله فرض عليه ما فرض على عباده في هاتين الآيتين ، أو علم ذلك فحاد الله ورسوله في أمرهما على ما ذكر ابن عباس من قول من قال حين نزل على رسول الله ﷺ قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ** ﴾ إلى تمام الآيتين : أيورّث من لا يركب الفرس ، ولا يقاتل العدو ، ولا يحوز الغنيمة نصف المال أو جميع المال ؟ استنكاراً منهم قسمة الله ما قسم لصغار ولد الميت ونسائه وإناث ولده ، ممن خالف قسمة الله ما قسم من ميراث أهل الميراث بينهم ، على ما قسمه في كتابه ، وخالف حكمه في ذلك وحكم رسوله ﷺ ، استنكارًا منه حكمهما ، كما استنكره الذين ذكر أمرهم ابن عباس ممن كان بين أظهر أصحاب رسول الله ﷺ من المنافقين الذين فيهم نزلت وفي أشكالهم هذه الآية ، فهو من أهل الخلود في النار ؛ لأنه باستنكاره حكم الله في تلك يصير بالله كافراً ومن ملة الإسلام خارجًا) ، يعني : أن من عصى الله في الميراث وشك أو عصى الله في الميراث وحاد الله ورسوله ﷺ ، بحيث يعترض على حكم الله ، فيقول الله جل وعلا : إن للمرأة النصف ، فيقول : لا نعطي المرأة المال مثل الرجل مساواة له بالرجل ، فهذا يكون بذلك كافراً خارجًا عن الإسلام ؛ لأنه حاد الله في أمره لكن لو أنه منعها حقها دون اعتراض - كما تقدم - كأن يأكل حقها أو يأكل حق اليتامى ، فإنه يكون بذلك فاسقًا فاجرًا ، لكنه لا يكون كافراً ، إذا لم يجمع مع هذه المعصية الشك في حكم الله ، أو الاستنكار على الله جل وعلا ، ومعارضة حكم الله تبارك وتعالى وحكم رسوله ﷺ ، فدل هذا على قوله جل وعلا: ﴿ **وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ ، إنما أريد به الكفار الذين حادوا الله ورسوله ، وشكوا فيما أمر الله به أو أمر به رسوله ﷺ ، أو استنكروا حكم الله ، كما فعل هؤلاء المنافقون الذين استنكروا على الله وقالوا مقولتهم هذه التي اعترضوا بها على حكم الله وحكم رسوله ﷺ .

الدليل التاسع : للمخالفين قول الله جل وعلا ﴿ **إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ** ﴾ ، وجه الاستدلال من هذه الآية ، قالوا : إن المجرم اسم يتناول الكافر والفاسق جميعاً ، فيجب أن يكونا مرتدَيْن بهذه الآية ؛ لأن الله تعالى لو أراد أحدهما دون الآخر لبينه ، فلما لم يبينه دل على أنه أرادهما جميعاً .

والجواب على هذا أن يقال : إن المجرمين في هذه الآية هم الكفار ، وهذا كقول الله جل وعلا : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ ، فالذين أجرموا هنا هم الكفار بدليل قول الله جل وعلا : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُون** ﴾ ، وهؤلاء الذين

ضحك عليهم أهل الإيمان هم الذين أجرموا ، وكانوا يضحكون من أهل الإيمان في الدنيا ، فدل هذا على أن المراد بالمجرم هنا الكافر ، يدل على هذا الآيات بعدها وهو قوله تعالى: ﴿ **لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ** ﴾، يعني: يبين قول الله جل وعلا : ﴿ **إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ** .... ﴾ الآيات ، والآيات التي قبلها وهو قول الله تعالى: ﴿ **لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** ﴾ وهذه خصال الكفار، أما المؤمنون فإنهم وإن عصوا وارتكبوا الكبائر، إلا أنهم لا يكرهون ما نزل الله كما قال جل وعلا: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ** ﴾، قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ** ﴾ بينته الآيات الأخرى وبينه سياق الآيات التي بعده، فالآيات الأخرى هي الآيات التي في المطففين، وسياق الآيات التي بعدها هي في قوله تعالى: ﴿**لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ** وَلَكِن **كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ**﴾ إلى أن قال : ﴿ **لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** ﴾، وأهل الإيمان وإن تركوا العمل أحيانًا ببعض ما أمروا به أو فعلوا ما نهوا عنه ، إلا أنهم لا يكرهون حكم الله ؛ لأن كراهية حكم الله جل وعلا كفر مخرج من الملة وإن عمل بها كارهاً لا يتصور إلا من المنافقين ، وهم في الحقيقة أهل الإجرام ، ولذا قال جل وعلا : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ** ﴾ ، فهذه بعض أدلتهم التي استدلوا بها ، والتي لم نذكرها من الأدلة هي من جنس ما ذكر هنا ، وهو استدلالهم بعموم الآيات التي فيها نفي الشفاعة عن الكافرين وزعموا أنها عامة في أهل الإيمان ، وذكرنا أن أهل الإيمان مخصصون بالآيات الأخرى ومخصصون بالأحاديث عن رسول الله ﷺ

<u>النوع الثالث</u> من أنواع الشفاعة : شفاعة الرسول ﷺ لطائفة من المؤمنين بدخول الجنة بغير حساب .

وهذا النوع من أنواع الشفاعة خاص بالنبي ﷺ ، يدل على هذا النوع ما أخرجه مسلم في صحيحه عن حصين بن عبد الرحمن قال: (كنت عند سعيد بن جبير ، فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة ؟ قلت: أنا، ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة؛ ولكني لدغت)، هذا فقه السلف فإنهم ﷺلم يكونوا يراءون، خشية أن يفهم منه أنه قام للصلاة؛ ولكنه بين أنه لم يقم لصلاة، ولكن قام بسبب عقرب لدغته (قال : فماذا صنعت ؟ قلت : استرقيت . قال : فما حملك على ذلك ؟ قالت : حديث حدثناه الشعبي . قال : فما حدثكم ؟ قلت : حدثنا عن بريده بن حصيب الأسلمي أنه قال : لا رُقية إلا من عين أو حُمَة ، قال : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ، لكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ قال: **(عُرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي ، فقيل لي : هذا موسى وقومه ، ولكن انظر إلى الأفق ، فنظرت وإذ بسواد عظيم ، فقيل لي : انظر للأفق الآخر ، فإذا سواد عظيم ، فقيل لي : هذه أمتك ، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب)** ، ثم نهض ودخل منزله فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا الرسول ﷺ ، وقال بعضهم : لعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله ، وذكروا أشياء فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : **(ما الذي تخوضون فيه ؟)** فأخبروه ، فقال : **(هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون)**، فقام عكاشة بن محصن فقال : ادعوا الله أن يجعلني منهم ، فقال : **(أنت منهم)** ، ثم قام رجل آخر فقال : ادعوا الله أن يجعلني منهم ، فقال : **(سبقك بها عكّاشة)** .

فالنبي ﷺ أثبت هنا أن سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، ثم شفع لعكاشة بن محصن أن يكون منهم ،

يدل على هذا أيضاً حديث أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : (**سألت الله الشفاعة لأمتي ، فقال : لك سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، قلت : رب زدني فحثا لي بيديه مرتين عن يمينه وشماله**) أخرجه هنّاد في الزهد ورمز له السيوطي بالحسن ، فهذا دليل على أن النبي ﷺ يشفع في هؤلاء السبعين ألفاً بغير حساب وبالزيادة التي حثاها الله جل وعلا بيديه مرتين عن يمينه وشماله ، فهذه أدلة على هذا النوع من الشفاعة .

الحلقة (٩)

سبق في الحلقة الماضية أن تكلمنا عن مسألة شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر ، وذكرنا قول أهل السنة والجماعة ، وأن سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم وكذلك أهل الحديث والفقه وغيرهم كلهم أجمعوا على إثبات هذا النوع من الشفاعة للنبي ﷺ ، وخالف في ذلك الخوارج والمعتزلة ومن وافقهم على مذهبهم في مسألة الوعد والوعيد ، وذكرنا أدلة هؤلاء ثم أجبنا عن هذه الأدلة ، وقبل ذلك ذكرنا أدلة أهل السنة والجماعة على ما ذهبوا إليه ، وقلنا : بأن قول أهل السنة والجماعة هو القول الذي لا يمكن أن يكون الحق في غيره . وفي هذه الحلقة نُكمل أيضًا ما يتعلق بالشفاعات ، فمن الشفاعات وهي ،

النوع الرابع : شفاعة النبي ﷺ لمن سكن المدينة وصبر على لأوائها ومات بها .

فسُكنى مدينة النبي ﷺ فيها خير كثير ، والصبر على لأوائها وما يصيب العبد فيها فيه خير كثير أيضًا ، وإن كان الصبر في المدينة أو في غيرها أجره عظيم إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ، لكن المدينة اختصت بمزيد فضل في هذا الجانب ، وكذلك فضل الموت بها ، فالنبي ﷺ يشفع لمن سكن المدينة وصبر على لأوائها ومات بها ، ودليل هذا النوع ما رواه مسلم في صحيحه من حديث عامر بن سعيد عن أبيه ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (**إني أُحرم ما بين لابتي المدينة أن يُقطع عضاؤها أو أن يُقتل صيدها** " ، وقال : " **المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه ، ولا يثبت أحد على لأوائها وجهدها إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة**) ، فهذا الحديث دل على أن النبي ﷺ يشفع لمن سكنها وصبر على لأوائها وجهدِها ، فدل هذا على فضل المدينة ، وفضل سكنى المدينة ، وعلى فضل الصبر على لأوائها ، وعلى شفاعة النبي ﷺ لمن فعل ذلك ، وهذه الشفاعة فيما يظهر خاصة بالنبي ﷺ وليست لغيره ، يعني : ليست لغيره من الأنبياء والملائكة والصالحين وإنما هذا خاص بالنبي ﷺ .

النوع الخامس : شفاعة النبي ﷺ للمؤمنين بدخول الجنة .

وهذا النوع من الشفاعة خاص أيضاً بالنبي ﷺ ، ودليل هذا النوع الحديث الطويل في الشفاعة وفيه : (**فيقال : يا محمد أدْخِل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبوب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك** " ، **فهذا الحديث وهو حديث الشفاعة الطويل فيه : أن النبي ﷺ يشفع لأمته ، يعني : يُشفّع النبي ﷺ ،** " **فيقال له : يا محمد أدْخِل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك** " ، **أيضاً يدل على هذا النوع من الشفاعة حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ :** " **يجمع الله تبارك وتعالى الناس فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة فيأتون آدم ، فيقولون : يا أبانا استفتح لنا الجنة . فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم ؟ لست بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله ، قال : فيقول إبراهيم : لست بصاحب ذلك إنما كنت خليل من وراءِ وراء ، -وهذا تواضع منه عليه السلام - فيقول : اعمدوا إلى موسى عليه السلام الذي كلمه الله تكليماً ، فيأتون موسى عليه السلام فيقول : لستُ بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه ، فيقول عيسى عليه السلام: لست بصاحب ذلك ،**

فيأتون محمداً ﷺ فيقوم فيأذن له) ، فهذا الحديث خاص بشفاعة النبي ﷺ للمؤمنين أن يدخلوا الجنة ، والدليل على أنه خاص بالنبي ﷺ هو أن آدم عليه السلام وإبراهيم عليه السلام وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام يتأخرون عن هذا ولا يشفعون ، ثم يشفع النبي ﷺ ، فدل هذا على أن النبي ﷺ قد خُص بهذه الشفاعة كما خُص بالشفاعة العظمى في ذلك الموقع العظيم يوم القيامة .

النوع السادس : شفاعة الرسول ﷺ في رفع درجات أهل الجنة .

وهذه الشفاعة ثابتة عند سلف هذه الأمة ، وعند غيرهم من المعتزلة والخوارج ، فالمعتزلة والخوارج لا يمنعون من هذا النوع من أنواع الشفاعة وإنما يقولون بهذا القول ، وهذا كما تقدم هو الذي جعل أهل السنة والجماعة يُبينون ضعف احتجاج المعتزلة والخوارج بما احتجوا به ، من عموم الآيات التي فيها نفي الشفاعة والشفيع ، وسبق أن قُلنا : أن أهل السنة احتجوا عليهم بكون الخوارج والمعتزلة يقولون بهذا القول من الشفاعة ، فلما أنهم قالوا بهذا القول من الشفاعة دل على أنهم لا يقولون بعموم تلك الأدلة ، سواء من الكتاب أو من سنة الرسول ﷺ . يدل على هذا النوع ما أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : (لما فرغ النبي ﷺ من حُنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس ، فلقي دريد بن الصمة فقتل دريد وهزم الله أصحابه ، فقال أبو موسى : وبعثني مع أبي عامر ، قال : رُمِي أبو عامر في ركبته ، رماه رجل من بني جُشَم فأثبته في ركبته فانتهيت إليه ، أي : انتهى إلى أبي عامر رضي الله عنه ، فقلت : يا عم من رماك ؟ فأشار أبو عامر إلى أبي موسى ، فقال : إن ذاك قاتلي فأراه ذلك الذي رماني ، يعني : أن أبا عامر رضي الله عنه أشار إلى أبي موسى رضي الله عنه مبيناً له من الذي رماه ، قال أبو موسى : فقصدت له ، أي : قصدت إلى ذلك الرجل الذي رمى أبا عامر رضي الله عنه ، فاعتمدته فلحقته فلما رآني ولى عني ذاهبًا – هرب لما رأى أبا موسى رضي الله عنه يتبعه – قال : فتبعته وجعلت أقول له ألا تستحيي ، يعني : ألا تستحيي أن تهرب ؟ ، ألست عربيًا ؟ ألا تثبت ؟ فكف فالتقيت أنا وهو فاختلفنا أنا وهو ضربتين ، فضربته بالسيف فقتلته ، ثم رجعت لأبي عامر ، فقلت : إن الله قد قتل صاحبك ، قال : فانزع هذا السهم ، فنزعته فنزل منه الماء ، فقال : يا ابن أخي انطلق إلى رسول الله ﷺ فأقرئه مني السلام وقل له : يقول لك أبو عامر استغفر لي . قال : واستعملني أبو عامر على الناس ، يعني : بعد أن استشهد أبو عامر رضي الله عنه ، ومكث يسيراً ثم إنه مات ، فلما رجعت إلى النبي ﷺ دخلت عليه وهو في بيت على سرير مُرَمَّل – ويلفظ مُرْمَل – وعليه فراش وقد أثر رمال السرير في ظهر رسول الله ﷺ وجنبه ، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وقلت له : إن أبا عامر يقول : قل له استغفر لي فدعا رسول الله ﷺ بماء فتوضأ منه ثم رفع يديه ، ثم قال : (**اللَّهُمَّ اغفر لعبيدٍ أبي عامر**) ، حتى رأيت بياض إبطيه ﷺ ، ثم قال : (**اللَّهُمَّ اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك أو من الناس**)، الشاهد هنا عندنا قوله ﷺ : (**اللَّهُمَّ اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك أو الناس**) ، والنبي ﷺ شفع لأبي عامر بأن يجعل الله جل وعلا منزلته فوق كثير من الخلق أو من الناس ، فدل هذا على شفاعة النبي ﷺ في رفع درجات أهل الجنة ، " فقلت : أي أبو موسى رضي الله عنه ، و لي يا رسول الله استغفر " ، يعني : استغفر لي لما رآه الدعاء بهذا لأبي عامر رضي الله عنه ، فقال النبي ﷺ : (**اللَّهُمَّ فاغفر لعبد الله بن قيس ذنبه** – وعبد الله بن قيس هو أبو موسى الأشعري رضي الله عنه – **وأدخله يوم القيامة مُدخلاً كريمًا**) ، قال أبو بردة : إحداهما لأبي عامر والأخرى لأبي موسى ، يعني : إحدى الدعوتين لأبي عامر رضي الله عنه والأخرى لأبي موسى رضي الله عنه) .

فبهذا الحديث شفاعة النبي ﷺ لأبي عامر بأن يرفع الله منزلته فوق كثير من خلقه أو فوق كثير من الناس ، أيضاً في هذا الحديث دليل على نوع من أنواع الشفاعة التي تقدمت معنا وهو طلب الشفاعة من النبي ﷺ حال حياته ، فهذا أبو عامر رضي الله عنه يطلب من أبي موسى أن يطلب من رسول الله ﷺ أن يستغفر له ، كذلك أبو موسى رضي الله عنه لما رأى استغفار النبي ﷺ لأبي عامر

طلب من النبي ﷺ الدعاء له ، فدعا النبي ﷺ لأبي عامر ولأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما .

ومما يدل على هذا النوع أيضاً قوله ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها : **(إن الروح إذا قبض تبعه البصر)** ، فضج الناس من أهله من أهل أبي سلمة رضي الله عنه لما توفي ، فقال : **(لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمّنون على ما تقولون ، ثم قال : اللَّهُمَّ اغفر لأبي سلمة ، وارفع درجته في المهديين ، واخلفه في عقبه في الغابرين ، واغفر لنا وله يا رب العالمين ، وافسح له في قبره ونور له فيه)** ، فالشاهد عندنا من هذا الحديث قوله ﷺ : **(وارفع درجته في المهديين)** ، فهذا اللفظ وهو **(وارفع درجته في المهديين)** استدل به العلماء على شفاعة النبي ﷺ في رفع درجات أهل الجنة ، وذلك أن المهديين في الجنة ، وأن النبي ﷺ دعا أن يرفع الله درجة أبي سلمة رضي الله عنه في المهديين ، فدل هذا على هذا النوع من الشفاعة وهي الشفاعة في رفع درجات أهل الجنة ، ليست خاصة بالنبي ﷺ وإنما يشاركه فيها غيره ، ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ** ﴾ .

النوع السابع : شفاعة النبي ﷺ لعمه أبي طالب ليُخففَ عنه العذاب .

أبو طالب عم النبي ﷺ كان ينصره ، وكان يعينه ، وكان يذود عنه ، وكان يحميه من كفار قريش ، ولم تستطع قريش الوصول إلى النبي ﷺ هيبة من أبي طالب واحتراماً له ؛ لأن أبا طالب كان شيخ قريش ، وكان معظَّماً فيها ، فلم تكن قريش لتؤذي النبي ﷺ لأجل أبي طالب ، لكن أبا طالب مع شدة محبته للنبي ﷺ لم يكتب الله جل وعلا له الهداية ، ولكن كتب له الله تعالى خاتمة السوء ، فالنبي ﷺ اجتهد على أن يسلم عمه لكن الله جل وعلا لم يرد ذلك ولم يشأه ، وكان النبي ﷺ جالساً عند رأسه حين قبض الله روحه ، فكان يقول: **(يا عم قل : لا إلٰه إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله يوم القيامة)** ، كان عبد الله بن أبي أمية قبل أن يسلم وأبو جهل كانا جالسين عند رأس أبي طالب ، فكان كلما قال له رسول الله ﷺ : **(يا عم قل لا إلٰه إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله يوم القيامة)** قالا له : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فكان يقول : أنا على ملة عبد المطلب ، فالنبي ﷺ أخذ على نفسه أن يستغفر له ؛ لأجل ما كان يحوط به وينصره ، ثم نهاه الله جل وعلا عن الاستغفار له ، ثم إن النبي ﷺ أُخْبِر أنه من أهل الجحيم : ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** ﴾ ، فالنبي ﷺ نُهي عن الاستغفار لأبي طالب ؛ لأن الله جل وعلا حكم وأخبر أنه من أصحاب الجحيم ، فليس الاستغفار نافع له ، وأنزل الله في حقه : ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** ﴾ ، فالنبي ﷺ اجتهد لكن هداية القلوب إنما هي من الله جل وعلا ، لمّا توفي أبو طالب وكان النبي ﷺ قد نُهي عن الاستغفار له شفّع الله نبيه ﷺ كرامة له في أبي طالب في تخفيف العذاب فقط ، أما الخروج منه فإن عذاب جهنم لأبي طالب سيكون خالداً مخلداً ، ولكن ليس كعذاب غيره من المشركين ، وإن عذابه أقل عذابًا من أولئك ؛ لما كان يحوط النبي ﷺ به من النصرة والتأييد .

هذه الشفاعة اختُص بها النبي ﷺ دون غيره ، فليس لأحد أن يشفع لأحد من المشركين لا شفاعة إخراج من النار ولا شفاعة تخفيف من العذاب ، وإنما هذا خاص بالنبي ﷺ وفي حالة واحدة ، وهي حالة عم النبي ﷺ أبي طالب .

دليل هذا النوع : ما أخرجه الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ وذُكر عنده عمه ، فقال : " لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة ، فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه " ، فهذا هو عذاب أبي طالب يوم القيامة ، وهذا العذاب هو أخف أنواع عذاب المشركين ، وأبو طالب حينما يعذب بهذا العذاب يرى أنه أعظم الناس عذابًا بينما هو أخف المشركين عذابًا .

سيأتي معنا إن شاء الله في الحلقة القادمة مسألة مهمة وهي : **هل شفاعة النبي ﷺ في عمه أبي طالب تعارض قول الله تبارك وتعالى في شأن الكفار : ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشّافِعِينَ ﴾ ؟ أو لا تُعارضها ؟**

الحلقة (١٠)

وفي الحلقة السابقة تناولنا شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب ، وذكرنا أن شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب إنما هي شفاعة خاصة به وخاصة بالنبي ﷺ ؛ لأنه لا يجوز لأحد أن يشفع للمشركين ، وذكرنا بأن شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب إنما هي شفاعة تخفيف من العذاب وليست هي شفاعة إخراج من النار فإن هذه لا تكون ، فالله تعالى قال : ﴿ **إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً** ﴾ النساء ٤٨ ، ويقول : ﴿ **إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ** ﴾ المائدة ٧٢ .

وهنا مسألة تتعلق بشفاعة النبي ﷺ لأبي طالب وهي: **أنه جاء في كتاب الله جل وعلا قوله في حق المشركين** : ﴿ **فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ** ﴾ المدثر ٤٨ ، والنبي ﷺ شفع لأبي طالب وقبلت شفاعته، **فهل هذه الآية تعارض شفاعة النبي ﷺ ؟**

فالجواب أن نقول : إن هذه الآية وشفاعة النبي ﷺ لا تعارض بينهما ، وذلك أن هذه الشفاعة خاصة بالنبي ﷺ ، والآية عامة في حق الكفار ، فهذه الآية محمولة على أنها عامة والحديث على أنه خاص بأبي طالب ، يقول البيهقي رحمه الله تعالى : (صحّت الرواية في شأن أبي طالب ، فلا معنى للإنكار من حيث صحة الرواية ، ووجهه عندي أن الشفاعة في الكفار إنما امتنعت لوجود الخبر الصادق، بأنه لا يشفع فيهم أحد وهو عام في حق كل كافر ، فيجوز أن يُخص منه من ثبت الخبر بتخصيصه، وحمله بعض أهل النظر على أن جزاء الكافر من العذاب يقع على كفره وعلى معاصيه ، فيجوز أن الله يضع عن بعض الكفار بعض جزاء معاصيه تطييبًا لقلب الشافع لا ثوابًا للكافر؛ لأن حسناته صارت بموته على الكفر هباء) .

وهناك وجه آخر ، وهو : أن معنى المنفعة في الآية ليست هي المنفعة في الحديث ، فالمراد بها في الآية الإخراج من النار ، والمراد بها في الحديث تخفيف العذاب ، وهذا القول جزم به القرطبي رحمه الله تعالى ، يعني : أن الله تعالى لمّا قال : ﴿**فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ** ﴾ المدثر٤٨ ، النفع هنا يراد به نفع الإخراج من العذاب ، ونفع النبي ﷺ بشفاعته لأبي طالب إنما هي نفعه في التخفيف عنه من العذاب ، وفرق بين الأمرين فتبقى الآية عامة في الكفار جميعًا حتى في أبي طالب ، فأبو طالب لا تنفعه شفاعة الشافعين في مسألة الإخراج من النار .

التوسل بالنبي ﷺ :-

ننتقل إلى موضوع آخر له علاقة بالشفاعة وهو مسألة التوسل بالنبي ﷺ وغيره ، التوسل بالنبي ﷺ وغيره كثر الكلام فيه سواء في كلام الله أو في سنة رسوله ﷺ أوفي كلام أهل العلم ، وذلك لأهمية هذه المسألة ، فكثير من الناس حينما لم يفهم التوسل على وجهه أجاز كل توسل فوقع في الشرك بالله جل وعلا ، وناقض ما جاءت به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، زعمًا أن ذلك من التوسل الذي جاؤوا به ، ولهذا فإن أهل العلم ذكروا أنواعًا للتوسل يتبين بها الجائز من المحرم مما هو شرك ، حتى لا يقع الإنسان في مثل هذه الأشياء وهو لا يشعر ، فذكروا أنواعًا من التوسل نذكرها هنا باختصار ، فنقول :

التوسل نوعان :- ١ / **توسل جائز .** ٢ / **توسل ممنوع .**

فالتوسل الجائز له أقسام ، منها :-

أ) التوسل إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته :-

كأن يقول: أسألك بأسمائك الحسنى أن تغفر لي، فدعاؤك لله جل وعلا بأسمائه الحسنى أن يغفر لك هذا من التوسل الجائز، ومنه قول النبي ﷺ :" اللَّهُمَّ إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك ". فالتوسل بالأسماء الحسنى والصفات العلى من الأمور الجائزة، فتقول: (يا رحيم ارحمني)، (يا غفّار اغفر لي) ..... وهكذا، لكن ينبغي أن تجعل ما تتوسل به من الأسماء الحسنى موافقًا لما تدعو به، فتأتي بما يناسب الدعاء الذي تريده، فإذا أردت الدعاء بالرحمة فتقول: (يا رحمن ارحمني)، وإذا أردت الدعاء بالمغفرة فتقول: (يا غفور أو يا غفار اغفر لي)، ولكن لا تقول: (يا شديد العقاب ارحمني)، أو تقول مثلا: (اللَّهُمَّ أهلك المشركين وقاتل الكفار برحمتك يا أرحم الراحمين)، كما يفعل ذلك بعض الناس . فإن التوسل إلى الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ينبغي أن يكون فيه تجانس بين الدعاء وبين المتوسل به من الأسماء الحسنى والصفات العلى .

هذا التوسل من أجلّ أنواع التوسل ومن أعظمها ، والله جل وعلا أمر بذلك في كتابه وأمر به النبي ﷺ يقول الله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾الأعراف١٨٠ ،**فالشاهد عندنا:** ﴿ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا** ﴾ ، فأنت تدعو الله جل وعلا بأسمائه الحسنى كما تدعوه جل وعلا بصفاته العلى، لكن دعاء الصفة لا يجوز، فلا تقول مثلا :(يا وجه الله ارحمني)، أو (يا يد الله أعطني)، بل هو كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من الشرك، إنما تقول: (أسألك بوجهك الكريم ، أسألك بنورك)؛ لكن لا تقل: (يا رحمة الله ارحميني ، يا مغفرة الله اغفري لي) ، وإنما تقول : (يا رحمن ارحمني ، يا غفار اغفر لي ، يا تواب تب عليّ) .

<u>ودليل هذا النوع من القرآن هو</u> : ما ذكرنا قبل قليل وهو قول الله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا** ﴾، يعني : اسألوه بها وتوسلوا إليه بها .

<u>ويدل على هذا من السنة :-</u>

- ما جاء في الحديث : (**اللَّهُمَّ إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، المنان يا بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم ، إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار**) ، فالنبي ﷺ سمع رجلاً يدعو بهذا الدعاء المتقدم ، فقال النبي ﷺ لأصحابه : (**أتدرون بم دعا ؟**) ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : (**والذي نفسي بيده لقد دعا الله باسمه العظيم**) ، وفي رواية : (**الأعظم**) - أي : باسمه الأعظم - **الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سئل به أعطى**) ، فالنبي ﷺ أقر هذا الرجل على دعائه ، بل إن النبي ﷺ بيّن فضل هذا الدعاء ، وهو أن هذا الرجل دعا باسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب إذا سئل به أعطى فالنبي ﷺ أقر هذا وأثنى عليه .

- قوله ﷺ : " من كثر همه فليقل : (**اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجِلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا**) ، فالنبي ﷺ بيّن فضل هذا الدعاء ، والشاهد عندنا هو : (**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هو لك**) ، وهو أنه سأل الله جل وعلا بكل اسم هو له ، يعني : أنه توسل بكل اسم هو لله جل وعلا ، ثم ذكر أنواع هذه الأسماء ، ومنها : أسماءٌ استأثر الله جل وعلا بها في علم الغيب عنده ، فهذا دليل على فضل التوسل لله جل وعلا بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وقلنا : إنه توسل إلى الله تعالى بصفاته ؛ لأن كل اسم يتضمن صفة - كما تقدم معكم في الفصول الماضية - فإن كل اسم من أسماء الله تعالى يتضمن صفة ، فإذا قلنا الرحمن فإنه يتضمن صفة الرحمة ، وإذا قلنا التواب فإنه يتضمن صفة التوبة ، وإذا قلنا الغفار فإنه

يتضمن صفة المغفرة ، وهكذا فإن كل اسم من أسماء الله تعالى دال على صفة من صفاته عز وجل ، ولهذا كانت صفات الله كثيرة لا تحصى ، كما أن أسماء الله لا تحصى ، وكل اسم دال على صفة ، فدل هذا على أن صفاته لا تحصى .

القسم الثاني من أقسام التوسل الجائز : ب) التوسل لله جل وعلا بالأعمال الصالحة :-

فالإنسان يتوسل إلى الله جل وعلا بعمل صالح يقربه بين يدي دعائه ، فإذا أراد مثلاً أن يدعو الله جل وعلا ببره لوالديه ، دعا الله جل وعلا بصدقة تصدق بها ، دعا بأداء نفل من الصلوات أداه ، دعا الله جل وعلا بأداء فرض أو فريضة من فرائضه التي فرضها علينا نحن المسلمين ، فيدعوه بها ويسأل الله جل وعلا بها ، ويقول مثلاً : (اللَّهُمَّ إني أسألك بقراءتي لكتابك أن تغفر لي ، اللَّهُمَّ إني أسألك بمحبتي لنبيك ﷺ أن تغفر لي) ، وهكذا فتدعوا الله جل وعلا بعملك الصالح .

ودليل هذا النوع : حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة ، فقد أخرج الشيخان واللفظ لمسلم من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (**بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَشَّوْنَ أَخَذَهُمْ الْمَطَرُ فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنْ الْجَبَلِ فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ فَادْعُوا اللَّهَ تَعَالَى بِهَا لَعَلَّ اللَّهَ يَفْرُجُهَا عَنْكُمْ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ : اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَامْرَأَتِي وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا ، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ** - فالشاهد عندنا : تقديمه ما جرى منه من البر لأبويه ثم قوله : (**فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ**)، فهو لما ذكر العمل الصالح دعا الله جل وعلا أن يفرج عنهم فرجة - (**فَفَرَجَ اللَّهُ مِنْهَا فُرْجَةً فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ ، وَقَالَ الْآخَرُ : اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمٍّ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ ، فَتَعِبْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ فَجِئْتُهَا بِهَا ، فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا ، قَالَتْ : يَا عَبْدَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَفْتَحْ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ ، فَقُمْتُ عَنْهَا فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً فَفَرَجَ لَهُمْ ، وَقَالَ الْآخَرُ : اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ ، قَالَ : أَعْطِنِي حَقِّي فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرَقَهُ فَرَغِبَ عَنْهُ فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرِعَاءَهَا ، فَجَاءَنِي فَقَالَ : اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَظْلِمْنِي حَقِّي ، قُلْتُ : اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرِعَائِهَا فَخُذْهَا ، فَقَالَ : اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَسْتَهْزِئْ بِي ، فَقُلْتُ : إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ خُذْ ذَلِكَ الْبَقَرَ وَرِعَاءَهَا ، فَأَخَذَهُ فَذَهَبَ بِهِ ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مَا بَقِيَ فَفَرَجَ اللَّهُ مَا بَقِيَ**) .

فهنا ثلاثة أنواع من التوسلات بثلاثة أنواع من الأعمال :-

- **فالأول** : دعا الله جل وعلا ببره بوالديه وفعله ذلك في تلك الليلة ، ففرج الله جل وعلا عنهم فرأوا من السماء ما رأوا.
- **الثاني** : دعا الله بعفته عن ابنة عمه ، فإنه لما تمكن من الوقاع بها وخوفته بالله وقالت : (اتق الله ولا تفضن الخاتم) ، وفي لفظ : (ولا تفتح الخاتم إلا بحقه) ، تركها لله جل وعلا ولم يتركها خوفًا ولا حياءً من أحد ، وإنما فعل ذلك ابتغاء وجه الله ، فلما دعا بهذا الدعاء والعمل الصالح وهو خوفه من الله وتركه لهذه المرأة ابتغاء تقوى الله جل وعلا ، دعا الله بأن يفرج عنهم فرجة فقبل الله جل وعلا دعاءه .
- **الثالث** : لما وقع الخلاف بينه وبين الأجير الذي استأجره حول أجرته وترك ذلك الأجير أجرته ، فإن هذا الرجل نمَّى هذه

الأجرة لهذا الرجل ، بما فعل بها من زرع وتربية ماشية ، ثم إن الأجير عاد إلى هذا الرجل ليطلب منه أجرته ، فأمره بأن يستاق ما في هذا الوادي من البقر ، فلما رأى منه ما رأى ظنه يستهزئ فقال : (اتق الله ولا تستهزئ بي) ، يعني : أكلت أجرتي ثم جئت إليك أريدها ثم تستهزئ بي ، فقال : (إني لا أستهزئ بك) ، فاستاقها كلها ولم يترك منها شيئًا . ففعله هذا وردّه لهذا الأجير أجرته وتنميته لماله هذا عمل صالح دعا الله جل وعلا به ففرج الله عنهم ما بقي مما وقع عليهم من الصخرة .

لكن ينبغي أن نتنبه إلى أمر وهو ألاَّ ندل على الله جل وعلا بأعمالنا الصالحة ؛ لأن أعمالنا الصالحة إن كانت صالحة فالمنّة لله تعالى وحده ، يقول الله تعالى : ﴿ **يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ الحجرات ١٧ ، فالمنّة والفضل لله تعالى وحده فهو الذي امتن عليك ووفقك للعمل ، وهو الذي امتن عليك بإعطائك أُجرة عملك وجزاء عملك في الآخرة ، وفرْق بين أن يتوسل لله جل وعلا بعمله وبين أن يدل الإنسان على الله بعمله ، فالأول يتوسل إلى الله جل وعلا بعمله وهو قد جمع بين الرجاء بأن يقبل الله جل وعلا عمله ويجعله سببا لقبول دعائه ، وبين الخوف أن لا يقبل الله جل وعلا عمله ، ثم إنه لا يقبل دعاءه بتوسله بهذا ، وأما الآخر وهو الذي يُدِلّ على الله جل وعلا فكأنه ضمن لنفسه بأن عمله صالح وأنه يمن على الله جل وعلا بهذا العمل الصالح ، والإدلال على الله تعالى بهذه الأعمال والمن عليه لا يجوز ؛ لأنه كما تقدم المنة لله تعالى وحده ولهذا يغلط كثير من الناس - كما ذكر ذلك ابن القيم رحمه الله و ابن الجوزي - يغلط كثير من الناس حينما يصيبه مرض أو يصيبه مصيبة في بدنه أو ماله : إني كنت أفعل كذا وكذا ، فلماذا فعلت بي يا رب كذا وكذا ؟ ولماذا لم تفعل بفلان العاصي كذا وكذا ؟ وأنا الذي استخدمت هذا العمر في طاعتك ونحو ذلك ، فيجعل ذلك منة على الله جل وعلا ، فهذا من الخطورة بمكان ، فلا يجوز للعبد المسلم أن يفعل مثل هذا الفعل ، فالله جل وعلا هو الذي امتن علينا وهو الذي وفقنا للعمل .

الحلقة (١١)

ذكرنا في الحلقة الماضية شيئاً مما يتعلق بأنواع التوسل الجائز وقلنا بأن من أنواع التوسل الجائز : التوسل بالأسماء الحسنى والصفات العلى ، والتوسل بالأعمال الصالحة ، وانتهى بنا الكلام إلى القول بأن هناك فرقًا بين التوسل إلى الله جل وعلا بالأعمال الصالحة وبين الإدلال والمنة على الله جل وعلا بما يقدمه العبد من عمل ، وقلنا بأن أهل الإيمان لا يدِلُّون على الله بأعمالهم وإنما يعملون وهم يخافون ويرجون ، ولذا أثنى الله جل وعلا عليهم بقوله : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ *** ﴾ سورة المؤمنون (٥٧:٦١)

القسم الثالث من أقسام التوسل الجائز : ج) التوسل إلى الله تعالى بطلب الدعاء من الأحياء الصالحين :-

كأن يأتي إلى رجل يرجو صلاحه ويسأله أن يدعو الله تعالى له فهذا جائز ، وهذا دليله حديث أبي موسى الأشعري ﷺ لما طلب أبو عامر من النبي ﷺ أن يدعو له فقال النبي ﷺ : (**اللَّهُمَّ اغفر لعبيد أبي عامر**) ثم طلب أبو موسى الأشعري ﷺ منه ﷺ أن يدعو له فدعا له ، وهذا القسم من أقسام التوسل جاء في كتاب الله وجاء في سنة رسوله ﷺ ؛ لكن من الناس من غلط فظنّ أنه حينما جاء الصحابة إلى النبي ﷺ يسألونه الدعاء وهو حي بين ظهرانيهم ، ظنوا أن هذا يجيز لهم التوسل به ﷺ بعد موته - كما سيأتي - وهذا باطل فالنبي ﷺ وغيره من الصالحين إنما يتوسل بدعائهم وهم أحياء ، أي : أن نطلب منهم الدعاء ، لا أن ندعوهم من دون الله عز وجل ، ولو كانوا أحياءً فهذا لا يجوز وهو نوع من أنواع الشرك ، ودليل هذا النوع

قول الله تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا** ﴾ النساء /٦٤ فالنبي ﷺ يستغفر للناس حال حياته ﷺ ، ودليله من سنة النبي ﷺ ما تقدم من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ ، وكذلك ما أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك ﷺ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ كَانَ إِذَا قَحَطُوا اسْتَسْقَى بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ: (اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُسْقَوْنَ)، فهذا توسل بالعباس بن عبد المطلب بعد موت النبي ﷺ؛ **لكن هل توسل عمر** ﷺ **ومن معه من الصحابة بالعباس توسلاً بذاته أو أنهم كانوا يدعونه؟** لا، إنما كان توسلهم به توسلاً بدعائه، ولهذا كان عمر ﷺ يقول: قم يا عباس بن عبد المطلب فادع الله لنا، فعمر بن الخطاب ﷺ فسر قوله: (إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّك فَاسْقِنَا)، يعني : أنهم كانوا يطلبون منه الدعاء، ولهذا قال: قم يا عباس بن عبد المطلب وارفع يديك وادع الله لنا، ومن الأدلة كذلك: الرجل الذي جاء والرسول ﷺ يخطب، فأخبره بأنه هلكت الماشية وأنه جرى عليهم من قحط السماء ما جرى فطلب من النبي ﷺ الدعاء ، فدعا النبي ﷺ ، ثم إن ذلك الرجل جاء بعد ذلك والنبي ﷺ يخطب ، وطلب منه أن يدعو الله أن يرفع هذا المطر ، فدعا الله لهم النبي ﷺ ، هذا توسل بدعاء النبي ﷺ ، ولهذا كما ذكرت لك أنه يغلط كثير من الناس حينما يظنون أن هذا توسل بذات العباس ، ثم يقيسون عليه ما عداه من الأولياء ومن الصالحين أو ممن يزعم أنه من الأولياء أو الصالحين وليس كذلك .

النوع الثاني من أنواع التوسل : التوسل الممنوع ، فمن أقسام التوسل الممنوع :-

أ) التوسل إلى الله تعالى بسؤال الأموات ودعائهم .

ب) التوسل إلى الله تعالى بطلب الدعاء من الأموات .

وفرق ما بين هذين الأمرين ، فالأول هو : أن يدعو الرجل صاحب القبر ، فيقول: يا رسول الله! اغفر لي، يا رسول الله! فرج همي، يا رسول الله! اشفِ مريضي، يا رسول الله! أعطني، يا رسول الله! ارزقني، وهكذا فهذا دعاء للميت .

أما الثاني وهو: أن يطلب من الميت الدعاء أو يطلب منه الشفاعة، كأن يقول: يا رسول الله! ادع الله أن يغفر لي، يا رسول الله: اشفع لي يقول هذا بعد موته ﷺ يا إبراهيم : ادع الله أن يغفر لي ، يا موسى! اشفع لي عند ربك ، فهذان النوعان شرك أكبر مخرج من الملة، من مات عليه فهو خالد مخلد في النار، يقول الله تعالى : ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ يونس /١٨ ، فهم زعموا أن هؤلاء شفعاء عند الله جل وعلا ، فبين الله جل وعلا بطلان شفاعتهم ويقول جل وعلا: ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ** ﴾ الزمر /٣ ، فسمّاهم الله جل وعلا كذابين وكفارًا، فهؤلاء زعموا أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، وهذا هو القسم الثاني من أقسام الشفاعة الباطلة، والقسم الأول بطلانه وتحريمه وكونه شركًا من باب أولى، فإذا كان هؤلاء لا يدعون الأصنام أن تغفر لهم أو ترحمهم إنما يدعون الأصنام لتشفع لهم، فإن دخول من دعا الصنم ليغفر له أو أن يزيل كربته أو أن يفرج همه أو نحو ذلك من باب أولى أن يكون مشركًا بالله جل وعلا، فهذان النوعان شرك أكبر مخرج من الملة .

ج) التوسل إلى الله تعالى بذوات المخلوقين .

د) التوسل إلى الله تعالى بجاه المخلوقين وحقهم .

وفرق بين الأمرين، فالأخير أن يقول: اللَّهُمَّ إني أسألك بحق فلان الصالح أن تغفر لي، أو أسألك بجاه موسى عليه السلام أن تغفر لي ،

أو أسألك بجاه عيسى عليه السلام أن تغفر لي ، أو أسألك بجاه محمد ﷺ أن تغفر لي ، أو أسألك بحق فلان من الصالحين أن تغفر لي ، فهذا سؤال بالحق أو سؤال بالجاه ، أما الأول السؤال بالذات ، كأن يقول : أسألك بنبيك ﷺ ، أو أسألك بنوح عليه السلام ، أو أسألك بعائشة رضي الله عنها ، أو أسألك بعلي رضي الله عنه ، أو أسألك بأبي بكر رضي الله عنه ، أو أسألك بعمر أو بعثمان إلى غير ذلك ، فهذا توسل بالذوات .

وهذان النوعان وهما التوسل بالجاه والتوسل بالذات بدعة ومحرم ولا يجوز ؛ لكنها ليست شركًا أكبر لكنها وسيلة للشرك الأكبر ، فهي شرك أصغر غير مخرج من الملة ؛ لكن كما لا يخفى أن الشرك أعظم الذنوب ، وأن العلماء اختلفوا في الشرك **الأصغر هل يغفره الله جل وعلا ؟ أو أنه لا يغفره إلا بالتوبة ؟** لأن الله تعالى يقول : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا** ﴾ النساء /٤٨ ، وهذا الذي أشرك شركًا أصغر غير داخل تحت المشيئة كما هو القول الصحيح من أقوال أهل العلم أدبًا مع الله جل وعلا ؛ لأنه قال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ** ﴾ ، وهذا أشرك بالله جل وعلا ، فهذان النوعان وهما : التوسل بالذات ، والتوسل بجاه المخلوقين أو بحقهم ، شرك أصغر وهي بدعة محرمة ؛ لكنها ليست كفرًا أكبر مخرجا من الملة .

مراتب دعاء غير الله :-

دعاء غير الله وسؤاله حرام لا يجوز ؛ لأن الدعاء عبادة ، والعبادة لا يجوز صرف شيء منها لغير الله لكن خص الدليل منها أشياء ، يقول الله تعالى : ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾ غافر /٦٠ ، ويقول : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** ﴾ البقرة /١٨٦ ، فهذا دليل على أن الدعاء عبادة ، والعبادة لا يجوز صرفها لغير الله جل وعلا ، ويقول النبي ﷺ : (**الدعاء هو العبادة**) ، وكثير من الناس صرفوا حق الله تعالى لغيره ، فدعوا الأموات والغائبين ودعوا الحاضرين بمالا يقدر عليه إلا الله تعالى.

مراتب دعاء غير الله التي هي شرك أكبر مخرج من الملة :-

المرتبة الأولى : سؤال الميت حاجة من الحاجات أو الاستعانة به ، كسؤاله : تفريج الكربات ، وإغاثة اللهفان ، ونحو ذلك فهذا شرك أكبر مخرج من الملة سواءً استغاث به عند قبره أو ناداه من مكان بعيد ، كمن يقول وهو في أقصى المشرق : يا رسول الله : أغثني ، أو يا رسول الله : فرج كربتي ، أو يا رسول الله : اغفر لي ، أو أن يكون عند قبر النبي ﷺ فيقول هذا القول : يا رسول الله : أغثني ، أو يا رسول الله : فرج كربتي ، فإن هذا كله شرك أكبر مخرج من الملة ، فالدعاء لا يصرف لغير الله جل وعلا بهذه الصيغة ، و لا يجوز صرف شيء من أنواع الدعاء لغير الله بهذه الصيغة أو بغيرها ، إنما يتوجه بالدعاء إلى الله جل وعلا .

المرتبة الثانية : سؤال الحي الغائبَ من مسافات بعيدة بحيث لا يسمعه المدعو ، فهذا شرك أكبر سواءً كان المدعو قادراً عليه لو كان حاضراً أو كان غير قادر عليه ، فإذا دعاه وكان غير قادر عليه فهو شرك أكبر ، وإذا دعاه وهو قادر عليه ؛ لكنه من مسافات بعيدة لا يسمعه المدعو فإنه حينئذ يكون شركا أكبر ؛ لكن ينبغي أن نراعي أحوال الاتصال الآن فقد أكون في أقصى المشرق ويكون هناك رجل صالح في أقصى المغرب وبيني وبينه مثلاً وسيلة اتصال ، كهاتف أو شبكة انترنت ونحوه ، وأكلمه وأقول يا فلان : ادع الله لي ، يا فلان : أعطني من مالك ، يا فلان أعطني كذا ، فهذا جائز لأنه في منزلة من هو حاضر عنك ومن هو قادر على ذلك؛ لكن أن تدعو هذا الرجل من مكان بعيد بحيث لا يسمعك المدعو، فإن هذا شرك أكبر

مخرج من الملة، ولو كان المدعو قادراً على هذا الفعل . **تنبه**: ولو كان المدعو قادراً على هذا الفعل .

المرتبة الثالثة : **سؤال الحي الحاضرَ ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى** ، يعني : يأتي حي حاضر إلى حي حاضر معه في المجلس ويقول : يا فلان اغفر ذنبي ، فيسأله مغفرة الذنوب ، لا يسأله أن يدعو الله له مغفرة الذنب ، لا بل يطلب منه المغفرة فيقول : يا فلان اغفر لي ذنبي ، أو يا فلان : أدخلني الجنة ، فمغفرة الذنوب لا يقدر عليه إلا الله ؛ لكن إذا كان هناك ذنب وقعت فيه تجاه صاحبك كأن تكون ضربته ، أو شتمته ، فتقول له : يا فلان اغفر لي ذنبي الذي أصابك مني ، فأنا أصبتك بضرب أو أخذ مال ونحو ذلك ، فهذا جائز لأن هذا مما يقدر عليه ؛ لكن الذنوب التي هي عند الله جل وعلا فهذه لا يقدر عليها أحد إلا الله ، وكذا دخول الجنة يسأله أن يدخله الجنة ، ويسأله أن يجيره من النار ، فهذا شرك أكبر مخرج من الملة ولو كان المدعو حيًا حاضرًا .

المرتبة الرابعة : **سؤال الميت أن يدعو الله تعالى له** ، يأتي إلى ميت ، كأن يأتي إلى إنسان في قبره فيسأله أن يغفر له ، أو أن يدعو الله له ، والفرق بين هذه المرتبة والمرتبة الأولى : هذه المرتبة هي سؤال الميت أن يدعو الله له ، والمرتبة الأولى هي سؤال الميت حاجة من الحاجات أو الاستغاثة به ، الفرق بينهما : أن الأول يدعو هذا الشخص مباشرة أن يغفر له ، و أما الآخر فهو يجعله بزعمه وسيلة ، فيقول لصاحب هذا القبر : يا فلان ، يا ولي الله ، يا رسول الله : ادعُ الله أن يغفر لي ، نقول : هذا شرك أكبر . لاحظ أنه لو كان حيًا حاضرًا معنا وقلنا له : يا فلان ادعُ الله أن يغفر لي ، لجعلناه من الأقسام الجائزة ؛ لكن هذا يقول له بعد موته : يا فلان ادعُ الله أن يغفر لنا ، اسأل ربك أن يغفر لنا ، فهذا شرك أكبر مخرج من الملة .

المرتبة الخامسة : **أن يسأل الحي الغائبَ أن يدعو الله تعالى له** ، فيكون هناك شخصاً غائباً مسافات بعيدة فيسأله أن يدعو له، لكن كما قلت لك : أنه لو سأله من مسافات بعيدة عن طريق الهاتف أو عن طريق الانترنت أو غيرهما من وسائل الاتصال التي ربما تتطور ، فإن هذا ليس من الشرك في شيء بل هذا من الأمور الجائزة . فهذه مراتب دعاء غير الله ، وبيّنّا أنها شرك أكبر مخرج من الملة .

حكم الحلف بغير الله تعالى :-

الحلف لا يجوز إلا بالله تعالى أو بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، كأن تقول: والله لأفعلن كذا، والذي نفسي بيده لأفعلن كذا، وعزة الله وجلاله وقدرته لأفعلن كذا، فهذا دعاء لله جل وعلا وهذا دعاء بصفاته، أو تقول: والحي القيوم لأفعلن كذا، وربي لأفعلن كذا، ورب البيت لأفعلن كذا، والمنّان لأفعلن كذا، والرحمن لأفعلن كذا ، فهذا جائز ، فالله جل وعلا يُحلف به وبأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وأما الحلف بغير الله تعالى فهذا لا يجوز ، **ودل على ذلك أدلة كثيرة منها :-**

١) ما أخرجه الشيخان عن عمر ﷺ قال : (قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ : (**إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ**) ، قَالَ عُمَرُ ﷺ : فَوَاللهِ مَا حَلَفْتُ بِهَا مُنْذُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ ذَاكِرًا وَلَا آثِرًا) .

٢) ما أخرجه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رَسُولِ اللهِ ﷺ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ وهو يسير فِي رَكْبٍ وَعُمَرُ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (**أَلَا إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ**) .

٣) ما أخرجه الشيخان أيضاً عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ : (**أَلَا مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلَا يَحْلِفْ إِلَّا بِاللهِ**)، فَكَانَتْ قُرَيْشٌ تَحْلِفُ بِآبَائِهَا ، فَقَالَ : (**لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ**) .

٤) وأخرج مسلم في صحيحه عن سمرة بن جندب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ**) .

فهذه نصوص دالة على تحريم الحلف بغير الله ، وعلى أنه لا يجوز شيء من ذلك ، وإنما الحلف يكون بالله جل وعلا وبأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وانظر إلى عمر ﷺ كيف وقف عندما بيّن له النبي ﷺ حرمة ذلك فقال : " إني لم أحلف بعد ذلك بغير الله ذاكرًا ولا آثرًا " ، فهذا هو دليل تحريم الحلف بغير الله جل وعلا وبيان عدم جوازه .

الحلقة (١٢)

سبق في الحلقة الماضية أن تكلمنا عن مسألة الحلف بغير الله جل وعلا وتكلمنا وذكرنا أن الحلف بغير الله لا يجوز و أن الحلف بغير الله نوع من أنواع الشرك ، فإذا كان الحلف بغير الله نوعا من أنواع الشرك ونحن نعلم أن الشرك نوعان : شرك أكبر ، وشرك أصغر ، **فمن أي النوعين الحلف بغير الله ؟** ، نقول : إن الحلف بغير الله يكون تارة شركًا أكبر مخرجًا من الملة ، وتارة يكون شركًا أصغر غير مخرج من الملة ، وقد ذكر العلماء عليهم رحمة الله أنه يكون شركاً أكبر مخرجاً من الملة ، إذا عظّم الحالف من يحلف به كتعظيمه لله تعالى أو أشد ، فإذا اعتقد مساواته لله تعالى فقد خرج من الملة ، وأما إذا لم يعتقد ذلك فلا ، فهو يختلف بحسب مقصد قائله وما يقوم بقلبه ؛ لهذا ترى بعض الناس ربما حلف بالله تعالى كاذبًا ؛ ولكنه لا يمكن أن يحلف بغير الله كاذبًا ؛ لأنه يخشى العطب ممن يحلف به كاذبًا فلا تجده يجرأ على ذلك ، فهؤلاء في الحقيقة عظموا محلوفيهم أشد من تعظيمهم لله جل وعلا ، فابن مسعود ﷺ يقول : (لئن أحلف بالله كاذبًا أحبُّ إليّ من أن أحلف بغيره صادقًا) ؛ لأن الحلف بغير الله شرك ولو كان الحالف صادقًا ، وأما الحلف بالله جل وعلا كاذبًا فإنه معصية وليس شركًا ، والشرك أعظم من المعصية ، فهذا هو حكم الحلف بغير الله عز وجل .

مسألة الميثاق :-

ورد الميثاق في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ ، يقول الله عز وجل : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِين * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾ الأعراف (١٧٢ : ١٧٣) ، والميثاق حق أجمعت عليه الطوائف كلها وإن اختلفوا في تفصيله ؛ لأنه لا يمكن إنكاره ، وقد جاء في كتاب الله تعالى ، والدليل من السنة على الميثاق ما أخرجه مالك في الموطأ وأحمد في المسند وأبو دَاوُد في السنن وغيرهم عنْ مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ** ﴾ ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ : (سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُسْأَلُ عَنْهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (**إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً ، فَقَالَ : خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً ، فَقَالَ : خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ** " ، فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللهِ فَفِيمَ الْعَمَلُ ؟! قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " **إِنَّ اللهَ عز وخل إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُدْخِلُهُ به الْجَنَّةَ وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُدْخِلُهُ به النَّارَ**) .

وأخرج الترمذي وابن حبان والحاكم وغيرهم عن أبي هريرة ﷺ قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (**لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ : أَيْ رَبِّ مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، فَقَالَ : أَيْ رَبِّ مَنْ هَذَا ؟ فَقَالَ : هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ دَاوُدُ ، فَقَالَ : رَبِّ كَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ ؟ قَالَ : سِتِّينَ سَنَةً ، قَالَ : أَيْ**

رَبِّ زِدْهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَلَمَّا مضى عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ ، فَقَالَ : أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً ، قَالَ : أَوَلَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ ! قَالَ : فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ وَنُسِّيَ آدَمُ فَنُسِّيَتْ ذُرِّيَّتُهُ وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ).

وأخرج الإمام أحمد في مسنده وابن حبان والحاكم عن عبد الرحمن بن قتادة السلمي ﷺ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : (**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ أَخَذَ الْخَلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ ، وَقَالَ : هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي ، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أُبَالِي**) ، قَالَ : فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللهِ فَعَلَى مَاذَا نَعْمَلُ ؟ ، قَالَ : (**عَلَى مَوَاقِعِ الْقَدَرِ**) .

وأخرج الإمام أحمد في مسنده والبزار والطبراني عن أبي الدرداء ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (**خَلَقَ اللهُ آدَمَ حِينَ خَلَقَهُ فَضَرَبَ كَتِفَهُ الْيُمْنَى فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً بَيْضَاءَ كَأَنَّهُمْ الذَّرُّ ، وَضَرَبَ كَتِفَهُ الْيُسْرَى فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً سَوْدَاءَ كَأَنَّهُمْ الْحُمَمُ ، فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَمِينِهِ : إِلَى الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي ، وَقَالَ لِلَّذِي فِي كَفِّهِ الْيُسْرَى : إِلَى النَّارِ وَلَا أُبَالِي**) .

وأخرج الإمام أحمد في مسنده والنسائي في سننه وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (**أَخَذَ اللهُ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ بِنَعْمَانَ يَعْنِي عَرَفَةَ فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا فَنَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالذَّرِّ ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قِبَلًا ، قَالَ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾** .

وسبق أن ذكرت لكم أن أهل العلم أجمعوا على أن الله تعالى أخذ الميثاق من بني آدم وأشهدهم على أنفسهم وَفق ما جاء في الآية بل اتفقت على ذلك الطوائف كلها سنِّيُّهم و بدعِّيُّهم .

هذه الآية وهي آية الميثاق وهذه الأحاديث ذكرت أمورًا منها :-

أخذ الميثاق على بني آدم ، ومنها : إشهادهم ، ومنها : إخراجهم من ظهر آدم ، ونتكلم هنا عن أخذ الميثاق والإشهاد والاستخراج فنقول : **اختلف العلماء في أخذ الميثاق والإشهاد هل هو إخراج حقيقي وهل الإشهاد مقالي أو حالي ؟ ، يعني : هل الله عز وجل أخرج بني آدم حقيقة وأنه أشهدهم على أنفسهم و شهدوا شهادة مقالية تكلموا فيها ، أو أن الشهادة شهادة حالية ، وهي ما فطروا عليه وما نصب لهم من الدلائل ؟**

اختلف العلماء في هذا على قولين :

القول الأول : قول جماعة من السلف والخلف **ذهبوا إلى أن الإخراج حقيقي وأن الإشهاد مقالي** ، فقالوا : إن إخراجهم من ظهر آدم ومن ظهور بنيه إخراج حقيقي ، وقولهم : شهدنا ، هذه شهادة مقالية ، فهم أُخرجوا في ذلك الوقت من ظهر آدم ونثرهم الله جل وعلا بين يديه و كلّمهم وكلّموه ، حينما أشهدهم شهدوا بكلام حقيقي وليس بكلام مجازي .

القول الثاني : قول طائفة من السلف والخلف ، قالوا : إنه لا إخراج ولا قول وإنما ذلك كله على سبيل المجاز ، والمراد من ذلك فَطْرَهُم على التوحيد ، ففسروا أخذ الميثاق والإشهاد عليهم بأنه هو الفطرة على التوحيد ، كما قال تعالى : ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ الروم /٣٠ **واحتجوا على هذا بأمور :-**

الأمر الأول : أن الإشهاد لم يأت إلا في حديثين موقوفين .

الأمر الثاني : أن ما ذكروه من الآية، ليس في إخراج الذرية من آدم ، مستدلين على هذا بالآتي ، **أي : على أن إخراج الذرية ليس من آدم** : ١) أنه قال : من بني آدم ولم يقل من آدم ، فهو قال سبحانه : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ** ﴾ ، أي: من ظهور بني آدم، ولم يقل من ظهر آدم، ولم يقل: وإذ أخذ ربك من آدم من ظهره ذريته، وإنما قال: ﴿**مِنْ ظُهُورِهِمْ**﴾ .

٢) أنه قال : ﴿ مِنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ ولم يقل من ظهره، وهذا بدل بعض من كل أو بدل اشتما ، قالوا: وهو بدل اشتمال أحسن.
٣) أنه قال : ﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ولم يقل : ذريته .
٤) أنه قال : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ ، ولابد أن يكون الشاهد ذاكراً لما شهد به ، وهو إنما يذكُر شهادته بعد خروجه إلى هذه الدار ولا يذكر شهادة ما قبل ذلك .
٥) قولهم بأن الله ذكّرهم بذلك لئلا يقولوا : ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ ، ومعلوم أنهم غافلون عن الإخراج لهم من صلب آدم كلهم وإشهادهم جميعًا ذلك الوقت ، فهذا لا يذكره أحد منهم .
٦) أنه سبحانه أخبر أن حكمة هذا الإشهاد هو : إقامة الحجة عليهم لئلا يقولوا : ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ ، والحجة إنما قامت عليهم بالرسل والفطرة التي فطروا عليها ، كما قال تعالى : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ النساء /١٦٥ .
٧) قوله تعالى : ﴿ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ الأعراف /١٧٣ ، فذكر جل وعلا حكمتين في هذا الإشهاد لئلا يدّعوا الغفلة أو يدّعوا التقليد ، فالغافل لا شعور له ، والمقلّد متبع في تقليده لغيره ، ولا تترتب هاتان الحكمتان إلا على ما قامت به الحجة من الرسل والفطرة .
٨) قوله تعالى : ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ ، أي : توعّدهم بجحودهم وشركهم لما قالوا ذلك ، وهو سبحانه إنما يهلكهم بمخالفة رسلهم وتكذيبهم ، وقد أخبر سبحانه أنه لم يكن ليهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ، وإنما يهلكهم بالإعذار والإنذار بإرسال الرسل .
٩) أنه تعالى أشهد كل واحد على نفسه أنه ربه وخالقه ، واحتج عليه بهذا في غير موضع من كتابه ، كقوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لقمان /٢٥ ، فهذه هي الحجة التي أشهدهم على أنفسهم بمضمونها وذكّرتهم بها رسلهم عليهم الصلاة والسلام ، بقوله : ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ إبراهيم /١٠ ، فهذه الأمور التسعة احتج أصحاب هذا القول بها على أن الله جل وعلا حينما ذكر في الآية ما ذكر ، إنما ذكر إخراج الذرية من بني آدم ولم يذكر أن الإخراج من آدم .

والراجح القول الأول ؛ <u>لأمور منها</u> :-

١) أن الآية صريحة في الأخذ من الظهور حقيقة ، وصريحة في أن الإشهاد كان قولاً ، وكان كلامًا حقيقيًّا لا مجازيًّا ، والآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾ ، فالقول هنا قول حقيقي وليس مجازيا .
٢) أضف إلى هذا أن الآية فسرتها الأحاديث عن رسول الله ﷺ ، وفيها كلام آدم مع ربه جل وعلا ، حين رأى وبيص دَاوُدَ عليه السلام وأعطاه من عمره أربعين سنة ، فكيف يقال بأن هذا الكلام كلام مجازي وليس بكلام حقيقي ؟ ، فالأحاديث الواردة في هذا صحيحة وصريحة ، كما هي صريحة في الآية ، فالآية فسرتها الأحاديث وبينت المراد منها فليس لأحد حينئذ أن يقول : إن الآية يجب صرفها عن ظاهرها ، بل الآية على ظاهرها وهو أن الكلام حقيقي وأن الإشهاد حقيقي وأن الإخراج إخراج حقيقي .
٣) أن الآية ليس فيها ما ينفي هذا أو يبعده بل فيها ما يؤيده وهو التصريح بالقول .
وفي الحلقة القادمة سنناقش إن شاء الله تعالى أدلة أصحاب القول الثاني الذين ذهبوا إلى أن القول هو قول مجازي و أن

الإشهاد إشهاد مجازي وهو الفطرة و أن الاستخراج ليس استخراجا حقيقيا .

الحلقة (١٣)

سبق وأن تكلمنا في محاضرة الحلقة الماضية عن الميثاق ، وقلنا : بأن الميثاق قد دل عليه كتاب الله تعالى ، وسنة رسول الله ﷺ ، وإجماع المسلمين ، وذكرنا أيضًا بأن العلماء اختلفوا في الأخذ والميثاق ، **هل الأخذ أخذ حقيقي ؟ وهل الإشهاد في هذا الميثاق إشهاد حقيقي ؟ أو أنه هو الفطرة ؟** ، وذكرنا بأن للعلماء قولين في هذه المسالة ، **وينبغي أن نذكر وأن نعلم بأن هذا الخلاف الذي وقع بين العلماء في هذه المسألة ليس خلافًا يجوز التبديع به أو التفسيق ، وإنما الخلاف خلاف في مذهب أهل السنة والجماعة ، وكل من الطائفتين له حظ من الدليل** ، وإن كان أحد القولين أرجح من الآخر ، والراجح كما تقدم هو قول من قال : بأن الأخذ حقيقي ، وأن الإشهاد حقيقي ، وأن الاستخراج حقيقي ، وأن بني آدم أُخرجوا في ذلك الوقت ونثرهم جل وعلا بين يديه وكلمهم وكلموه وأشهدهم على أنفسهم . وذكرنا أدلة من قال بأن الإشهاد ليس حقيقيًا ، وإنما هو عبارة عن الفطرة التي فُطر عليها الناس المذكورة في قوله تعالى : ﴿ **فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ الروم٣٠ ، ومضى بنا الحديث إلى الكلام عن أدلة هؤلاء ، ثم ذكرنا إجابات عامة عن أدلتهم ، ونذكر هنا – بإذن الله تعالى – **الإجابات التفصيلية عن ما استدلوا به من الأدلة ، فنقول** :

أولاً :– أما قولهم : بأن الإشهاد إنما جاء في حديثين موقوفين فقط ، فهذا ليس بصحيح ، بل جاء الإشهاد والإخراج في حديث أنس بن مالك ، وهشام بن حكيم ، وأُبي بن كعب ﷺ ، فهذه الأحاديث مرفوعة إلى النبي ﷺ ، وقد جاء فيها الإشهاد ، ثم لو سلمنا جدلاً أنه لم يأت إلا في حديثين موقوفين ، فإننا نقول : إن الموقوف في هذا الباب له حكم الرفع ؛ لأن مثل هذا ليس للرأي مجال فيه ، فلا مجال للرأي في هذا الميثاق ، وإنما هو من الأمور الخبرية التي لا تُعْلم إلا بالخبر ، ولولا أن الله جل وعلا أخبرنا بهذا الميثاق ، وأخبرنا به نبيه ﷺ لما علمناه ، فحينئذ نقول : فإنه وإن كان الإشهاد لم يرد إلا في حديثين موقوفين – مع أنه ثبت في ثلاثة أحاديث مرفوعة – ، فإننا نقول : إن هذين الحديثين يُقبل الاحتجاج بهما هُنا ؛ لأن هذين الحديثين ليس للرأي فيهما مجال ، وإنما لهما حكم الرفع .

ثانياً :– أما الجواب عن احتجاجهم بمجيء الآية بلفظ الجمع، في قوله تعالى: ﴿ **مِن بَنِي آدَمَ** ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿ **مِن ظُهُورِهِم** ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿ **ذُرِّيَّاتِهِمْ** ﴾ على قراءة من قرأ بالجمع، فيقال: إن الله تبارك وتعالى أخرج ذُرية آدم في ذلك الموقف من ظهور البعض على نحو ما يتوالد الأبناء من الآباء في الترتيب ، فالترتيب أن يأتي الوالد ، ثم يأتي الولد – هذا هو الترتيب – ، فالآية جاءت على حسب الترتيب هذا ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُم** ﴾ ، فالترتيب جاء وِفق ترتيبهم في الخروج في هذه الحياة الدنيا ، فاستغنى عن ذكر ظهر آدم لمَا عُلم من أنهم كلهم بنوه ، وأنهم أُخرجوا من ظهره ، فلما عُلم أنهم كلهم بنوه، وأنهم أُخرجوا من ظهره استغنى عن ذكره بذكر ظهور بنيه،ولذا قال:

﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُم** ﴾ ، ولم يقل : (وإذ أخذ ربك من آدم من ظهره ذريته)، فهو جاء به على هذا الترتيب الذي يكون في الدنيا ، بل قال بعض أهل العلم : إن في التعبير بالجمع لطيفة ، وهي الإشارة إلى إخراجهم بالتدريج ، فأخرج أبناء آدم من صلبه ، ثم أُخرج من أصلابهم أبناؤهم ، ثم أعادهم بعد الفراغ منهم على التدريج ، يعني : أن الله جل وعلا أخرج بني آدم (بني صلبه) من ظهره ، ثم أخرج بني بنيه من صلب بنيه ، وهكذا تسلسلت إلى آخر مخلوق من بني آدم .

ثالثاً :– أما الجواب عن قولهم بأن الإنسان لا يذكر ما شهد به ، إلا إذا كان ذلك بعد خروجه إلى هذه الدار ، ومقدرته على

ذلك ، و لا يذكر ما قبله ، فنقول : هذا رأي في مقابل النص ، والرأي إذا جاء في مقابل النص فإنه يُطَّرح ، فالنص أخبر بهذا فيجب الإيمان به سواء قبلته العقول أم لم تقبله ، لا شأن لنا بالعقول أمام النص ، فالنص إذا جاءنا قبلناه ، والعقل إن وافقه فذاك وإن لم يوافقه فهذا دليل على ضعف العقل أو على فساده ، وهذا الاعتراض العقلي لا يُسقط الحجة .

يقول البغوي – رحمه الله تعالى - : قد أوضح الله الدلائل على وحدانيته وصدق رسله فيما أخبروا به ، فمن أنكره كان معانداً ناقضاً للعهد ، ولزمته الحجة ، وبنسيانهم وعدم حفظهم لا يسقط الاحتجاج بعد إخبار المخبر الصادق صاحب المعجزة.

ويقول الطرطوشي – رحمه الله تعالى - : إن هذا العهد يلزم البشر وإن كانوا لا يذكرونه في هذه الحياة ، كما يلزم الطلاق من شُهد عليه به وهو قد نسيه ، يعني : أن هذا الميثاق الذي أُخذ على بني آدم وصاروا بعد خروجهم لا يذكرونه ، فإنهم إذا ذُكِّروا به صار حُجة عليهم ، **من الذي يذكرهم بهذا الميثاق وهذا الإشهاد ؟** هم الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ، يقول : كمن طلق ونسي أنه طلق ، فشُهد عليه أنه طلق ، فإنه حينئذ يلزمه الطلاق وإن كان ناسياً ؛ لأنه إذا قامت البينة وشهدت بأن زيداً من الناس قد طلق امرأته وادّعى أنه لا يذْكر هذا الطلاق ، فإننا نقول : إن الطلاق يلزمك بشهادة هذه البينة ، كذلك الميثاق الأول نحن في هذه الحياة لا نذكره ؛ لكن الرسل عليهم الصلاة والسلام ذكّرونا به ، فحينئذ يلزمنا وتكون الحُجّة قائمة .

رابعاً :- أما ما ذكروه من أن الحجة ما قامت عليهم بالميثاق ، وإنما قامت من قِبل الرسل والفطرة ، وأن حكمة الإشهاد هو إقامة الحجة عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة : ﴿ **إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ** ﴾ ، وأنهم كلهم غافلون عن ذلك الإخراج ولا يذكره أحدهم ، فيقال في الجواب عن هذه الحجة : نعم ، لا يكفي الميثاق الأول في إقامة الحجة عليهم ، وأصحاب القول الأول لم يقولوا : بأن الحجة قائمة بالميثاق الأول بحيث إنه لو لم ترسل الرسل لكانت الحجة قائمة بالميثاق الأول ، وأصحاب القول الأول لا يقولون هذا ، فنقول : نعم ، لا يكفي الميثاق الأول في إقامة الحجة عليهم ، فلابد من إرسال الرسل التي تذكرهم بهذه الحجة ، فمن حكمة الله تعالى أن قضى عليهم بالنسيان لذلك الإشهاد ، ولو لم يكن لهذا الإشهاد فائدة لكان عبثاً ، والله – عز وجل – منزه عن ذلك ، يعني : إذا قلنا بأن الميثاق السابق لا فائدة منه، و أن الإشهاد السابق لا فائدة منه ، فإننا نقول : إن هذا عبث ينزه الله عز وجل عنه، فكيف يُشهد الله عز وجل بني آدم ثم لا يكون في هذا الإشهاد فائدة ؟ بل لابد له من فائدة، فإذا جاءت الرسل عليهم الصلاة والسلام وذكّروهم بهذا الميثاق الأول قامت الحجة على هؤلاء، ولذلك قال الله –جل وعلا - : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)** ﴾ .

ثم إن الفطرة التي فسر بها هؤلاء الميثاق ليست هي حجة لوحدها ، وإنما الحجة في إرسال الرسل ، يعني : فكما أنكم تقولون : إن هذا الميثاق والإشهاد – إذا قيل بأنه حقيقي – فإنه يلزمكم يا أصحاب القول الأول أن تقولوا : إن الحجة قائمة به دون الرسل ، فنقول لكم نحن كذلك : إن هذه الفطرة ليست هي حجة بنفسها ، وإنما الحجة بإرسال الرسل ، فهو على التفسيرين جميعاً – على القول بأنه الفطرة ، وعلى القول بأنه ميثاق حقيقي وإشهاد حقيقي – فنحن جميعاً نقول : بأن حجة الله – جل وعلا – إنما قامت بإرسال الرسل ، لا بالفطرة ، ولا بالميثاق الأول .

خامساً :- أمّا ما ذكروه من الله تعالى إنما أهلك الأمم بمخالفتهم الرسل لا بمخالفتهم الميثاق ، فالجواب عنه أن يقال : نعم

، ما ذُكر هو عين الحق ، وأيضاً فإن الله تبارك وتعالى لم يُعذب الأمم لمخالفتهم الفطرة التي فسرتم بها الميثاق ، وإنما عاقَبهم وعذبهم وأهلكهم لمخالفتهم الرسل ، فحينئذ تبين أنما يقال فيما يلزم من القول بأن الإشهاد قولي يلزم ، كذلك من يفسره بالفطرة ، الله – جل وعلا – يقول : ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾ ، ولم يجعل الفطرة هي الحجة التي يؤاخذ الله جل وعلا بها ، وإنما جعل الحجة قائمةً بإرسال الرسل ، وكذلك من يقولون بأن الإشهاد حقيقي ، وبأن الاستخراج حقيقي لا يقولون بأن الحجة قائمة بذلك ، وإنما يقولون : إنما الحجة قامت بالرسل ؛ لكن هذا نوع من الحجج ، فالحجة هم الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فلو لم يبعث الله تعالى رسولاً من الرسل لما قلنا : إن الله – عز وجل – يُعذب بالميثاق الأول ، وكذلك من يقول بالقول الثاني : لو لم يُرسل الله – عز وجل – رسلاً لم يقولوا : إن الله عز وجل يعذب بالفطرة ، فتبين بهذا أنما يلزم من قال بأن الإشهاد حقيقي ، وبأن الاستخراج حقيقي ، يلزم كذلك من يقول بأن أخذ الميثاق المراد به الفطرة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ **فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ الروم٣٠ ، فإن الفطرة التي فسر بها هؤلاء الميثاق جاءت في كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ مؤكدة للميثاق الأول ، إذ المولود يولد ويُفطر على ذلك الميثاق الذي أُخذ منه ، ولهذا قال النبي ﷺ : (**ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**) ، ولم يقل النبي ﷺ : (أو يُسلمانه) ؛ لأنه فُطر على ذلك الميثاق الذي أخذه الله جل وعلا عليه ، فالذين يُفطرون على التوحيد الذين يفطرون على الإسلام – وهم عامة الخلق – إنما فُطروا على ذلك الميثاق الذي أخذه الله جل وعلا من أعمال في ذلك الوقت ، وأشهدهم على أنفسهم فشهدوا وشهد غيرهم من الملائكة على ما استُشهدوا عليه : ﴿ **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ** ﴾ الأعراف (١٧٢) ، يعني : شهدنا لئلا تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين فتدَّعوا الغفلة ، أو تقولوا : ﴿ **إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ** ﴾ ، يعني : قلدناهم فيما رأيناهم عليه ، وفيما وجدناهم عليه ، فانقطعت حينئذ الحجة ، وانقطعت حينئذ السبل أمام المقلدة ؛ لأنهم علموا أن الله – جل وعلا – أشهدهم على أنفسهم بما أخبرت به رسله عليهم الصلاة والسلام ، فهذه إجابات عما ذهب إليه أصحاب القول الثاني من القولين في مسألة الميثاق .

الحلقة (١٤)

تناولنا في الحلقة الماضية ما يتعلق بالميثاق الذي أخذه الله جل وعلا من بني آدم ، حينما استخرجهم وأشهدهم على أنفسهم وشهد غيرهم عليهم ، وذكرنا أن في المسألة قولين ، وذكرنا الأحاديث الدالة على الميثاق ، وفيها : أن الله جل وعلا علم أهل الجنة وعلم أهل النار ، وقال : خلقت هؤلاء للجنة ولا أبالي ، وخلقت هؤلاء للنار ولا أبالي .

مسألة : علم الله تعالى بأهل الجنة وأهل النار وأعمالهم :-

الله جل وعلا هو خالق الخلق كلهم، ومن ضرورة ذلك أن يكون جل وعلا عالمًا بهم وبأعمالهم ومآلهم، ومن ضرورة ذلك أيضًا أن يكون الله جل وعلا قادرًا عليهم وعلى أعمالهم،يقول جل وعلا: ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾الملك ١٤ ويقول جل وعلا : ﴿ **إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ التوبة ١١٥ ، ويقول : ﴿ **وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً** ﴾ الفتح ٢٦ ، فالله تعالى موصوف بأنه بكل شيء عليم أزلاً وأبداً ، ولم يتقدم علمه بالأشياء جهالة ولا ينسى ، يقول جل وعلا : ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً** ﴾ ، والنسيان الذي أثبته الله لنفسه في قوله تعالى: ﴿ **وَنسُواْ اللهَ فَنَسِيَهُمْ** ﴾ التوبة٦٧، يراد به: الترك؛ **لأن النسيان نوعان:**

١ – نوع ينتج عن عدم التذكر فيما مضى ، وهذا هو المنفي في قوله : ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً** ﴾ .

٢ – نوع ينتج عن العلم والترك قصدًا ، وهو المذكور في قوله جل وعلا : ﴿ **وَنَسُواْ اللهَ فَنَسِيَهُمْ** ﴾ .

فالله خلق هذا الخلق وعلم أحوالهم ومآلهم ؛ ولذا قال : ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ ، يعني : كيف يُتصور أنه يخلق الخلق ولا يعلمهم ، فالذي يصنع الشيء لابد أن يكون عالمًا به قادرًا عليه ، وإن لم يكن كذلك فهو لم يصنع ، فالله جل وعلا خلق الخلق كلهم فدل هذا على علمه جل وعلا بهم وعلى وقدرته عليهم ، ومن ذلك علمه جل وعلا بأهل الجنة وأهل النار ، أخرج الشيخان عن علي بن أبي طالب ﷺ قال : (كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ، ومعه مخصرة ، فنكّس ، فجعل ينكث بمخصرته ، ثم قال : (**ما منكم من أحد ، ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار ، وإلا وقد كُتبت شقيّة أو سعيدة**)، قال : فقال رجل : يا رسول الله ، أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ فقال : (**من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة**)، فقال : (**اعملوا فكل ميسّر ؛ أما أهل السعادة فيُيسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة**) ، ثم قرأ : ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠)** ﴾ ، فقول النبي ﷺ : (**ما منكم من أحد ، ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار و إلا وقد كتبت شقية أو سعيدة**) ، هذا هو الشاهد ، وهو دليل على علم الله جل وعلا بهم ، فإن قلت : من أين أُخذ من أن الله جل وعلا علمهم ؟ قلتُ : أخذ من قوله ﷺ : (**إلاّ وقد كتب الله**)، والكتابة إنما تكون بعد العلم بالشيء ، فهذا دليل على أن الله جل وعلا علم أهل الجنة وعلم أهل النار ، صحابة النبي ﷺ لما قال هذا ﷺ ، سألوه : أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ ، يعني : هل إننا إذا مكثنا على كتابنا وتركنا العمل ، هل سيصير أحدنا إلى ما علم الله به ، أي هل يسقط العمل ؟ يعني : هل العمل مؤثر أو غير مؤثر في مسألة دخول الجنة أو النار مع علم الله جل وعلا بذلك ؟ ، فقال : (**اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة**)، وأنت لا تعلم من أيهما أنت ، فإذا كنت لا تعلم من أيهما أنت ، فواجب عليك حينئذٍ الاستجابة لرسل الله جل وعلا ، فتستجيب لهم ؛ لأنهم أمروا وهم الذين أخبروك بأن ربك جل وعلا قد علم أهل الجنة وعلم أهل النار .

مسألة : هل علم الله تعالى بأعمال العباد وبمن يدخل الجنة ومن يدخل النار ، يكون حجة للعباد في ترك العمل ؟ ، أي : هل هذا العلم حجة في ترك العباد للعمل الذي أمروا به ؟

الجواب : إن هذا ليس حجة ، **لماذا ؟** لأن الله تعالى طوى علم من يدخل الجنة وعلم من يدخل النار عن العباد ، فهم بهذا جاهلون فهم لا يدرون من أي الصنفين هم ، والله تعالى أعطى لعباده قدرة على أعمالهم ، ومشيئة واختياراً ، وأمرهم ونهاهم ، فلو كان علم الله جل وعلا حجة في ترك العمل ؛ لكان في الأمر بالعمل أمراً بما هو عبث ، والله جل وعلا منزه عن العبث ، فكيف يأمر بما لا ينفع ؟ فعمل العباد ينفع العباد أو يضرهم ، فإن هم عملوا بطاعة الله نفعهم ذلك ، وإن هم عملوا بمعصيته لم ينفعهم ذلك بل ضرهم ، وحينئذٍ فإننا نقول : إن علم الله جل وعلا بمآل العباد وبكونهم في الجنة وكونهم في النار لا يسقط العمل ولا يكون حُجة لمن ترك العمل .

ومما يدل على عدم تأثير علم الله تعالى بأعداد أهل الجنة وأهل النار ، ما أخرجه مسلم في صحيحه عن زهير عن أبي الزبير عن جابر ﷺ قال : جاء سراقة بن مالك فقال : يا رسول الله بيّن لنا ديننا كأنّا خُلقنا الآن ، فيمَ العمل اليوم ؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ، أم فيما نستقبل ؟ قال : (**بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير**) .

قال : ففيم العمل ؟ قال زهير ثم تكلم أبو الزبير بشيء لم أفهمه ، فسألت : ما قال ؟ فقال : (**اعملوا فكل ميسر**) ، وأيضًا يدل على هذا ما أخرجه الشيخان عن سهل بن سعد الساعدي ﵁ ؛ أن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون ، فاقتتلوا ، فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره ، ومال الآخرون إلى عسكرهم ، وفي أصحاب رسول الله ﷺ رجل لا يدع لهم – أي : لا يدع للمشركين – شاذة إلا اتّبعها يضربها بسيفه ، فقالوا : ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان ! فقال رسول الله ﷺ : (**أما إنه من أهل النار**) ، فقال رجل من القوم : أنا صاحبه أبدًا – أي : أنا اليوم ملازمه – ، قال : فخرج معه كلما وقف وقف معه ، وإذا أسرع أسرع معه ، قال : فخرج الرجل ، قال : فجُرح الرجل جرحًا شديدًا ، فاستعجل الموت ؛ فوضع نصل سيفه في الأرض ، وذبابه بين ثدييه ، ثم تحامل على سيفه ، فقتل نفسه ! فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال : أشهد إنك رسول الله ! قال : (**وما ذاك ؟**) ، قال : الرجل الذي ذكرت آنفا أنه من أهل النار ، فأعظم الناس ذلك ! فقلت أنا لكم به ، فخرجت في طلبه حتى جُرِحَ جرحًا شديدًا ، فاستعجل الموت ؛ فوضع نصل سيفه بالأرض ، وذبابه بين ثدييه ، ثم تحامل عليه ، فقتل نفسه ، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك : (**إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة**) ، وزاد البخاري رحمه الله : (**وإنّما الأعمال بالخواتيم**) .

فدل هذا على أن علم الله جل وعلا بأهل الجنة وأن علمه بأهل النار لا يكون حجة لأحد ، وأخرج الشيخان أيضًا من حديث عبد الله بن مسعود ﵁ قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : (**إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يُرسل الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتْب رزقه وأجله وعمله ، وشقي أو سعيد ، فوالذي لا إله غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلاّ ذراع ؛ فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار ؛ فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلاّ ذراع ؛ فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**) .

فهذه الأحاديث دلت على أن علم الله جل وعلا بأهل الجنة وأن علمه بأهل النار لا يسقط التكاليف وليس حجة لأحد ، فالنبي ﷺ قال : (**إنما الأعمال بالخواتيم**) ، يتذرع بهذا من يتذرع ، أعني : بإسقاط التكاليف بدعوى أن علم الله جل وعلا حجة لهم ، فيتذرع بها المتساهلون المتحللون من الشرائع ، وهؤلاء كما سيأتي – إن شاء الله تعالى – إذا أُعتدي على أحدهم فإنه لا يقول بعلم الله جل وعلا بما يكون ، وإنما يطلب حقه في هذه الحياة الدنيا ، أما إذا جاءت أمور الآخرة وجاءت أمور العبادات التي أمر الله جل وعلا بها وأمر بها رسوله ﷺ ، ادّعوا أن علم الله جل وعلا بأهل الحنة وأن علمه بأهل النار دليل على أنه لا قدرة لهم على عمل إلا ما علمه الله ، فحينئذ يخالفون ما أمر الله جل و علا به وما أمرت به رسله عليهم الصلاة والسلام ، فيتركون الأوامر ويفعلون المناهي احتجاجًا بهذا العلم السابق ، وهذا بإجماع سلف هذه الأمة ليس حجة لأحد ؛ لأنه لو كان حجة لأحد لبطلت بذلك الشرائع ، فلم يحتجْ الناس حينئذ إلى رسل ، ولم يحتجْ الناس حينئذٍ إلى كُتب ، وإنما يبقى الناس على أعمالهم ، ولهذا نبينا ﷺ لما قالوا له : أفلا ندع العمل ؟ قال : " لا " . وأخبر النبي ﷺ أنهم يقعون على مواقع القدر ، أي : اعملوا على مواقع القدر ، وسيعمل الإنسان ، وعمله إمّا أن يكون خيرًا وإما أن يكون شرًا ، و عمله موافق لقدر الله جل وعلا إن عمل خيراً فهو بقدر الله ، إن عمل شراً فهو بقدر الله ؛ ولكن المؤاخذة تكون عليه إن عمل شرًا ، والثواب يكون له إن عمل خيرًا ، فتبين بهذا سقوط قول من قال بأن علم الله جل وعلا بأعمال العباد مسقط للتكاليف ، وأنه حجة على الله جل وعلا .

مسألة القدر :–

الإيمان بالقدر هو الركن السادس من أركان الإيمان التي لا يصح إيمان عبد حتى يؤمن بها كلها ، فلو آمن عبد بركن من أركان الإيمان ولم يؤمن بها كلها لم ينفعه إيمانه بهذا الركن ، ولو آمن بها كلها ولم يؤمن بركن من الأركان لم ينفعه الإيمان بهذه الأركان كلها ، بل لابد من الإيمان بها جميعها .

وقد جاء ذكر القدر ووجوب الإيمان به في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ . فالإيمان بالقدر مُتحتم على كل أحد ، وقد أجمع المسلمون على وجوب الإيمان بالقدر ، وإن كانوا قد اختلفوا في تفاصيل ذلك ؛ لكن الإيمان بالقدر قد آمنت به الطوائف كلها على اختلافهم في التفاصيل في كيفية هذا الإيمان وفي تفسيرهم للقدر .

وأدلة وجوب الإيمان بالقدر كما ذكرت سابقًا هي في كتاب الله ، وفي سنة رسوله ﷺ ، وفي إجماع المسلمين ، وسنتناول إن شاء الله تعالى في الحلقة القادمة أدلة وجوب الإيمان بالقدر من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع المسلمين .

الحلقة (١٥)

ذكرنا في نهاية المحاضرة السابقة منزلة الإيمان بالقدر ، وقلنا بأن الإيمان بالقدر هو الركن السادس من أركان الإيمان التي لا يتم إيمان عبد حتى يؤمن بها كلها ، وقلنا بأن الإيمان بالقدر دل على وجوبه كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ، وإجماع المسلمين وإن اختلفوا في كيفية الإيمان بالقدر .

الأدلة من القرآن :-

• يقول الله جل وعلا : ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾ القمر ٤٩ ، وهذا خبر من الله جل وعلا ، والخبر من الله جل وعلا يجب الإيمان به و تصديقه .

• ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً** ﴾ الأحزاب ٣٨ .

• ويقول عز وجل : ﴿ **لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً** ﴾ الأنفال ٤٢ .

• ويقول عز وجل : ﴿ **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً** ﴾ النساء ٤٧ .

• ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ التغابن (١١).

• ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ الحديد ٢٢ .

• ويقول عز وجل : ﴿ **وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ آل عمران ١٦٦ .

فهذه أدلة على الإيمان بالقدر ، وقد أخبر الله جل وعلا عن ذلك ، فوجب التصديق والإيمان به.

الأدلة من السنة :-

دلت أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ على وجوب الإيمان بالقدر ، وبلغت الأحاديث فيها مبلغ التواتر ، ومنها :

• حديث جبريل عليه السلام الطويل وفيه قوله ﷺ لجبريل لما سأله عن الإيمان : (**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره**) .

• ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز فإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ؛ ولكن قل قدَرُ الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان**)، فالنبي ﷺ قال : (**فإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت**

كان كذا وكذا) ، يعني : أن هذا كائن بقدر الله جل وعلا ، فليس يمكن أن تفعل خلافه ؛**(ولكن قل قدَرُ الله وما شاء فعل)** ، يعني : هذا وما جرى قدر الله جل وعلا ، وما شاء فعله سبحانه .

• ما أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : **(كل شيء بقدر حتى العجز والكَيْسُ أو الكيس والعجز)** ، فالنبي ﷺ قال : " كل شيء بقدر " ، وهذا عام لا يخرج عنه شيء ، فأعمال العباد كلها بقدر ، فأنتَ إن عملتَ فقد عملت بقدر ، وإن تركتَ فقد تركت بقدر ، فعملك مقدور ، وتركك مقدور ، فلا تخرج إذاً عما قُدِّر لك من عمل أو ترك .

الإجماع :- قلنا : بأن المسلمين أجمعوا على وجوب الإيمان بالقدر ، وإن اختلفوا في تفسير القدر ، كما سيأتي معنا – إن شاء الله تعالى – .

مسألة مراتب القدر :-

القدر له مراتب أربع لا بد من تحققها ووجودها حتى يكون العبد مؤمناً بالقدر ، وهذه المراتب كلها جاءت في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ﷺ ، وهي :

المرتبة الأولى : **الإيمان بعلم الله تعالى** المحيط بكل شيء من الموجودات والمعدومات والممكنات والمستحيلات ، فعَلِم الله جل وعلا ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وعَلِم الله تعالى ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم ، وعَلم الله تعالى أرزاق العباد ، وآجالهم ، وأحوالهم ، وأعمالهم ، وأعمارهم في جميع حركاتهم و سكناتهم وشقاوتهم وسعادتهم ، ومن هو منهم من أهل الجنة ، ومن هو منهم من أهل النار مِن قبل أن يخلقهم ، ومن قبل أن يخلق الجنة والنار ، فقد عَلم الله سبحانه وتعالى دقيق ذلك وجليله ، كثيره وقليله ، ظاهره وباطنه ، سره وعلانيته ، مبتدأه ومنتهاه ، كل ذلك بعلمه الذي هو صفته ، والذي هو مقتضى اسمه العليم الخبير عالم الغيب والشهادة علام الغيوب .

أدلة هذه المرتبة من القرآن :-

• يقول الله تعالى : ﴿ **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** ﴾ الحشر٢٢ .

• ويقول سبحانه : ﴿ **لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً** ﴾ الطلاق ١٢ .

• ويقول سبحانه : ﴿ **وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً** ﴾ الجن ٢٨ .

• ويقول سبحانه : ﴿ **عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ سبأ (٣)۰

• ويقول سبحانه : ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى** ﴾ النجم (٣٠) ۰

• ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ **أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ** ﴾ الأنعام (٥٣) ۰

• ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ **أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ** ﴾ العنكبوت (١٠) ۰

• ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُون * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ *** ﴾ البقرة (٣٠:٣٢)

• ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ**

﴿ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة (١٦٢) .

أدلة هذه المرتبة من السنة :-

• ما أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : سُئل النبي ﷺ عن أولاد المشركين ، فقال : **(الله أعلم بما كانوا عاملين)** .

• وما أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : **(ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه كما تُنتِجون البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها)** ، قالوا : يا رسول الله ، أفرأيت من يموت وهو صغير ؟ ، قال : **(الله أعلم بما كانوا عاملين)** .

• وما أخرجه البخاري في صحيحه عن عمران بن حصين ﷺ قال : قال رجل : يا رسول الله ، أيعرف أهل الجنة من أهل النار ، يعني : أيعرفهم الله ؟ قال: **(نعم)**، قال : فلم يعمل العاملون ؟ ، قال: **(كل يعمل لما خُلق له ، أو لما يسّر له)** .

فهذه أدلة على إثبات المرتبة الأولى من مراتب القدر وهي مرتبة العلم .

المرتبة الثانية : الإيمان بكتاب الله تعالى الذي لم يُفرّط فيه من شيء .

أدلة هذه المرتبة من القرآن :-

• يقول الله – جل وعلا – : **﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾** الأنعام (٣٨) .

• ويقول سبحانه وتعالى : **﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾** يس (١٢) .

• ويقول سبحانه وتعالى : **﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴾** القمر (٥٢ ، ٥٣) .

• ويقول تعالى عن موسى عليه السلام حين قال له فرعون : **﴿ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾** ، قال : **﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾** طه (٥٢) .

•ويقول : **﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾** الحج (٧٠)

• ويقول سبحانه : **﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾** الأنعام (٥٩) .

•ويقول سبحانه وتعالى: **﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾** يونس (٦١).

• ويقول سبحانه : **﴿ واللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾** فاطر (١١) ، إلى غير ذلك من الآيات التي يُقرن فيها بين إثبات العلم والكتابة أو يُذكر كل على حدته ، فيذكر العلم وتذكر الكتابة ، فهذه أدلة من كتاب الله تعالى على هذه المرتبة مرتبة الكتابة التي جاءت بعد علم الله تعالى بالمخلوقات .

أدلة هذه المرتبة من السنة :-

• ما أخرجه مسلم في صحيحه عن علي بن أبي طالب ﷺ قال : كنا في جنازة في بقيع الغرقد ، فأتانا رسول الله ﷺ ، فقعد وقعدنا حوله ومعه مِخصرة فنكّس فجعل ينكت بمخصرته ، ثم قال : **(ما منكم من أحد ، ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار ، وإلا وقد كُتبت شقية أو سعيدة)** ، قال : فقال رجل : يا رسول الله ، أفلا نمكث على

كتابنا وندع العمل ؟ ، فقال : **(من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة)** ، فقال : **(اعملوا فكل ميسر ، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة)** ، ثم قرأ : ﴿ **فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى *** ﴾ الليل (٥:١٠) .

•وما أخرجه مسلم أيضا عن جابر ﷺ قال: جاء سراقة بن مالك فقال: يا رسول الله، بين لنا ديننا كأنّا خُلقنا الآن فيما العمل، أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، أم فيما نستقبل؟ قال: **(لا، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير)**

• وما أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ : **(إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظّه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان المنطق ، والنفس تمنّى وتشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه)** . فهذه أدلة من سنة رسول الله ﷺ على إثبات مرتبة الكتابة ، فدل على هذه المرتبة إذاً كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ، وإجماع الصحابة ﷺ .

الكتابة يدخل تحتها تقادير ، وهي تقادير داخلة في الإيمان بكتابة المقادير ، وسنذكرها – إن شاء الله تعالى – .

مسألة التقادير الداخلة في مرتبة الكتابة ، وهي كما يلي :-

التقدير الأول : **التقدير الأزلي** الذي هو قبل خلق السماوات والأرض عندما خلق الله تعالى القلم .

دليل هذا التقدير : قول الله جل وعلا : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ الحديد (٢٢) .

• وما أخرجه البخاري في صحيحه عن عمران بن حصين ﷺ قال : دخلت على النبي ﷺ ، وعقلت ناقتي بالباب فأتاه ناس من بني تميم ، فقال : **(اقبلوا البشرى يا بني تميم)** ، قالوا : قد بشرتنا فأعطنا – مرتين – ، ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن ، فقال : **(اقبلوا البشرى يا أهل اليمن)** ، فقال : **(إذ لم يقبلها بنو تميم)** ، قالوا : قبلنا يا رسول الله ، قالوا : جئناك ؛ لنسألك عن أول هذا الأمر ، قال : **(كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السماوات والأرض)**، فنادى منادٍ ، ذهبت ناقتك يا ابن حصين ، فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السراب ، فوالله لوددت أني كنت تركتها .

•وما أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : " كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء " ، فهذه أدلة التقدير الأول التقدير الأزلي .

التقدير الثاني : وهو كتابة الميثاق يوم أن قال : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ *** ﴾ الأعراف (١٧٢:١٧٣) .

التقدير الثالث : **هو التقدير العُمُري** ، وذلك عند تخليق النطفة في الرحم ، فيُكتب إذ ذاك ذكوريتها وأُنوثتها ، والأجل ، والعمل ، والشقاوة والسعادة ، والرزق ، وجميع ما هو لاقٍ فلا يُزاد فيه ولا يُنقص .

دليل هذا التقدير : ما أخرجه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : **(إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا ، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك**

مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله ، وشقي أو سعيد ، فو الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها) .

التقدير الرابع : **التقدير الحولي في ليلة القدر** ، فيُقدر فيها كل ما يكون في السنة إلى مثله،

دليل هذا التقدير : قول الله جل وعلا : ﴿ **حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ** * ﴾ الدخان (١:٥) ٠

• وقوله : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ** * ﴾ القدر (١:٥) ٠

التقدير الخامس : **التقدير اليومي** ٠ وهو سَوْق المقادير إلى المواقيت التي قُدرت لها فيما سبق .

دليل هذا التقدير : قول الله جل وعلا : ﴿ **يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** ﴾ الرحمن (٢٩) ، أخرج ابن جرير الطبري – رحمه الله تعالى – عن مُنيب بن عبد الله بن مُنيب الأزدي عن أبيه قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** ﴾ ، فقلنا : يا رسول الله ، وما ذاك الشأن ؟ قال : (**أي يغفر ذنبًا ، ويفرج كربًا ، ويرفع قومًا ، ويضع آخرين**) .

فهذه التقادير هي داخلة في المرتبة الثانية من مراتب الإيمان بالقدر وهي مرتبة الكتابة ، وهذه المراتب لابد من الإيمان بها

الحلقة (١٦)

تكلمنا في الحلقة السابقة عن مراتب القضاء والقدر ، وتكلمنا عن مرتبة العلم والكتابة ، وتكلمنا عن التقادير الداخلة في مرتبة الكتابة . ونتناول إن شاء الله تعالى في هذه الحلقة المرتبتين الأخريين :-

المرتبة الثالثة : **الإيمان بمشيئة الله** النافذة وقدرته الشاملة ، وهما يجتمعان فيما كان وما سيكون ، ويفترقان فيما لم يكن ولا هو كائن ، فما شاء الله تعالى كونه فهو كائن بقدرته لا محالة ، يقول الله جل وعلا : ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾ يس٨٢ .

المرتبة الرابعة : **هي مرتبة الخلق** ، وهي الإيمان بأن الله سبحانه خالق كل شيء ، فهو خالق كل عاملٍ وعمله ، وخالق كل صانعٍ وصنعته ، وهو خالق كل متحركٍ وحركته ، وخالق كل ساكنٍ وسكونه ، وما من ذرة في السماوات ولا في الأرض إلا والله سبحانه خالقها وخالق حركتها وسكونها ، **دليل هذه المرتبة** : قول الله جل وعلا : ﴿ **اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ** ﴾ ، ﴿ **واللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ الصافات٩٦ .

فهذه هي مراتب الإيمان بالقدر التي لابد من الإيمان بها كلها .

خلاف الناس في القضاء والقدر :-

سبق أن قلنا بأن المسلمين أجمعوا على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر ، ولما أجمعوا على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر ، اختلفوا في تفاصيل هذا الإيمان . **فاختلفوا في الجملة على ثلاثة أقوال** :

القول الأول : **قول أهل السنة والجماعة** ، وهم يقولون : بأن الله تعالى قدّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، علِمها وكتبها وخلقها وأنه جل وعلا يشاؤها .

القول الثاني : قول القدرية ، وهم طائفتان :-

طائفة الأولى : أنكرت علم الله السابق ، وهؤلاء كفّرهم السلف ، وهم الذين قال فيهم الشافعي رحمه الله تعالى : " ناوءوهم بالعلم فإن أقروا به خصموا وإن جحدوه كفروا) . فهؤلاء المنكرون لعلم الله السابق ، والذين يقولون : إن الأمر أُنُف وإن الله جل وعلا لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها ، فهؤلاء خرجوا بآخر عهد صحابة النبي ﷺ ، وتبرأ منهم ابن عمر وابن عباس وغيرهم ممن أدركوا ذلك الزمن .

فقد أخرج مسلم في صحيحه عن يحي بن يعمر قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبدٌ الجهني، فانطلقت أنا وحُميد بن عبد الرحمن الحميري حاجَّين أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ ، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوُفِّقَ لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد ، فاكتنفته أنا وصاحبي أخذنا عن يمينه والآخر عن شماله ، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إليّ فقلت : أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قِبَلنا ناسٌ يقرءون القرآن ، ويتقفَّرون العلم وذكر من شأنهم ، وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أُنُف ، قال : (فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم ، وأنهم براء مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر ، ثم قال : حدثني أبي عمر بن الخطاب قال : (بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، ثم ذكر حديث جبريل عليه السلام الطويل) .

وأخرج اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة : أن رجلاً قَدِم يكذب بالقدر ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : (دلوني عليه ، وهو يومئذ أعمي) ، قالوا : وما تصنع به ؟ ، قال : (والذي نفسي بيده لئن استمْكَنْتُ منه لأعُضَّن أَنْفه حتى أقطعه ، ولئن وقعتْ رقبته بيدي لأدُقَّنَّها ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : (**كأني بنساء بني فهرٍ يطفن بالخزرج تصطفق أَلَيَاتهن مشركات ، هذا أول شرك في الإسلام ، والذي نفسي بيده لا ينتهي بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يقدّر خيراً كما أخرجوه من أن يقدّر الشر**) .

فهذان دليلان أن هذه الفرقة خرجت زمن صحابة النبي ﷺ وأن الصحابة الموجودين ذلك الوقت تبرءوا منهم .

الطائفة الثانية : من القدرية هي التي أنكرت المرتبتين الأخيرتين ، وهما : مرتبة المشيئة والخلق ، وهؤلاء هم المعتزلة ومن أخذ بمذهبهم ، وهم مجوس هذه الأمة ، وهؤلاء يزعمون أن العباد هم الذين يخلقون أفعالهم ، وأن الله تعالى غير خالق لها وغير قادر على ذلك .

فهذه طائفة القدرية قسمان :-

١ـ طائفة أنكرت العلم والكتابة . **٢ـ طائفة أنكرت الخلق والمشيئة .**

القول الثالث : **الجبرية** ، وهم طائفتان :-

الطائفة الأولى : **الجبرية الخالصة ، وهذا مذهب جهم وأصحابه** ، وهم الذين يقولون : بأن العبد لا قدرة له ولا اختيار ، وإنما تجري به الأقدار كما تجري الرياح بالريشة تحركها كيفما شاءت .

الطائفة الثانية : **وهي الجبرية المتوسطة ويطلق عليهم الكسبية ، وهؤلاء الأشعرية** ، وحقيقة مذهبهم هو إثبات قدرةٍ للعبد غير مؤثرة ، فيقولون : بأن السكين لا تقطع وإنما يحصل قطع عندها لا بها ، والعبد مجبورٌ على فعله وإنما يُفعل به ، فحينما يَتكلم يُتكلم به ، وحينما يَزني يُزنى به وهكذا . فقدرة هذا العبد عندهم غير مؤثرة ، ومآل هذا القول إلى قول جَهْم ، كما أقر بذلك بعض المحققين منهم كالرازي .

فهذه هي جملة أقوال الناس في القدر والذي تدل عليه النصوص من كتاب الله وسنة رسول ﷺ ، وإجماع الصحابة والتابعين ، ولا يحتمل الحق غيره هو قول أهل السنة والجماعة ، وهو القول الأول الذي ذكرته من أقوال الناس في مسألة القدر .

مسألة : منشأ الضلال في مسألة القدر :-

الناس اختلفوا في مسألة القدر ، **فما منشأ الضلال بين الطوائف المنحرفة عن الحق ؟**

نقول : إن منشأ الضلال في هذه المسألة ، **هو التسوية بين المشيئة والإرادة وبين المحبة والرضا .**

فساوى بينهما الجبرية والقدرية ، ثم اختلفوا ، يعني : الجبرية والقدرية سوت بين المحبة والرضا وبين المشيئة والإرادة ، فجعلوهما شيئاً واحداً ، اختلفوا بعد هذا .

فقالت الجبرية : الكون كله بقضاء الله وقدره ، فيكون محبوباً مرضياً .

انظر إلى الناتج الذي ينتج عنه وهو ناتج سيء ، وهو أنه لما كان الكون كله بقضاء الله وقدره وكان محبوبًا مرضيًا ، فإن كل ما يفعله العباد من الخير والشر كله يكون محبوباً مرضياً عند الله سبحانه ؛ لأن الكون كله كان بمشيئة الله ومحبته وإرادته .

وقالت القدرية النُفاة: ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له ، فليست مقدّرة ولا مرضية فهي خارجة عن مشيئته وخلقه ، يعني : إن القدرية لما ساوت بين الإرادة والمشيئة وبين المحبة والرضا ، ورأت أن الله جل وعلا يكره المعاصي ، قالت : إن المعاصي والذنوب والمكروهات خارجة عن مشيئة الله تعالى وخلقه ، فما يفعله العباد من هذه الأمور فهي خارجة عن مشيئة الله وخلقه ؛ لأننا لو قلنا بأنها داخلة في مشيئة الله وخلقه ، للزم من ذلك أن يكون راضياً لها ومحباً لها وغير ساخط لها . فهذا هو منشأ الظلال عند هاتين الطائفتين .

أما أهل السنة والجماعة فإنهم لمّا فرقوا بين هذين الأمرين ، لم يقعوا في هذا الضلال ، فهم قالوا : إن مشيئة الله وإراداته ، هي غير محبته ورضاه ، فالله جل وعلا يحب شيئاً ويرضاه لكنهُ لا يشاؤهُ فلا يقع ، وإذا شاء الله أمراً فإنه لا يلزم من ذلك أن يكون الله جل وعلا قد أحبه ورضيه ، فهو جل وعلا يشاء المعصية وتقع ولكنه جل وعلا لا يحبها ولا يرضاها .

الرد على الطائفتين (القدرية والجبرية) حينما ساوَوْا بين المشيئة والإرادة وبين المحبة والرضا ، فنقول :

لقد دل كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ والفطرة والعقل الصحيح على الفَرْق بين المشيئة والمحبة ، فنذكر الأدلة من الكتاب والسنة ونذكر دليل الفطرة والعقل .

فالأدلة من الكتاب :-

- يقول الله في المشيئة : ﴿ **وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ** ﴾ الأنعام ١١١ .

- ويقول جل وعلا : ﴿ **وَمَا تشاءون إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً** ﴾ الإنسان ٣٠ .

- ونصوص المحبة يقول تعالى : ﴿ **وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ** ﴾ البقرة ٢٠٥ ﴿ **وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ** ﴾ البقرة ٢٧٦ ، ويقول : ﴿ **إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ** ﴾ الزمر ٧ .

فآيات المشيئة دلت على أن ما شاء الله كان ، وما لم يشاء لم يكن ، ودلت نصوص المحبة والرضا على أن هناك أموراً يكرهها الله تعالى ولا يحبها ولا يرضاها ، وقد وقعت فدل هذا على الفَرْق بين الأمرين .

الأدلة من السنة :-

- نصوص المشيئة : أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : (حاصر النبي ﷺ أهل الطائف فلم

يفتحها ، فقال : (**إنا قافلون غداً إن شاء الله**) ، فقال المسلمون : نقفل ولم نفتح ، قال : (**فاغدوا على القتال**) ، فغدوا فأصابتهم جراحات ، فقال النبي ﷺ : (**إنا قافلون غداً إن شاء الله**) ، فكأن ذلك أعجبهم فتبسم رسول ﷺ .

- وأخرج البخاري أيضاً عن أبي هريرة ﷺ عن رسول ﷺ ، أنه قال : (**ننزل غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة ، حيث تقاسموا على الكفر**) .

- نصوص المحبة والرضا : عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : (**إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً ، فيرضى لكم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ، ولا تفرقوا ، ويكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال**) .وهذه النصوص دلالتها كدلالة النصوص القرآنية ، فهي فرّقت بين المشيئة وبين المحبة والرضا ، فهناك أشياء يكرهها الله تعالى ولا يحبها ، ومع ذلك فقد وُجدت لأنها تعلقت بالمشيئة المستلزمة لوقوع ذلك ، يعني : أن هناك أشياء يكرهها الله جل علا ولا يحبها ومع ذلك وقعت من العباد ، فهل نقول : بأنها وقعت دون أن يشاءها الله جل وعلا ؟ لا نقول هذا ، بل نقول : إنها وقعت بمشيئة الله ، والله يكرهها ولا يرضاها ولا يحبها ديناً وشرعاً ، ولكنه شاءها جل وعلا فهو أرادها كوناً وقدراً ولكنه كرهها ديناً وشرعاً .

<u>وأما دليل الفطرة</u> :- إن الناس مفطورون على القول بأن الله يحب هذا الفعل ويكره ذاك ، ويقولون : فلاناً يفعل ما يحبه الله ، وفلان يفعل ما يبغضه الله ويكرهه ، وكلها واقعة بمشيئة الله وقدرته ، يعني : كأنك ترى الإنسان يفعل أمراً يكرهه الله ، وترى الإنسان يفعل أمراً يبغضه الله عز وجل ، **هل هذا العبد الذي فعل هذا الأمر الذي يكرهه الله عز وجل ويبغضه فعله دون مشيئة من الله عز وجل ؟ أو أنه بمشيئة الله ؟** يقول الله جل وعلا : ﴿ **وَمَا تشاءون إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ الإنسان ٣٠ ، فالعبد لا يمكن أن يفعل شيئاً إلا بمشيئة الله جل وعلا ، وعلى هذا أجمع المسلمون . إذن **إذا فعل فعلاً يكرهه الله ويبغضه ، ما حاله ؟**

نقول : بأنه فعل فعلاً يبغضه الله ويكرهه ديناً وشرعاً ، ويحبه الله جل وعلا كوناً وقدراً ، فالله جل وعلا يحبه كوناً وقدراً ، والله جل وعلا يكرهه ويبغضه ويسخطه ديناً وشرعاً ، ولا تعارض بين الأمرين . والله جل وعلا يريد المعاصي كوناً وقدراً ولو لم يردها كوناً وقدراً لم تقع . ويبغض المعاصي ديناً وشرعًا ، ولهذا فالعبد إذا فعل الطاعة فإنه يكون أخذ بمحبة الله وإرادة الله الدينية الشرعية التي وافقت الإرادة الكونية ، فالعبد المطيع اجتمعت فيه الإرادتان : الإرادة الكونية ، والإرادة الشرعية المقتضية للمحبة . وإذا فعل المعصية فإنه يكون حينئذٍ فعل وفق الإرادة الكونية ، ولم يفعل وفق الإرادة الدينية الشرعية المستلزمة للمحبة والرضا .

فالناس مفطورون على هذا الأمر ، فكل من رأى إنساناً يعمل من المعاصي ، قال : إن هذا يعمل معصية ويكرهه الله ، ومع ذلك فهو يوقن بأنه حين عمل هذا الأمر الذي يكرهه الله فإنه يعمل وفق مشيئة الله جل وعلا .

<u>دلالة العقل</u> :- العقل لا يمنع بداهة إرادة الإنسان شيئاً وهو لا يحبه ، **<u>مثال هذا</u>** : المريض يكره الدواء المرّ ، يكرهه كراهية شديدة ولا يحب شربه ، ومع ذلك هو الذي يتقصّد شراءه ، وهو الذي يدفع فيه المال ليحضره ويأكله ويشربه ، فاجتمعت في الإنسان الإرادة من وجه والمحبة من وجه ، فهو لا يحب هذا الدواء لكونه مرّاً ، وهو يريد أن يشربه لكونه يفضي به بإذن الله إلى الشفاء وهو يطلب الشفاء ، فاجتمع فيه الأمران . فالعقل إذاً لا يمنع من هذا ، فدل كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، والفطرة والعقل الصحيح على أن هناك فرقًا بين المشيئة والإرادة وبين المحبة والرضا ؛ لهذا لمّا لم يفرِّق بينها الجبرية والقدرية أخطئوا في مسألة القضاء والقدر ، فقالت الجبرية : ما يجري من المعاصي كله محبوبٌ لله جل وعلا ، وقالت

القدرية : إنه ما يجري من المعاصي لا يحبه الله جل وعلا ؛ لأنهم قالوا : لا فرق بينها ، ثم اختلفوا هذا الاختلاف ، أما أهل السنة والجماعة ، فقالوا : إن هناك فرق بين المشيئة والإرادة وبين المحبة والرضا ، فسلموا من الوقوع في هذه الأخطاء والضلالات التي وقعت فيه الجبرية والقدرية .

الحلقة (١٧)

تقدم في الحلقة الماضية ما يتعلق بسبب الضلال ومنشئه في مسألة القدر :

وذكرنا أن منشأ ذلك هو التسوية بين المشيئة وبين المحبة والرضا ، وقلنا : بأن القدرية والجبرية ساوت بين المشيئة وبين المحبة والرضا ، ثم بعد أن اتفقت هاتان الطائفتان على التسوية بين المشيئة وبين المحبة والرضا اختلفتا ، فالجبرية قالت : إنّ كل ما في الكون مما شاءه الله تعالى فهو محبوبٌ مرضيٌّ لله جل وعلا ، فما يفعله العباد من الطاعات وما يفعلونه من المعاصي هما بالنسبة للمشيئة والمحبة والرضا شيءٌ واحد ، فكل أمرٍ يعملهُ العامل من خيرٍ أو شرٍ فهو محبوباً لله تعالى راضياً به ، وإذا كان الأمر كذلك فإنه يلزم على هذا قيام الحجة على الله تعالى ، بأنه عذبهم بما فعله فيهم ، فنتج عن ذلك رمي الرب جل وعلا بالظلم ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وقلنا : بأن القدرية قالت : أن أعمال العباد وأفعالهم لا يخلقها الله جل وعلا ، لماذا قلتم أنه لا يخلقها الله جل وعلا ؟ ، قالوا : قلنا هذا لئلا نقع فيما وقعت به الجبرية ، فالقدرية فرّت مما وقعت فيه الجبرية فوقعت فيما هو شرٌّ منه ، وهو نسبة العجز إلى الله جل وعلا ، ودعوى وجود خالق مع الله تبارك وتعالى ، وهم قالوا هذا القول تنزيهاً لله جل وعلا عن الظلم بزعمهم ، قالوا : لو قلنا هذه المقولة : (بأن الله تعالى يخلق أفعال العباد) ، للزم من هذا أن يكون ظالماً لهم إذا عذبهم كما تقول الجبرية ، وهؤلاء القدرية لم يفرقوا بين أمرين : أحدهما الفعل والآخر الخلق ، فما يفعله العبد هو فعله منسوباً إليه والله جل وعلا خالق فعله ، فالخلق خلق الله والفعل فعل العبد ، وهما لا يتناقضان ، فالعبد قد أعطاه الله جل وعلا اختيارًا وقدرة على الفعل ، فاختار الشر على الخير أو العكس ، والله جل وعلا خالق الفعلين ، خالق فعل الخير وهو جل وعلا خالق فعل الشر ، فلا يخرج شيء من أفعال العباد ولا من ذواتهم ولا من حركاتهم ولا من سكناتهم عن أن يكون خلقاً لله عز وجل ، وهذا ينبغي التنبه إليه ، فإن كثيراً ممن يلبِّسون على الناس بهذه المذاهب الباطلة ، يقولون : **كيف يخلق الله جل وعلا فعل العبد ثم يعذبه عليه ؟** فنقول: إن مناط الثواب والعقاب هو فعل العبد الاختياري، فهو يثاب على فعله ويعاقب عليه، وفعله من خير أو شر لا يخرج عن كونه خلقاً لله عز وجل؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ الزمر ٦٢، وهذا الشيء يدخل فيه أفعال العباد، والعجب أن المعتزلة أخرجت من هذا العموم - عموم قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾- أفعال العباد، بينما أدخلت كلام الله جل وعلا (القرآن)، فزعمت أن القرآن مخلوق لعموم قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾. وهم متناقضون في هذا .

بينما تجد أهل السنة والجماعة يقولون : إن الله جل وعلا قال: ﴿ **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾، والله بأسمائه وصفاته خالق، وليس شيئاً من صفاته داخلاً في هذا الشيء المذكور في الآية، بل هذا الشيء المذكور في الآية مخلوقٌ لله جل وعلا الموصوف بالصفات العلا والذي له الأسماء الحسنى، فليس هو ولا شيء من صفاته عز وجل داخلاً في هذا العموم، وإنما يقول أهل السنة والجماعة: إن أفعال العباد داخلةٌ في هذا العموم؛ لأن أفعال العباد قائمة بهم، وما قام بالعبد من فعلٍ استحال أن يقوم بالله عز وجل ، فالمخلوق له صفته والخالق جل وعلا له صفته ، أما هؤلاء المعتزلة والقدرية ومن وافقهم فإنهم متناقضون في هذا ، والقرآن والسنة والعقل والفطرة قد دلت على التفريق بين المشيئة وبين المحبة والرضا ، فإذا كانت النصوص دالةً على

التفرقة بين المشيئة وبين المحبة والرضا ، فإن ها هنا سؤالاً يُطرح كثيراً في كتب الاعتقاد وبخاصة عند من ليس على الجادة المستقيمة عند الطوائف المخالفة ، كذلك يطرحه أهل السنة والجماعة للإجابة عن سؤال تلك الطوائف ، هذا السؤال يقول : **كيف يريد الله أمراً ولا يرضاه ولا يحبه ، وكيف يشاؤه ويكوِّنه ، وكيف تجتمع إرادته له وبغضه وكراهته ؟** يعني: أنهم يقولون: إننا نرى أموراً هي معاصي والله جل وعلا شاءها وخلقها فكيف يريدها وكيف يخلقها وهو لا يرضاها ولا يحبها ؟ وكيف يشاء يُكوِّنُها ؟ وكيف تجتمع الإرادة والبغض والكراهة ؟

والجواب أن يقال : إن السبب في طرح هذا السؤال هو عدمُ معرفة **أن المراد نوعان** :-

• **مرادٌ لنفسه**: مطلوبٌ محبوبٌ لذاته ومحبوبٌ لما فيه من الخير، فهو مرادٌ إرادة الغايات والمقاصد، فهذا هو المراد لنفسه، يعني : أنه هو المقصود بالإرادة .

• **ومرادٌ لغيره** : ليس مقصوداً لذاته ولا فيه مصلحةٌ له بالنظر إلى ذاته ، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده ، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته ، مراداً له من حيث أنه يفضي إلى مقصوده ومراده .

مثالُ المراد لنفسه : الشرابُ الحلو النافعُ المفيد ، هذا الشراب يشربهُ الإنسان وهو يريد ذات الشراب؛ لأنه اجتمع فيه المذاق الحلو والنفعُ للبدن، فهذا مراداً لنفسه وذاته .

ومثال المراد لغيره : الدواء الكريه ، فالدواء الكريه ليس مراداً لذاته ؛ لأن الإنسان يكرهه ويبغضه ، ولكن لكونهِ يفضي إلى أمرٍ آخر ، وهو أن الله جل وعلا جعل فيه سبباً للشفاء ، فهذا تجد الإنسان يتطلبه ويشتريه بالثمن الباهظ ، بل ويشتريه أحياناً بما هو مرادٌ لنفسه كأن يشتري هذا الدواء الكريه بالشراب الحلو ، فشراؤه للدواء الكريه لم يشتره محبةً لذاته لأنه لا يحبه ويكرهه ، وإنما يشتريه ويدفع فيه ماله لكونه يفضي إلى ما هو سببٌ لشفائه ، فهذا المراد يجتمعُ فيه الأمران ، يجتمعُ فيه الكراهية والبغض ، ويجتمع فيه الإرادة ، فكراهيتهُ وبغضهُ لذاته وإرادتهُ لما يفضي إليه من المحاب التي يريدها ، يجتمعُ في المراد لغيره الأمران ، بغضهُ وإرادتهُ ، **ولا يتنافيان ، لماذا ؟** لا يتنافيان لاختلاف مُتعلقِهما ، فالإرادة لها مُتعلق ، والبغضُ والكراهيةُ لها متعلق ، فإذا نظرنا في المثال السابق وجدنا أن مُتعلق البغض والكراهية هو ما يوجد في هذا الدواء من الطعم القبيح أو الرائحة المستكرهة ، ومتعلقُ إرادته هو كونهُ يُفضي إلى ما هو خيرٌ له وهو شفاءه وصلاح بدنه .

انظر مثلاً إلى العضو المتآكل في الإنسان، فالأطباء يقولون للمريض: إن لم تقطع هذا العضو (كاليد أو الرجل)، سرى المرضُ إلى البدن، هو يحب هذا العضو ولا يريدُ قطعه، ولكن قطعه يحميه من أمرٍ آخر وهو تآكل البدن جميعاً، فاجتمع الأمران .

الحلقة (١٨)

لا نزال نتحدث في شيءٍ من مسائل القدر ، وسبق في الحلقة الماضية أن ذكرنا بأن سؤالاً يطرحه كثير من الناس وكثير من المتكلمين على سبيل الاستشكال ، ويطرحه كثير من أهل السنة والجماعة في مصنفاتهم على سبيل الرد على هذا الاستشكال الذي استشكله المتكلمون. وهذا السؤال كما مضى وهو: كيف يريد الله أمراً ولا يرضاه ولا يحبه وكيف يشاءهُ ويكوِّنهُ **وكيف تجتمع إرادتهُ لهُ وبغضهُ وكراهتهُ ؟** ، وذكرنا أن السبب لطرح هذا السؤال هو عدم تفرقة هؤلاء ومعرفتهم بين نوعي المراد : وهو المراد لنفسه (إرادة الغايات) ، والمراد لغيره (وليس هو مراداً لنفسه) ، وذكرنا مثالاً على هذا وهو الدواء الكريه وكذلك قطع العضو المتآكل .

ونكمل في هذه الحلقة شيئاً مما يتعلق بهذا الأمر ، ونقول : إن العبد العاقل آثر أن يُقطع منه العضو المتآكل لأجل أن لا

يسري التآكل إلى البدن ، آثر هذا بأي شيء ، **أبعلمٍ يقيني أم بظن ؟**

نقول: آثر هذا بظن ولم يكن إيثارهُ لهُ بعلمٍ يقيني وإنما آثرهُ بغلبة الظن ، ولما غلب على ظنه صحة ما يقوله الأطباء من أن المرض ربما سرى إلى البدن ، آثر أن يقطع هذا العضو بل ربما دفع أجرة الطبيب لأجل أن يقطع هذا العضو المتآكل حتى لا يسري إلى بدنه .

إذا كان هذا في المخلوق الذي يظنُ ظناً ، فكيف إذاً بالخالق جل وعلا الذي لا تخفى عليه خافية ، الله جل وعلا يكره الشيء ، ولا تنافي كراهيته للشيء إرادته لأجل غيره ، ولا تنافي أيضاً كونهُ سبباً إلى أمرٍ هو أحبُ إليه من فوته ، من هذه الأشياء التي يُبغضها الله ويكرهها لكنه أرادها وخلقها : خَلْقُ إبليس ، فإبليس مادة فساد الأديان ، وهو سببٌ لفساد الأعمال والأقوال والاعتقادات ، فما من شرٍ إلا وهو سببهُ فهو لا يريدُ خيراً يظهر وإنما يريدُ شراً يغلب ، وهو سببٌ لشقاوة كثير من العباد وسببٌ أيضاً لعملهم بما يُغضبُ الرب جل وعلا ، وهو الساعي في وقوع وإيقاع خلاف ما يحبه الله جل وعلا ويرضاه من الأقوال و الاعتقادات والأعمال ، ومع ذلك فهو وسيلة إلى محابّ كثيرةٍ للرب تبارك وتعالى ترتبت على خلقه لهذه المادة وهي مادة إبليس ، ووجود هذه المحاب أحبُ إلى الله جل وعلا من عدمها.

من هذه المحاب : **أن تظهر قدرة الرب تبارك وتعالى على خلق المتضادات المتقابلات** ، فخلَق ذات إبليس التي هي أخبث الذوات وشرها وهي سبب كل شر ، في مقابلة ذاتِ جبريل عليه السلام ومقابلة ذاتِ الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه التي هي من أشرف الذواتِ وأظهرها وأطهرها وأقومها وأعزها وأزكاها ، وهي مادةُ كل خير ، فتبارك جل وعلا خالقُ هذا – مادة الشر – وخالقُ هذا – مادة الخير – ، وظهور هذا كظهور قدرته جل وعلا في خلق الليل والنهار ، والداء والدواء ، والحياةِ والموت ، والحسنِ والقبيح ، والخيرِ والشر .

وخلْقهُ جل وعلا لهذه المتضادات من أعظم الأدلة على كمال قدرته وعزته وسلطانه وجبروته ، فإنه خلَق هذه المتضادات – أمثال : الخير والشر ، والحسن والقبيح – ، وقابل بعضها ببعض وجعلها جل وعلا محالّ تصرفه وتدبيره ومجاله ، فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته عز وجل وكمال تصرفه وتدبير مملكته ، فخلْقهُ لهذه المضادات ظهر بها آثار هذه القدرةِ العظيمة التي لا يستطيعُ أحدٌ أن يُوجد مثلها ، وإنما يُوجِد ذلك ويخلقه الربُ عز وجل ، فظهر بذلك تفرّدهُ جل وعلا بالقدرة التي لا يعجزها شيء ، فإن خلْق هذه المتضادات المتقابلات ليس بالأمر اليسير ولا بالأمر الهيّن ، ولكن الله جل وعلا لا يعجزه شيءٌ في السماوات ولا في الأرض ، إنه كان عليماً قديراً ، فهو جل وعلا علِم ما في هذه المتضادات من خيرٍ وشرٍّ وحسنٍ وقبحٍ ، وبقدرته جل وعلا أوجدها ، فهي مخلوقةٌ لله عز وجل تظهر فيها آثار حكمته وقدرته عز وجل .

ومن هذه المحابّ : **ظهور آثار أسمائه القهرية** : كالقهار ، والشديد العقاب ، وسريع العقاب ، وذي البطش الشديد ، **وظهور آثار أفعاله** : كخفضه جل وعلا ورفعه ، كخفضه لأقوام ورفعه لآخرين ، وإعزازه أقواماً وإذلاله آخرين . فهذه الأسماء والأفعال لابد من وجود متعلقها ، ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم تظهر آثار هذه الأسماء ، وإنما ستظهر آثار أسمائه الأخرى كالرحيم ، والرءوف ، والودود ونحوها ، أما بوجود وخلْق هذه المتضادات من خير وشر وطاعة وعصيان وكفر وشكر وغيرها ، فإنه يفضي إلى ظهور آثار أسمائه جل وعلا القهرية وكذلك يفضي إلى ظهور آثار أفعاله في عباده .

ومن المحابّ : **ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه، وعفوه ومغفرته، وستره ، وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبيده،** فلولا أنه جل وعلا خلَق ما يكرهه من الأسباب المفضية إلى ظهور هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد وهذا أشار إليه النبي ﷺ بقوله : " لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقومٍ يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم " . فلو كان الرب جل وعلا

إنما خلق الناس والجن على طبيعة الملائكة التي لا تعصي ما أُمرت به ويفعلون ما يؤمرون ، أو كانوا على طبيعة الشياطين ، لم يظهر إلا آثار بعض أسمائه ، وأما بقيتها فإنها لن تظهر لأن مُتعلقها غير موجود ، فلما كان مُتعلقها موجودٌ من خير أو شر أو إحسانٍ أو إساءةٍ أو غيرهما ، فإنه قد ظهرت بذلك آثار أسمائه وصفاته ، آثار الأسماء التي تدل على حلمه وعدم معاجلته جل وعلا بالانتقام من عباده، وظهرت آثار قدرته عز وجل، فتبيّن لنا بهذا أن هذين الأمرين محبوبان لله عز وجل .

الأثر الآخر أو الثالث: ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة ، فالله جل وعلا حكيمٌ خبير ، والحكيم : هو الذي يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها ، وهو الذي يُنزل الشيء في منزلته التي يقتضيها كمال علمه وحكمته جل وعلا ، فالله جل وعلا أعلم حيث يجعل رسالته ، وهو عز وجل أعلم بمن يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها إليه ، وأعلم بمن لا يصلح لها ولا يشكر ، فخلْق هذه المتضادات صار سبباً لظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة ، ولولا وجود ذلك لم تظهر آثار هذه الأسماء ، ولو عُطّلت تلك الأسباب لما فيها من الشر لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر التي في تلك الأسباب .

وهذا كالشمس والمطر والرياح التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر ، فنزول المطر خيرٌ وقد يكون سبباً للغرق وسبباً لفساد بعض الزروع والثمار ، ولكن وقوع هذا الفساد سببٌ لإفضائه إلى ما هو خير وإلى ما هو محبوب لله عز وجل ، فهو جل وعلا أنزل هذا المطر الذي هو خير ، لكنه أهلك به أقواماً وفسدت به زروعٌ وثمار ، وهذا يدل على قدرة الله جل وعلا ، بل يدل على كمال قدرته وهي القدرة التي لا يعجزها شيء ، فقدرته جل وعلا مطلقة لا حدود لها ، وظهر بهذه الآثار مصالح ومحاب لله عز وجل ، لولا وجود هذه الأشياء لتعطّلت الحكمة من ذلك .

الحلقة (١٩)

سبق في الحلقة الماضية أن ذكرنا بعض الحِكم من خلق إبليس مادة الشر والفساد ، وذكرنا من تلك الحِكم :-

ظهور آثار أسماء الله عز وجل الدالة على الحكمة والخبرة والقدرة ، وكذلك الدالة على العفو والانتقام والحلم وغيرها ، وذكرنا بأنه لولا وجود خلق إبليس لتعطّلت تلك الحِكم . وسنذكر في هذه الحلقة إن شاء الله تعالى بعضاً أو شيئًا من هذه الحِكم .

ونقول إن من هذه الحِكم :- حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلْق إبليس لمَا حصلت ، فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إلى الله سبحانه وتعالى ، ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية ولتعطلت توابعها من الموالاة لله سبحانه وتعالى والمعاداة فيه ، ولتعطلت عبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولتعطلت عبودية الصبر ومخالفة الهوى وإيثار محابّ الله تعالى ، ولتعطلت عبودية التوبة والاستغفار وعبودية الاستعاذة بالله أن يجيره من عدوه و يعصمه ، فوجودُ إبليس وخلْق إبليس أفضى إلى وجود هذه العبوديات وتنوعها .

فإذا نظرنا مثلاً إلى الإنسان ، فإنه يختار الخير أو الشر ، فإذا اختار الشر فقد استجاب لإبليس وما دعاه إليه ، فإذا فعل الشر تاب وندم واستغفر وأقلع وعزم على أن لا يعود ، وخاف من ربه جل وعلا ، ورجا قبول توبته ، وتوكل عليه وأسلم وجهه إلى الله وأحسن في عمله، فهذه عبوديات متنوعة وغيرها كثير حصل بسبب خلْق إبليس مادة الشر والفساد .

انظر مثلاً إلى مسألة الجهاد، وأُحب هنا أن أُبيّن أمراً في مسألة الجهاد وهو أن بعض الناس ربما فهِم أن الإسلام حريص على سفك الدماء وعلى إزهاق الأرواح البريئة وعلى إتلاف الأنفس ، ويظن أن هذا هو غاية الجهاد ، وهذا هو في الحقيقة افتراء على الله عز وجل ، فالجهاد في الإسلام شُرِع لإعلاء كلمة الله عز وجل ، التي أراد إبليس وجنده أن يجعلوها سفلى ، فأراد الله عز وجل أن تكون كلمته هي العليا وكانت ، فلولا وجود إبليس لما وقع الكفر الذي هو سبب الجهاد ، وفي المحاضرة

الماضية شيئا منها محبوب لله تعالى ، ووجوده من حيث ما يفضي إليه من الشر مكروه لله تعالى وهو ملعون لذاته .

فإبليس يفضي وجوده إلى أمرين :-

أحدهما : محبوب لله عز وجل وهو ما يفضي إليه من الحِكم والمصالح .

والثاني: مكروهٌ وهو ما يفضي إليه من الكفر والضلال والفسق والفجور والعدوان والتفرقة وغيرها مما يدعو إليه إبليس . فإبليس يدعو إلى هذا والله جل وعلا يبغضه من هذا الوجه ، ويحب وجوده من حيث ما يُفضي إليه من الحِكم والمصالح ، وأما إبليس فإنه ملعون، لعنه الله جل وعلا في كتابه وطرده عز وجل من رحمته وأخرجه من جنته .

سؤال يتبادر إلى بعض الناس وهو أنهم لما رأوا أن وجود إبليس يكون محبوباً من وجه وهو ما يُفضي إليه وجوده من المصالح والحِكم ، قالوا : إن الله على كل شيء قدير وهو بكل شيء عليم ، **فهل كان يمكن وجود تلك الحِكم بدون وجود هذه الأسباب ؟** ، يعني : بدون وجود إبليس .

فالجواب أن يقال: هذا سؤالٌ فاسد ، **لماذا يكون سؤالاً فاسداً ؟** لأن فيه فرض الوجود الملزوم بدون لازمٍ .

مثال هذا السؤال: أن يقول القائل هل يمكن وجود الولد دون والد ؟

فنقول: هذا سؤال فاسد، إلا فيمن خلقه الله جل وعلا آية كآدم عليه السلام ، فآدم عليه السلام وجد بغير والد ، فهذا السؤال : هل يمكن وجود تلك الحِكم بدون هذه الأسباب ؟ ، وهو من جنسِ من يسأل ويقول : هل يمكن وجود الحركة بدون متحرك أو وجود التوبة بدون تائب ؟ فهذا سؤالٌ فاسد ، والسؤال الفاسد لا يُجابُ عليه وإنما يُبيّن فساده ، فإن قيل : فإذا كانت هذه الأسباب مرادة لما تُفضي إليه من الحكم، فهل تكونُ مرضيةٍ محبوبةٍ من هذا الوجه أو هي مسخوطةٌ من جميع الوجوه ؟

تنبهوا إلى هذا السؤال وهو: أنهُ إذا كانت هذه الأسباب كوجود إبليس مثلاً مرادة لما تفضي إليه من الحِكم ،كالحِكم التي ذكرناها في وجود خلْق إبليس ، **فهل تكون مرضيةً محبوبة ؟** يعني : الأسباب فهل تكون مرضيةمحبوبة**من هذا الوجه أو هي مسخوطة من جميع الوجوه ؟**

قيل في الجواب : **هذا السؤال يَرِدُ على وجهين :-**

أحدهما : من جهة الربِ تبارك وتعالى ، هل يكون مُحباً لها من جهة إفضائها إلى محبوبه وإن كان يبغضها لذاتها ؟

والثاني : من جهةٍ العبد ، هل يسوغُ له الرضا بها من تلك الجهة أيضًا ؟

فجواب هذا أن يقال : إن الشر كله يرجع إلى العدم ، عدمُ ماذا ؟ عدمُ الخير وعدمُ أسبابه المفضية إليه ، وهو من هذه الجهة شر فهو من جهة العدم شر ، وأما من جهةِ وجوده المحض فلا شر فيه ، **مثال هذا** : النفوسُ الشريرة ووجودها ، فوجودُ النفوسِ الشريرةِ خير من حيثُ هي موجودة ، إذاً من أين جاءها الشر ؟ ، جاءها الشر بسبب قطعِ مادة الخير عنها ، وإلا فالأصل أنها خُلقت متحركة ، وحركة هذه النفوس من حيثُ هي حركة خير ، وإن تحرّكت بطبعها متروكةً لها الزمام تحرّكت إلى خلافه ، **إلى خلاف ماذا ؟** إلى خلاف الخير الذي قُطع عنها ، وإذا أُعينت بالعلم وإلهام الخير تحركت به ، وإنما تكون شراً بالإضافة لا من حيثُ هي حركة ، والشر كله ظُلم ، والظُلم وضْع الشيء في غيرِ محلّهِ ، فلو وُضِع في موضعه لم يكن شرًّا ، فعُلم أن جهة الشر فيه نسبيةٌ إضافية ، ولهذا كانت العقوباتُ الموضوعة في محلّها خير في نفسها وإن كانت شراً بالنسبة إلى المحل الذي حلّت به ، وسيأتي إن شاء الله تعالى مثال يُبيّن هذا في الحلقة القادمة .

الحلقة (٢٠)

سبق في الحلقة الماضية أن ذكرنا أن الشر كلهُ يرجعُ إلى العدم ، وهو عدمُ الخير وعدمُ أسبابه المفضية إليه ، وقلنا بأنه من هذه الجهة شر ، وأما من جهة وجودِهِ المحض فلا شر فيه ، وذكرنا لهذا مثالاً : وهو النفوس الشريرة ، فقلنا : بأن وجودها خيرٌ من حيث هي موجودة ، وإنما حصل لها الشر بقطع مادة الخير عنها ، وذلك لأنها خُلقت في الأصل متحركة ، فإن أُعينت بالعلم وإلهام الخير تحرّكت به ، وإن تُركت تحركت بطبعها إلى خلافه ، وأما حركتها من حيثُ هي حركة فهي خير ، وإنما تكون شراً بالإضافة لا من حيثُ هي حركة ، وقلنا : بأن الشر كله ظلم وأن الظلم وضْع الشيء في غير محله ، لكن إذا وُضع الشيء في محله فإنه يكون خيراً ، وإن كان شراً بالنسبة إلى المحلّ الذي حلَّ به ، وذلك لما أحدث به من الألم الذي كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة ونحوها .

مثال هذا : القِصاص فالله جل وعلا ، يقول : ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ البقرة (١٧٩)، فإذا نظرت إلى القصاص سواء كان القصاص في النفس أو ما دون ذلك وجدته خيراً ، لما يفضي إليه من حياة الناس ومن الطمأنينة ومن الأمن والأمان ومن قيام الدين وإذهاب الخوف، لكنك إذا نظرت إليه من جهة المحل الذي حل به القصاص، كأن يكونَ ضرباً للعنق أو إذهاباً للعين أو جُرحاً في اليد أو البدن ، كما قال تعالى : ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ** ﴾ المائدة (٤٥) ، فإذا نظرتَ إلى هذا وجدته شراً بالنسبة لمن يقعُ عليه هذا القصاص ، فمن يقع عليه ضرب العُنق هو شرٌ بالنسبة إليه ، لكن إذا نظرتَ إلى ضرب العُنق المفضي إلى الخير ، فإن حركة من يقومُ بالقصاص تعدُّ خيرًا لما تُفضي إليه من الخير ، إذا أردنا أن نقتص لإنسان من إنسان بإتلاف عينه جزاء ما أتلف من عين أخيه ، فإن إتلاف عين المقتص منه يُعد بالنسبة إليه شرًا لكنه خير للآخرين ، فالأمر يكون شراً من وجه ويكون خيراً من وجه آخر ، بل انظر إلى من يُراد أن يُقتص منه ، فإنه يكره أن تُضرب عُنقه ويتمنى اليوم الذي لم يعْتَدِ فيه على أخيه ، لكنهُ مع هذا مأمور شرعاً بالرضا بهذا الحكمُ الشرعي الذي أنزله الله جل وعلا في كتابه وبيّنه نبيه ﷺ ، فالأمر قد يكونُ محبوباً من وجه مسخوطاً من وجه آخر ، يكون خير من وجه ويكون شراً من وجه آخر ، فالألم بالنسبة إلى من يقع عليه الأمر يُعدّ شراً وهو خيرٌ بالنسبة إلى الفاعل حيث وضعه في موضعه ، والله جل وعلا لم يخلق شراً محضاً من جميع الوجوه والاعتبارات ، فحكمته عز وجل تأبى ذلك ، فلا يمكن في جناب الحق تبارك وتعالى أن يُريد شيئاً يكونُ فساد من كل وجه لا مصلحة في خلْقه بوجه من الوجوه فهذا من أبْين المُحال ، فإنه سبحانه بيده الخير كله والشر ليس إلى الله عز وجل ، بل كل ما إلى الله تبارك وتعالى فهو خير ، والشر إنما حصل لعدم هذه الإضافة والنسبة إليه ، فلو كان إلى الله جل وعلا لم يكن شرًّا ، وإنما جاءهُ الشر من قطعِ مادة الخير عنه ، ولو كان مضافاً إلى الله عز وجل لم يكن شرًّا وإنما كان خيرًا ، وهذا هو معنى قول النبي ﷺ : " والشر ليس إليك " ، **فالمعتزلة القدرية** ومن وافقهم قالوا : هذا دليلٌ على أن الله عز وجل لا يخلُقُ الشر لأنه قال : " والشر ليس إليك " ، **وأما أهل السنة والجماعة** فيقولون : إن الشر من خلْق الله عز وجل لا يخرج عن كونه خلقاً لله ، لأننا لو أخرجناه عن كونه خلقاً لله عز وجل لكان الخلْقُ خالقين ، والله عز وجل خالق كل شيء .

إذن ما معنى قولهِ : " والشرُ ليس إليك " ؟

معناه أنك لم تخلق شراً محضًا ، وما خلقتهُ من شرور فإن هذه الشرور ليست شروراً محضة وإنما هي خيرٌ من وجهٍ آخر ، فالشر جاءها من عدم إمدادها ومن عدم إضافتها إلى الله عز وجل ، فإن قيل : وهذا سؤال يرد لم تنقطع نسبته إليه خلقاً

ومشيئةً ، يعني :لم تنقطع نسبة الشر إلى الله عز وجل خلقاً ومشيئة ، يعني : أنه هو الذي شاءها وهو الذي خلقها فكونه شاءها وخلقها لم تنقطع نسبتها إليه جعلها لم تنقطع نسبتُها إليه .

فيقال في الجواب : هو من هذه الجهة ليس بشر ، يعني : من جهة نسبتها إلى الله تعالى مشيئة وخلقًا ليست بشر من هذه الجهة، يعني : فالشر من جهة وجوده ليس بشر ، **لماذا ليس بشرٍ ؟** لأنه مضافٌ إلى الله عز وجل مشيئةً وخلْقًا ، **والشر الذي فيه من أين أتاه ؟**من عدم إمداده بالخير وأسبابه ، فهذه الحركة جاءها الشر من عدم إمدادها بالخير وأسبابه كإلهامها بالعلم ، والعدم ليس بشيء فكيف يُنسب إلى من بيده الخير .

بيان هذا ببيان أسباب الخير ، فأسبابه ثلاثة :-

١ / الإيجاد . ٢ / والإعداد . ٣ / والإمداد .

الأول : فإيجاد هذا خير وهو إلى الله عز وجل ، فوجود الشيء من حيثُ وجوده يُعدُّ خيرًا .

الثاني : إعداده بحيث يكون محلاً قابلاً للخير . هذا خير .

الثالث : إمداده بحيث يُمد بالخير كإلهامه العلم النافع .

فإذا عُدم شيء منها حصل الشر ، فإن لم يحصلْ إمداده ولا إعداده حصل فيه الشر بسبب هذا العدم ، الذي ليس إلى الفاعل وإنما إليه ضده ، **ما هو ضده ؟** هو الوجود ، فالشر إذن **من أين جاء ؟**

نقول : الشرُ جاء من العدم لا من الوجود ، فوجود الشيء من حيثُ هو موجود يُعد خيرًا ، ووجود الشر من حيثُ وجوده ومن حيث إيجاد الله جل وعلا له ومن حيثُ خلْقه ومشيئته يُعدُ خيرًا ، فإن أُعد هذا الوجود وأُمد حصل الخير ، وإن لم يُعد ولم يُمد فإنه يكون شرًّا ، والشرُ الذي فيه لا من حيثُ وجوده ولكن من حيثُ عدم الإعداد وعدم الإمداد ، والعدم لا يجوز نسبته إلى الله عز وجل ، وإنما ينسب إليه ضدّهُ ، وضُدّهُ هو الخير .

هنُا سؤالٌ يرد : **إذا كان أوجده ، فلماذا لا يُمده ؟**

فالجواب أن يقال : اقتضت حكمةُ الله جل وعلا إيجاد خلْق وإمدادهم ، ولم تقتضِ الحكمة إمداد بعض ما أوجده الله عز وجل، وإنما اقتضت إيجاده وترك إمداده ، فإيجادهُ خير والشر من عدم إمداده . سيأتي معنا إن شاء الله تعالى سؤال آخر متعلق بهذا .

الحلقة (٢١)

سبق في الحلقة الماضية أن ذكرنا أسباب الخير وقلنا بأن **أسباب الخير ثلاثة :-**

١ / الإيجاد . ٢ / والإعداد . ٣ / والإمداد .

وقلنا بأنه إذا وجد شيئاً ولم يمد فإنه يكون شرًّا من هذه الجهة العدمية وليست الجهة الوجودية ، ولهذا لم نقل بإضافتها إلى الله عز وجل ، وقد أورد بعضهم سؤالاً مر معنا في الحلقة الماضية ، وهو أنه : لماذا إذ أوجد المخلوقات لم يمدها ؟

وكان الجواب عنه أن قلنا : بأنه لم تقتضِ الحكمة إيجاده وإمداده ، وإنما اقتضت إيجاده وترك إمداده ، فإيجاده خير والشر من عدم إمداده ، فهذا جواب ذلك السؤال الذي طرحناه في الحلقة الماضية .

يورد سؤال آخر وهو أنهم يقولون : **لماذا لم يمد الموجودات كلها أليس هو الذي أوجدها ؟ فلماذا لا يمدها كلها حين أوجدها كلها ؟ فالجواب أن يقال**: إن هذا سؤال فاسد، يظن مُورده أن التسوية بين الموجودات أبلغ في الحكمة من التفاوت بينها، وهذا عين الجهل، بل الحكمة إنما هي في التفاوت العظيم بين الأشياء، فكل نوع منها ليس في خلْقه تفاوت، والتفاوت إنما وقع في

أمور عدمية لم يتعلق بها الخلق، يعني: انظر إلى قول الله جل وعلا لما أمر في التأمل في السماوات:

﴿ **مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ** ﴾ الملك (٣) ، ما ترى في خلق الرحمن من اختلاف ولا اضطراب؛ لأنه خلقه وهذا الخلق يضاف إليه جل وعلا ، فما أضيف إليه عز وجل لا تجد فيه تفاوت ولا تجد فيه اختلاف، **إنما من أين يأتي التفاوت بين المخلوقات ، أو من أين يأتي التفاوت بين الأشياء ؟** يأتي التفاوت بين الأشياء من جهة العدم ، فإذا عُدم الشيء جاء التفاوت بين الأشياء وإلا ليس في خلقه تفاوت، فالتفاوت إنما هو في الأمور العدمية أو وقع لأمور عدمية لم يتعلق بها الخلق، وإلا فليس ولله الحمد في خلق الرحمن من تفاوت. فهذا هو الجواب عن هذا السؤال، وهو أن يقال: بأن هذا سؤال فاسد، سبب هذا: أن مُورده لم يفهم ولم يعرف أن الحكمة في وجود التفاوت العظيم، وليست الحكمة في التسوية بين الموجودات ، وظنه هذا هو عين الجهل .

فإن قيل: **كيف يرضى الله عز وجل لعبده شيئاً ولا يُعِينُه عليه ؟ أليس هو رضي لنا الشكر؟ ورضي لنا الإسلام ؟** ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** ﴾ المائدة (٣) ، قال تعالى : ﴿ **إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ** ﴾ الزمر ٧، فهذا رَضِيَه ربنا جل وعلا لنا، لكن من الناس من رضي الله تعالى له هذا ولم يفعله، فتبيّن بهذا أن الله عز وجل لم يعنه، فجاء هذا السؤال وهو: **كيف يرضى الله لعبده شيئًا ولا يعينه عليه؟**

فالجواب أن يقال: إنه لم يعنه عليه لأن إعانته عليه قد تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضيها له .

ما معنى هذا ؟ يعني: أن إعانة الله عز وجل لعبده على هذه الطاعة قد تستلزم فوات محبوب لله عز وجل ، هذا المحبوب هو أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضيها لهذا العبد، وقد يكون وقوع تلك الطاعة من العبد يتضمن مفسدة هي أكره إلى الله عز وجل من محبته لتلك الطاعة ، وهذا يتبيّن بما ذكره الله عز وجل في كتابه في قوله : ﴿ **وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ (٤٧)** ﴾ التوبة ، فالله جل وعلا أخبر عن المنافقين أنه كره انبعاثهم إلى الغزو مع رسول الله ﷺ، والغزو كما لا يخفى طاعة لله عز وجل، فلمّا كرهه منهم ثبطهم عنه، ثم ذكر سبحانه وتعالى بعض المفاسد التي تترتب على خروجهم مع رسول الله ﷺ، قال: ﴿ **لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا** ﴾ ، أي: سعوا بينكم بالفساد والشر، ﴿ **يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ** ﴾، يعني: فيكم قابلون منهم مستجيبون لهم، فيتولد من سعي هؤلاء وقبول هؤلاء من الشر ما هو أعظم من مصلحة خروج المنافقين مع رسول الله ﷺللغزو، والغزو طاعة فاقتضت الحكمة والرحمة أن أقعدهم عنه .

مثال آخر: هو أن بعض الأئمة قد يكون صوته في تلاوة القرآن حسنًا وجميلاً ومؤثرًا في الناس ، ولو قرأ – وقراءته طاعة –لكان خيرًا للمستمعين إليه ، ولكن الله عز وجل يثبّطه عن القراءة ويمنعه من ذلك لأجل مصلحة كبيرة للناس وهي عدم الافتتان به ، فتلاوة القرآن وهذا الصوت الحسن سيؤثر في الناس ، لكن هذا الأمر قد يفضي إلى مفسدة أو يفوت مصلحة كبيرة ، فيفضي إلى افتتان الناس به فيؤدي إلى شر عظيم عند من خلفه وعنده ، فيثبطه الله جل وعلا ولا يعينه ، وقوله جل وعلا : ﴿ **وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**

(٤٧) ﴾ التوبة فانظر إلى علم الله جل وعلا لهؤلاء الظالمين ، لو أنهم خرجوا مع المؤمنين مع وجود من يسمع لهؤلاء المنافقين لوقع شر عظيم ، ولكن حكمة الله جل وعلا ورحمته اقتضت منع هؤلاء المنافقين ؛ لأجل أن لا تحصل هذه المفسدة العظيمة ، فهذه الآية أصل مقيسٌ عليه فإذا تنبهت إلى مراد الله عز وجل من هذه الآية وتبيّن لك ذلك ، عرفت الجواب على السؤال الذي أُورد . ما تقدم من المناقشات متعلق بالوجه الأول من السؤال الذي طرح سابقًا .

فالوجه الأول : هو من جهة الخالق جل وعلا ، والوجه الثاني : من جهة العبد ، فيقال : **هل يمكن أن يكون الشيء الواحد محبوب من جهة وغير مَرضيّ من جهة أخرى ؟** ، فنقول : هذا ممكن وواقع ، فالعبد يسخط الفسوق والمعاصي ويكرهها من حيث هي فعل العبد وواقعة بكسبه وإرادته واختياره ، ويرضى بعلم الله تعالى وكتابته ومشيئته وإرادته وأمره الكوني ، فيرضى بما هو من الله ويسخط ما هو منه . وهذا مسلك طائفة ، وطائفة أخرى كرهتها مطلقًا لكن قولهم يرجع إلى هذا القول ؛ لأن إطلاقهم الكراهة لا يردون به شموله لعلم الرب جل وعلا وكتابته ومشيئته ، وسرُّ المسألة أن الذي إلى الرب منها غير مكروه والذي إلى العبد منها مكروه ، فما كان من الله عز وجل من علم وكتابة ومشيئة وخلْق فهذه لا يجوز كراهتها ولا يجوز سُخْطها ؛ لأن هذا فعل الرب وصفته ، وفعل الرب جل وعلا وصفته لا يجوز كراهيته ولا بغضه ولا سخطه ، وإنما الذي يكره ما كان من فعل العبد ، فالقولان ليس بينها تنافر والله سبحانه وتعالى أعلم .

الحلقة (٢٢)

تناولنا في الحلقة الماضية الجواب عن سؤال بعضهم وهو قولهم : إذا كانت الأسباب الشريرة أو المفضية إلى الشر مرادة إلى ما تفضي إليه من الحكم فهل تكون مرضية ومحبوبة من هذا الوجه أو هي مسخوطة من جميع الوجوه ؟

وذكرنا بأن **الجواب يَرِدُ على وجهين** : أحدهما : من جهة الرب ، والآخر : من جهة العبد ، وانتهى بنا الوقت إلى الوجه الثاني وهو من جهة العبد ، وقلنا : بأن ما يكون من جهة العبد يمكن أن يسخطه من جهة ويرضاه من جهة أخرى ، وقلنا : بأنه يسخط الفسوق والمعاصي ويكرهها من حيث هي فعله ، وواقعةٌ بكسبه وإرادته واختياره ، وأنه يرضي بها من جهة أخرى وهو أنه يرضي بعلم الله تعالى وكتابته ومشيئته وإرادته وأمره الكوني ، ولا يجوز أن يسخطها أو يكرهها لأن فعل الله تبارك وتعالي وصفته تُحبُّ ولا تُكْره وترضى ولا تُسخط ، أما من جهة فعل العبد فإنه يكرهها ويسخطها ، وقلنا : بأن هذا قول طائفة ، وأن هناك طائفة أخرى يرجع حقيقة قولها إلى قول الطائفة المتقدمة فهم يكرهونها مطلقاً ، لكن عند النظر نجد أنهم لا يريدون بالكراهة أن تكون شاملة لعلم الله عز وجل وكتابته ومشيئته وخلْقه . وسرُّ المسألة عند الطائفتين إن الذي من الرب غير مسخوط ولا مكروه ، وأما الذي إلى العبد منها مكروه .

يورد بعض الجبرية سؤال ويقول : **ليس إلى العبد شيء من أفعاله ، لماذا ؟**

لأنهم يقولون : لأن الله عز وجل هو الذي يفعل فعله ويعذبه على فعله فيه ، فنقول : هذا هو الجبر الباطل الذي لا يستطيع صاحبه التخلص من هذا المقام الضيق ، والقدري المنكر أقرب إلى التخلص منه من الجبري .

وأما أهل السنة والجماعة المتوسطون بين القدرية والجبرية ، فهُم أسعد بالتخلص من الفريقين . فإن قيل : **كيف يتأتّى الندم والتوبة مع شهود الحكمة في التقدير وشهود القيّومية والمشيئة النافذة ؟ كيف يتأتّى للعبد العاصي ندمه على ما بَدَر منه وتوبته من ذنوبه مع شهود حكمة الله عز وجل في تقديره ؟ ومع شهوده قيومية الله عز وجل على خلْقه ومع شهوده مشيئة الله النافذة ؟** ، فكأنه يقول : إن شهودي لهذه الأشياء يمنع من أن يتأتّى الندم والتوبة؛ لأن هذه جرت عليَّ وليس لي فيها خِيار ففعلي هو فعل عين الرب – تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا – وهؤلاء هم : أهل الحلول والاتحاد ووحده الوجود .

فيقال : هذا هو الذي أوقع من عميت بصيرته في شهود الأمر على غير ما هو عليه ، فرأى تلك الأفعال طاعات لموافقته فيها المشيئة والقدر ، وقال : إذا عصيتُ أمْره فقد أطعْتُ إرادته ، ولهذا قال قائلهم :

أصبحت منفعلاً لما يختاره *** مني ففعلي كله الطاعات

فهؤلاء يعصون أمْر الله عز وجل الشرعي ليوافقوا بزعمهم أمْره الكوني ، فيقول : أنا أكذب ، أنا أغدر ، وأنا أخون ، وأنا أفعل وأفعل من المعاصي موافقة لأمْر الله الكوني القدري .

فيا سبحان الله ! كيف عرفْتَ إرادة الله الكونية القدرية وهي سرّ ؟ ، سرّ الله في خلقه ، لماذا لم تقل أطيع الله عز وجل وأطيع رسوله ﷺ وأوافق أمر الله الكوني القدري ، وأوافق إرادته الكونية القدرية ، فهذا تناقض ، فأنت لا تعلم بإرادة الله سبحانه الكونية القدرية ، وإنما يَعلم أمره الديني الشرعي ، فأمره الديني الشرعي يعلمه بمقتضى ما جاءت به كتب الله جل وعلا ورسله عليهم الصلاة والسلام ، فهؤلاء عارضوا بين أمر الله الديني الشرعي وبين إرادته الكونية القدرية ، تركوا الأوامر وفعلوا ما نُهُوا عنه لموافقة الإرادة الكونية القدرية .

فهؤلاء أعمى البصائر ، وهم أجهل الخلق بالله عز وجل وبأحكامه الدينية والكونية ، فإن الطاعة هي موافقة الأمر الديني الشرعي وليست موافقة القدر والمشيئة ، وهذا أمر يغلط فيه كثير من الناس ، بل كثير من الأصوليين غلِطوا في هذا ، ففسروا الطاعة بأنها موافقة مراد الله وموافقة مشيئة الله وليس الأمر كذلك ، بل الطاعة موافقة الأمر الديني الشرعي وليست موافقة القدر والمشيئة ، ولو كانت موافقة القدر والمشيئة طاعة ، لكان إبليس من أعظم المطيعين له ، ولكان قوم نوح وهود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب وقوم فرعون كلهم مطيعين لله عز وجل ، وهذا غاية الجهل ، **لماذا لم يذكر الله عز وجل أن هؤلاء أطاعوه ، لأنهم وافقوا إرادته الكونية المقتضية عدم إيمان هؤلاء الأقوام ؟ لماذا يحكم عليهم بالهلاك والعذاب والنار حينما وافقوا إرادته الكونية القدرية ؟** ، فنقول : إن هؤلاء الأقوام وغيرهم عذبهم الله جل وعلا وعاقبهم وأهلكهم بسبب مخالفتهم لأمر الله الديني الشرعي ، لكن إذا شهد العبد عجز نفسه ونفوذ الأقدار فيه وشهد كمال فقره إلى ربه عز وجل وشهد عدم استغنائه عن عصمته وحفظه طرفة عين ، كان بالله في هذا الحال لا بنفسه ، فوقوع الذنب منه لا يتأتّى في هذا الحال ؛ لأن عليه حصنًا حصينًا من الله عز وجل ، يقول الله عز وجل في أمثال هؤلاء : ((فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي)) ، فلا يتصور منه الذنب في هذا الحال ، فإذا حجب عن هذا المشهد وبقي بنفسه استولى عليه حكم النفس ، فإذا استولى عليه حكم النفس نُصِبت عليه الشباك والأشراك وأُرسلت عليه الصيادون ، فإذا انتفى عنه ضباب ذلك الوجود ، فهنالك يحضره الندم والتوبة ، فإن كان في المعصية محجوبًا عن ربه ، فإنه لما فارق ذلك الوجود صار في وجود آخر فبقي بربه لا بنفسه ، فإن قيل : **إذا كان الكفر بقضاء الله وقدره ونحن مأمورون أن نرضى بقضاء الله ، فكيف نُنْكر الكفر وكيف نكره ؟**

الجواب عن هذا :-

أولاً :- نحن غير مأمورين بالرضا في كل ما يقضيه ويقدّره ، فليس كل ما قضاه الله عز وجل وقدّره نكون مأمورين بالرضا به ، فإنه لم يرد في ذلك كتابٌ ولم يرد في ذلك شيءٌ من سنة الرسول ﷺ ، بل إن من المقضي ما يرضى به ومنه ما يسخط ويمقت ، فلا يجوز الرضا به كما لا يرضى به القاضي لأقضيته سبحانه ، بل من القضاء ما يُسخط كما أن من الأعيان المقضية ما يُغضب عليه ويُمقت ويُلعن ويُذم ، فالله جل وعلا في أقضيته ما يَسخطه هو جل وعلا ، وما سخطه الرب جل وعلا من أقضيته فيجب علينا أن نسخطه ، إذن ليس كل ما قضاه الله عز وجل وقدره يكون مرضيًا ، بل منه ما يجب

الرضا به ومنه ما يحرم الرضا به .

الثاني :- نقول : هنا أمران : قضاء الله عز وجل وهو فعل قائم بذات الله تبارك وتعالى ، ومقضيّ وهو المفعول المنفصل عنه .

١ / **قضاء الله جل وعلا الذي هو فعله وصفته .**

٢ / **مقضيّ وهو مفعول منفصل عنه** ، فقضاء الله جل وعلا الذي هو فعله ، فنقول : إنه كله خيرٌ وعدلٌ وحكمة نرضى به كله ، وأما المقضيّ الذي هو المفعول المنفصل فهو قسمان : منه ما يرضى به ، ومنه ما لا يرضى به ، إذن ما كان فعلاً قائماً بذات الله عز وجل وهو القضاء ، فهذا يجب الرضا به ، وما كان من المفعول المنفصل ، فهو منه ما يجب الرضا به ومنه ما لا يجوز الرضا به .

الثالث :- القضاء ، له وجهان : **أحدهما** : تعلقه بالرب تبارك وتعالى فمن هذا الوجه من حيث نسبته لله يرضى به ، ومن حيث تعلقه بالعبد ومن حيث نسبته إليه ، **فمن هذا الوجه ينقسم** :-

١ / **إلى ما يرضى به .** ٢ / **إلى مالا يرضى به .**

مثال ذلك : قتل النفس له اعتباران ، فمن حيث قدّره الله تعالى وقضاه وكتبه وشاءه وجعله أجل للمقتول ونهاية لعمره ، و يرضى به ، ومن حيث كونه صدر من القاتل وباشره وأقدم عليه باختياره وعصى الله تعالى بفعله فإننا نسخطه ولا نرضى به ، فهذا هو جواب سؤال من سأل وهو أنه إذا كان الكفر بقضاء الله وقدره ونحن مأمورون بأن نرضى بقضاء الله ، فكيف ننكره ونكرهه ؟ فالجواب ما تقدم ، فالكفر نكرهه من حيث كونه فعل العبد ولا نرضى به ، ونرضى به من حيث قضاء الله تعالى .

الحلقة (٢٣)

سبق فيما تقدم الكلام عن شيء من مسائل القضاء والقدر ، ونكمِل في هذه الحلقات ما يتعلق بهذا الموضوع المهم الذي هو من أصول الإيمان ، كما دل على ذلك كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

حكم الكلام في مسألة القدر:-

معلوم أن الله جل وعلا ذكر القدر في كتابه وذكر النبي ﷺ القدر في سنته ، فجاء القدر في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ مفصلاً . ففي كتاب الله جل وعلا وفي سنة النبي ﷺ ذكر **القدر ومراتبه** :-

١ / **العلم .** ٢ / **والكتابة .** ٣ / **والمشيئة .** ٤ / **والخلْق .**

إذا كان الأمر كذلك، فهل يتصور أن يقال: **ما حكم الكلام في مسألة القدر ؟**

فنقول: نعم . يتصور هذا ، فإن قيل : **كيف يتصور ؟** قلنا : يتصور لأن النبي ﷺ ثبت عنه أنه قال : (**إذا ذكر القدر فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا**) . إذًا: في هذا الحديث ما يدل على وجوب الإمساك عن الكلام في مسألة القدر ، ومعلوم – كما مضى وكما سيأتي بالتفصيل – أن النصوص لا تتعارض وإنما التعارض يقع في أعين الناظرين .

– في هذا لما جاء الحديث **ذهب طائفة من أهل العلم ممن صححوا هذا الحديث** إلى القول بأنه : **يجب الإمساك** عن الكلام في القدر ومسائله احتجاجاً بهذا الحديث .

– **وذهب طائفة أخرى وهم الجمهور** إلى القول : **بجواز الكلام في مسائل القضاء والقدر** إذا كان الكلام في ما جاءت به النصوص ، **وهذا هو القول الصحيح في هذه المسألة** ، وأجابت هذه الطائفة عن الاستدلال بهذا الحديث : ببيان أن المراد

بالكلام في القدر الكلام الباطل وليس الكلام الحق .

واحتجوا على هذا بأمور منها :-

أولاً :- أن الإيمان بالقدر مما يجب وهو لا يمكن أن يكون إلا بعد العلم به وفهمه كي يتم إيمان العبد ، والعلم به وفهمه لا يأتي إلا بعد الكلام فيه .

ثانياً :- أن النصوص الكثيرة جاء فيها الكلام في القدر ، والله جل وعلا أمرنا بتدبر كلامه (ليتدبرون آياته) ، وتدبر الكتاب والآيات يكون بفهم ما فيها ، ومما فيها الكلام في القدر ، فإذا ذكر الله عز وجل القدر ، فلابد أن نعرف ما هو ؟ ما المراد به ؟ ، إذا ذُكر العلم الذي هو أحد مراتب القدر فلابد أن نعلم هذا العلم ، وأن الله جل وعلا قد أحاط بكل شيء علما ، وأن عنده جل وعلا مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، وإذا ذكر الله تعالى الكتابة فلابد ونحن نتدبر الكتاب أن نعرف ما الكتابة ما الذي يكتب وما الذي لا يكتب ، ما الذي يكتب به ، وما الذي يكتب فيه ، ما منزلة الكتابة من القدر ، معرفة أن الله جل وعلا كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، إذا ذكرت المشيئة فلابد عند التدبر أن نعرف ما المشيئة ، وأن نعلم أن **المشيئة مشيئتان :-**

١ / مشيئة الخالق جل وعلا التي هي صفة من صفاته .

٢ / **ومشيئة المخلوق .** ونعلم أن ما شاء الله جل وعلا كونه سيكون ، وأن المخلوق لا يشاء إلا ما يشاء الله ،كما قال جل وعلا : ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ ، إذا ذكر الله جل وعلا الخلْق ونحن نتدبر كتابه وآياته فلابد أننا سنتعلم ما الخلْق ما المراد به ، وما منزلة الخلْق من القدر ، ونعلم أن الله جل وعلا خالق كل شيء فهو خالق العباد ، وخالق أفعالهم .

إذن لما أمرنا الله وجل وعلا بتدبر كتابه والنظر في النصوص علمنا أن الله جل وعلا أذِن لنا بأن نتكلم في القدر ؛ لأن النصوص الكثيرة جاء فيها ذكر القدر والنصوص التي في القدر أكثر من أن تحصى .

ثالثاً :- في هذا الحديث ، أعني : قوله ﷺ : (**إذا ذكر القدر فأمسكوا**)، دلالة على أن المراد بالإمساك في القدر هو الإمساك عن الكلام بالباطل ، أما الكلام في القدر بالحق فهذا الحديث ليس فيه ما يدل على المنع ، بل فيه ما يدل على جواز الكلام ، ووجه هذا هو أن النبي ﷺ قال : (**وإذا ذُكر أصحابي فأمسكوا**) ، ومن المتقرر شرعاً أن الكلام بالحق وبذكر فضائل الصحابة ومناقبهم جائز بل مستحب: ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ** ﴾

﴿ **وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ** ﴾، فالكلام في الصحابة ﷺ بالحق والخير أمر مطلوب، إذن قول ﷺ : (**و إذا ذكر أصحابي فأمسكوا**)، يراد به مثل ما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : (**لا تسبوا أصحابي**)، فالمراد هنا ذكر الكلام فيهم بالباطل وذكر معايبهم وذكر ما يتوهم من مثالبهم وكذلك التنقص من شأنهم فهذا لا يجوز . أيضاً في هذا الحديث قال النبي ﷺ : (**وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا**) ومعلوم أن الله جل وعلا ذكر النجوم في كتابه مجموعة ومفردة: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ** ﴾، ﴿ **وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ** ﴾ وقال: ﴿ **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى** ﴾ ﴿ **وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ** ﴾ ولابد أن الناس سيتكلمون في هذه النجوم وهي دالة على عظمة الله جل وعلا وعلى عظم خلْقه وقدْرته ، فهذه النجوم يجوز الكلام فيها إذا كان الكلام حقًّا، كمعرفة كونها زينة للسماء ومعرفة كونها يُهتدى بها ومعروف كونها رجوماً للشياطين ، وأما الكلام فيها من حيث الاستسقاء بها واعتقاد انخسافها أو تناثرها أو تساقطها دال على أمر عظيم فهذا لا يجوز ، ثبت عن النبي ﷺ أنه صلى في الحديبية بأصحابه على إثر سماء كانت من الليل فلما صلى الصبح قال: (**أتدرون ماذا قال ربكم ؟**)، قال الصحابة : الله ورسوله أعلم ، قال : (**قال**

أصبح من عبادي كافر بي ومؤمن، فأما من قال : مُطرنا بنوء كذا ، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب ، ومن قال : مُطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب) ، فهذا الذي قال : مُطرنا بنوء كذا جعله الله مؤمنًا بالكوكب كافرًا بالله ، ومن قال : مُطرنا بفضل الله ورحمته جعله الله جل وعلا مؤمنًا به كافرًا بالكوكب ، فالكلام في الكواكب بنحو هذا هو المنهي عنه ، فاستدل أهل العلم أن ما جاء عن النبي ﷺ من قوله : **(وإذا ذكر القدر فأمسكوا)**، المراد به الكلام والخوض في القدر بالباطل .

الحلقة (٢٤)

تحدثنا في الحلقة الماضية عن مسألة : حكم الكلام في القدر ، وذكرنا أن في المسألة قولين :

القول الأول : المنع وهؤلاء استدلوا بقول النبي ﷺ : **(إذا ذكر القدر فامسكوا)** .

القول الثاني : هو قول الجمهور، **وهو القول الصحيح جواز الكلام في القدر بالحق، والمنع منه إذا كان الكلام فيه بالباطل** .

ثم أجبنا عما استدل به أصحاب القول الأول. نتكلم في هذه الحلقة عن مسألةٍ لها ارتباط في موضوع الحلقة الماضية، وهي :

مسألة : التعمق في القدر :-

التعمق مذموم والتنقير عن مسائل لم يرد بها الشرع مذموم ، وكثرة السؤال عنها مذمومة ، والتعمق في القدر ذريعة الخِذلان ، والخِذلان الذي وقعت فيه الفِرَق إنما وقعت نتيجة لتعمقها وتكلّمها فيما لا يجوز لها الكلام فيه ، النبي ﷺ قال : **(عزمت عليكم ألّا تنازعوا في القدر)**. فتعمق هؤلاء فوقع بينهم النزاع في القدر فخالفوا نهي النبي ﷺ؛ ولذا لما تعمقوا في هذه المسائل وجدناهم طوائف :

- **فطائفة** : تنفي علم الله تبارك وتعالى بالأشياء أزلاً وكتابته لها ، وتزعم أن الأمر أُنُف وأن الله تبارك وتعالى لا يعلم أفعال العباد إلا بعد وقوعها منهم .

- ووجدنا **طائفة أخرى** : تنكر مشيئة الله جل وعلا وخلقه لأفعال العباد ، وهذه أَخْرجت شيئاً من مُلك الله جل وعلا عنه

- ووجدنا **طائفة أخرى** : تزعم أن الحجة قائمة على الله جل وعلا ؛ لأنه جبر العباد على أفعالهم ثم عذّبهم عليها .

هذه الخلافات إنما وقعت بسبب هذه المخالفة لهدْي النبي ﷺ ، وهذا من الغلو المذموم ، النبي ﷺ يقول : **(إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو)** ، انظر وفقك الله إلى ما وقع فيه هؤلاء من البدع ، كيف صاروا إليها ، هل صاروا إليها باتباع سنة محمد ﷺ ؟ حاشا وكلا ، إنما وقعوا فيها وصاروا إليها بتركهم العمل بهذه السُّنة ، فحينما غَلَوْا وقع منهم ما وقع وما غَلَتْ طائفة من الطوائف في أمر إلا وجدتها تعطل الحق وتجنح إلى الباطل . خُذْ مثالاً على هذا مما تشاهده هذا اليوم من حوادث منكرة يقوم بها الخوارج المعاصرون وهم الإرهابيون ، غلَوْا في مسألة الحاكمية وغلَوْا في مسائل كبائر الذنوب ، وأصبحوا ينظرون إلى المجتمعات وإلى الشعوب وإلى الناس بنظرة ضيقة استبعدوا فيها رحمة الله عز وجل ، لما أنهم غلَوْا في هذه المسائل ولم يقفوا عند الحد الشرعي ، وقعوا في التناقض فأصبح هؤلاء الخوارج لا يُحكمون شرع الله الذي يزعمون أنهم يطالبون بتحكيمه ، فهم يزعمون أنه ليس هناك من يقيم شرع الله ، وهذا كذب ، فكلنا نعلم أن بلادنا هذه وهي المملكة العربية السعودية بقيادة ولاة أمرنا وفقهم الله وسدد خطاهم يحكمون بشرع الله جل وعلا ، لكن هؤلاء المجرمين الخوارج كذبوا عليهم وكذبوا على الأمم والشعوب وزعموا أن أحكام الله جل وعلا معطلة ، فوقعوا في غلو عظيم دعاهم إلى أن يتركوا التحكيم الذي يطالبون به كذباً وزورًا ، فحكّم الخوارج غير شرع الله عز وجل ، ونتج عن ذلك التكفير الواقع

على كثير من المسلمين من قِبَل هؤلاء الخوارج ، ثم بعد التكفير وقعوا في قتل الأنفس المعصومة من معاهدين ومستأمِنين ومسلمين ، زعماً منهم أن هؤلاء مسلمين ارتدوا على أدبارهم ، فهم لما غلَوْا في هذه المسائل وقعوا في مسائل أشد منها وأعظم ووقعوا في جرائم كبيرة ، وعطلوا حدود الله وعطلوا شريعته وأخافوا المسلمين وروّعوهم كل هذا بسبب الغلو ، أوائل هؤلاء الخوارج يقتلون عبد الله بن خباب بن الأرت ويبقرون بطن امرأته ويفعلون الأفاعيل ، ثم يسألون عما دون ذلك كدم البقة والبعوضة ونحو ذلك ، فانظر إلى هذه التفاوت بينهم في هذه المسائل ، فما من غال من الغلاة إلا ويقع في شرٍّ مما فرّ منه ، إذاً الغلو في بحث المسائل والغلو في التنقير عنها ذريعة إلى الخذلان ، وطالب العلم من أهل السنة والجماعة لا يبحث إلاّ فيما قاله الله تعالى ورسوله ﷺ ، لا أن يشقق المسائل التشقيق المذموم ، ولا أن يضرب كتاب الله تعالى بعضه ببعض ولا أن يضرب كتاب الله تعالى بسنة رسوله ﷺ، إذا فعل ذلك فلن يحصّل علمًا ولن يحصّل إلا الجهل ولن يحصّل إلا التعب، وهذا أقر به أساطين المتكلمين فإنهم أقروا أنهم أذهبوا أعمارهم في البحث عن مسائل لا تجدي شيئاً، فلما بلغ بهم الأمر ما بلغ ونظروا في الكتاب والسنة وجدوا فيهما الشفاء، فالإنسان في مسائل القدر لا يسترسل معها لأنه إذا استرسل في التفكير واسترسل مع الخواطر استحالت في نهاية الأمر إلى اعتقاد وعمل باطل، فإذا جاء الشيطان إلى الإنسان وبدأ يوسوس له في هذه المسائل فليعرض عنها ولْينتهِ إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بهذا يصح اعتقاده .

ولهذا تجد أهل السنة والجماعة قد سلِم لهم اعتقادهم في القدر وسهُل عليهم الإيمان به بخلاف غيرهم ، فهم إذا أرادوا أن يفهموا هذا القدر فهموه بطرق وعرة ومسالك صعبة وفهموه على غير ما أراد الله وغير ما أراده رسوله ﷺ ، فلم تطمئن قلوبهم ولم ترتَحْ ولم يكن لهذا الإيمان بالقدر ثمرات تؤدي أمراً يحتاجه العبد ، إنما إذا آمن بالقدر الذين ضلوا فيه فإن إيمانهم تنازعهم فيه الشياطين وتنازعهم فيه نفوسهم التي لم تطمئن والتي لم يحصل لها من الاستقرار والطمأنينة ما حصل لأهل السنة والجماعة .

يدل على هذا ما وجده بعض السلف في قلوبهم في مسألة القدر ، فهم لما انفردوا بأنفسهم ونظروا في بعض مسائله كان في قلوبهم شيء من القدر ، فلما ذهبوا إلى صحابة النبي ﷺ كعمران بن حصين وأخبرهم بما قاله النبي ﷺ في هذه المسألة زال ما في قلوبهم مما يجدونه .

وهذا والله شيء عظيم يفرح به أهل السنة والجماعة لأنهم يجدون من الراحة والطمأنينة مالا يجده غيرهم ، فأولئك الذين يقولون بأن العباد يخلقون أفعالهم نجدهم في خوف دائم وتجدهم في اضطراب وتجدهم في تنقّص للرب جل وعلا ، ومعلوم أن العبد إذا تنقّص الرب جل وعلا جاءه من الذّل والخوف ما الله به عليم ، ونجد الطائفة الثانية وهم الجبرية تنازعهم أنفسهم دائماً إلى المعاصي وتزين لهم الشياطين أنِ اعملوا هذه المعاصي فأنتم مجبورين عليها لا حيلة لكم ولا قُدرة ، فتجدهم يميلون إلى المعاصي ميلاً شديدًا ويقعون فيها ويرون اللوم على الله جل وعلا – تعالى الله علو كبيرًا – .

– **وأما أهل السنة والجماعة** فتجدهم يجمعون بين الأمرين ، يعتقدون أن الله جل وعلا هو خالق أفعالهم ، وأنهم هم الفاعلون لأفعالهم وإنهم محاسبون مجزيّون ، مجزيّون بالخير خيرًا ومجزيّون بالشر شرًّا ، وربك يخلق ما يشاء ويختار فتجد أنفسهم مطمئنة يجمعون بين الخوف والرجاء وبين المحبة ، وهذا كله نتاج الإيمان بالقضاء والقدر ومن النصوص الشرعية وكذلك لما تركوا التعمق في المسائل الخطيرة .

الحلقة (٢٥)

تحدثنا في الحلقة الماضية عن مسألة التعمق في القدر وبيّنا أن التعمق في هذه المسألة ذريعة الخذلان ، واليوم نتحدث عن قضية مهمة وهي : **قضية الاحتجاج بالقدر .**

تقدم معنا أن **مذهب أهل السنة والجماعة في القدر يتضمن الإيمان بأربع مراتب وهي :-**

١ / العلم .   ٢ / الكتابة .   ٣ / الخلق .   ٤ / المشيئة .

وذكرنا الأدلة على كل مرتبة ، والإيمان بالقدر على طريقة أهل السنة والجماعة لا يمنح العبد حجةً على ما تركه من الواجبات أو فعله من المعاصي والمحرمات ، بل حجة الله جل وعلا قائمة على العبد ، واحتجاج العبد بالقدر باطل ،

وقد بيّن أهل العلم بطلانه من وجوه :-

الوجه الأول : ما دل عليه قوله جل وعلا : ﴿ **سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ** ﴾ الأنعام (١٤٨ :١٤٩) ، فلو كان القدر حجةً لهم ما أذاقهم الله جل وعلا بأسه ، ففي هذه الآية ردٌّ على المحتجين بالقدر ، فالله جل وعلا ذكر هذا الأمر عن المشركين تشنيعًا عليهم : ﴿ **سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ** ﴾ الأنعام ١٤٨ . هذا القول لو لم يريدوا به الاحتجاج بالقدر لكان موافقاً للحق ، ولكنهم قالوا هذه المقولة لأجل أن يحتجوا على الله جل وعلا ولأجل أن يبطلوا دينه وإلا فهذه المقولة صحيحة : ﴿ **لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تشاءون إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ *** ﴾ التكوير (٢٨:٢٩) ، لكنهم جعلوا هذه المقولة حجةً لهم لإبطال الشرائع ولأجل أن يبقَوْا على الكفر وعلى الشرك فكأنهم يقولون : لولا أن الله جل وعلا لم يرضَ بشِرْكنا هذا ، وهو قادرٌ على أن يمنعنا منه لمنعنا، فلمَّا لم يمنعنا من الوقوع في هذا الأمر دل على أنه مرضيٌّ له ، فالله جل وعلا قال : ﴿ **كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا** ﴾ الأنعام ١٤٨ ، مثل هؤلاء مثل من قبلهم فهؤلاء كذَّبوا وأُولئك كذَّبوا ولم يكن القدر حجةً لهم ، قال : ﴿**حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا** ﴾ الأنعام ١٤٨ ، ولو كان حجةً لهم لما أذاقهم الله جل وعلا بأسه لأنه لو كان الأمر كذلك لكان ظلمًا ، ﴿ **وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾ فصلت ٤٦ ، ﴿ **وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً** ﴾ الكهف ٤٩ ، ﴿ **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ** ﴾ الزخرف ٧٦ ، فهم الذين ظلموا أنفسهم بشركهم وهم الذين ظلموا أنفسهم بمعاصيهم وكبائرهم ، قال : ﴿ **قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا** ﴾ الأنعام ١٤٨ ، يعني : ليس عندكم من علم ، فقولهم هذا ليس عليه أثارةٌ من علم ، فليس ثمة دليل لهم على ما يزعمونه من أن الله عز وجل رَضِيَ شركهم ، وعلى ما يزعمونه من الاحتجاج بالقدر لإبطال الشرائع قال : ﴿ **إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ** ﴾ الأنعام ١٤٨ ، يعني : أن قولكم هذا هو من الظن الفاسد الظن السيئ الظن الذي تواطأ معه الهوى ، ﴿ **إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ**﴾الأنعام ١٤٨ ، فكلامكم هذا من باب الخَرْص والتخمين وليس عندكم علْم بما تقولون ، فهذه الآية دلت من وجوه عديدة على بطلان الاحتجاج بالقدر .

الوجه الثاني : يقول الله جل وعلا : ﴿ **رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً** ﴾ النساء ١٦٥ ، لو كان القدر حُجة للمخالفين لم تنتفِ بإرسال الرسل ، لأن المخالفة بعد إرسالهم واقعة بقدر الله تعالى ، فالحجةُ على الله جل وعلا منقطعة بإرساله الرسل ، ولو قلنا بأن القدر حُجة لما كان إرسال الرسل قاطعاً للحُجة ، ولكان هذا تناقضًا ، وكتاب الله جل وعلا منزه عن التناقض ، قال : ﴿ **رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ** ﴾ النساء ١٦٥ ، مبشرين من أطاعهم ومنذرين من عصاهم ، فجاءوا بالبشارة والنَذارة ، وهذه البشارة والنذارة تقتضي أن يكون العبد مكلفًا مأموراً

ومنهيًا ، فإذا فعل ما أُمر به كان مبشرًا ، وإذا ترك ما أمر به أو فعل ما نُهِي عنه كان منذرًا ، فالعبد إذًا مكلف ، ولو كان مجبوراً على فعله وله الحُجة على الله جل وعلا لاقتضى ذلك أن يكون مكلفاً بما لا يستطيع ، وهذا منفيٌ في كتاب الله : ﴿ **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا** ﴾ الطلاق ٧ ، فكل نفسٍ لا تكلف إلا وسعها ، فلو كان العبد مجبورًا لكان تكليفه بالأمر والنهي من باب اللغو والعبث وهذا باطل ، يقول الله جل وعلا : ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ** ﴾ المؤمنون ١١٥ ، ﴿ **أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى** ﴾ القيامة ٣٦ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : أي (لا يؤمر ولا ينهى) ، فالله جل وعلا خَلق العبد وأمره ونهاه وكلّفه ، فدل هذا على أن الحُجة منقطعة وهي انقطعت بإرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام .

الوجه الثالث : ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : (**ما منكم من أحد إلا قد كُتِبَ مقعده من النار أو من الجنة**) ، فقال رجل من القوم : ألا نتكل يا رسول الله ؟ ، قال : " لا ، اعملوا فكل ميسر ، ثم قرأ : ﴿ **فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى**﴾ الليل (٥:١٠) ، وفي لفظ عند مسلم في الصحيح أنه قال ﷺ : (**فكل ميسرٌ لما خلق له**)، فالنبي ﷺ أمر بالعمل ونهى عن الاتكال على القدر ، فلنتأمل هذا الحديث النبي ﷺ قال : (**ما منكم من أحد إلا قد كُتب مقعده من النار أو من الجنة**)، فهذا إخبار من النبي ﷺ أن منازل الناس معروفة من الجنة أو من النار يعلمها الله جل وعلا ، فلما أخبر النبي ﷺ الصحابة وهم الحريصون على الخير ومعرفة الحق قام رجل منهم فقال : يا رسول الله ألا نتكل ؟ ، يعني : نتكل على ما سُطر وكُتب عند الله جل وعلا وندع العمل . وفّق الله جل وعلا هذا الصحابي أن يسأل النبي ﷺ هذا السؤال ليكون شرعًا لنا وحُجةً على من زعم أن له الحُجة على الله جل وعلا ، فقال النبي ﷺ : (**لا**) ، يعني : لا تتكلوا على العمل ، ثم قال : (**اعملوا فكل ميسر**)، فالنبي ﷺ أمرنا بالعمل ونهانا عن الاتكال على ما مضى ، لأن ما مضى لا نعلمه ، لا يعلمه إلا الله جل وعلا ، فكيف نقول بأنّا نتّكل على ما مضى وندع العمل ؟ ، لماذا لا نقول بأنّا نتّكل على ما مضى ونعمل ؟ .

فالله جل وعلا له شأن عظيمٌ في هذه الكتابة ، لكن ليس لنا أن نتكل عليها وندع العمل ، فالنبي ﷺ بيّن لنا بهذا الحديث الجامع بطلان قول هؤلاء المحتجين بالقضاء والقدر .

الوجه الرابع : قدر الله تعالى سرٌ مكتوم ، وهو سر الله جل وعلا في خلقه ، كما روى ذلك عن علي ﷺ ، فإذا كان هذا سر مكتومًا لا نعلمه إلا إذا وقع ،**فكيف نتّكل على الكتاب الماضي وندع العمل ؟ كيف يكون هذا حجةً لنا عند الله عز وجل؟**

فإذا قال قائل : أنا لن أعمل لأن الله جل وعلا علم حالي وكتبها وشاءها على وِفْق هذه المعصية التي وقعت مني أو ستقع وخلق هذه المعصية فأنا لي حجة على الله .

نقول له : لماذا لا تقلب الأمر ؟ تقول : أنا سأعمل العمل الصالح وسأترك العمل السيّء اتكالاً على الله جل وعلا الذي الظن به أنه يوفقني للعمل بمرضاته .

الاحتجاج بالقدر ظن سيء بالله جل وعلا ويأس من رحمة الله وقنوط وهذا منهيٌ عنه ، فهذا الذي يحتج بالقدر أيِسَ من رحمة الله ، وزعم أن أعماله وأفعاله مجبور عليها مظلوم وأنه ليس له حيلة في ذلك ، ولهذا تجده يميل إلى ما تميل إليه الشياطين من اتباع الهوى والظن ، فلا يفرح بطاعة ولا يحزن على معصية ، بل آلَ الأمر بهؤلاء أن تركوا الطاعات وفعلوا المعاصي وزعموا أنهم مجبورون على ذلك وأن لهم الحجة على الله عز وجل .

فالقدر سرٌ مكتومٌ لا نعلم به إلا إذا وقع ، فإذا وقع الأمر المقدور علمنا حينئذٍ أن الله جل وعلا قدّر فعل العبد وَفْق ما

وقع منه.

فإذا هو فعل معصية علمنا أن الله عز وجل قدر عليه هذا الأمر .

الحلقة (٢٦)

سبق الكلام في مسألة الاحتجاج بالقدر ، وذكرنا أن بعض الزائغين زعموا أن القدر حُجة لهم على الله عز وجل ، وبينا أن قولهم هذا باطل ، وذكرنا بعضاً من وجوه الرد على هذه المقولة .

ونذكر اليوم وجوهاً أخرى تتعلق بهذا الأمر ، فنقول :

الوجه الخامس : أننا نرى الواحد من هؤلاء يحرص على ما يلائمه من أمور دنياه حتى يدركه ، ولا نجده يفرط فيه ولا يتركه ولا يَعْدِل عنه إلى ضده ، ثم إذا جاء الأمر التعبدي وجدناه يَجْنَح إلى الاحتجاج بالقدر ويَعْدِل عن العمل فهذا تناقض ، **لماذا يترك ما ينفعه في أمور آخرته ولا يترك ما يراه نافعاً له في أمور دنياه ؟ لماذا لم يقل : إن الله جل وعلا كتب أن لا أتاجر ؟ لماذا لا يقول : إن الله جل وعلا كتب أن لا أسافر ؟ لماذا لا يقول : إن الله جل وعلا كتب أن لا أطلب حقًّا لي من الناس؟**

فهذا تناقض ، والتناقض حال المبطلين ، ونحن نرى الإنسان إذا كان أمامه طريقان أحدهما ينتهي به إلى بلد لا قرار له فيه ، فهو بلد مضطرب فيه فِتَنٌ وحروب واعتداء على الأموال والأبدان والأديان ، وفي هذا الطريق مراحل غير مأمونة ففيه قطَّاع الطريق ولا يعلم الإنسان عن مياهه وهو طريق وَعِر ، وأمامه طريق أخرى موصلة إلى بلد آمن في رغد من العيش ، وهذه الطريق طريق آمنة ، طريق مسلوكة ، طريق معروفة معالمها ، فتجد الإنسان العاقل يسلك هذا الطريق الذي ينتهي به إلى ما يراه مصلحة له ، ولا يمكن لأيّ عاقل أن يتوجّه إلى ذلك الطريق المخُوف وهو يعلم ، طريق النار طريق مخُوف والنار سوداء مظلمة حرُّها شديد وقعرها بعيد عافانا الله وإياكم منها ، والجنة موضع آمن موضع رغد عيش وراحة نفس واطمئنان بال ، هذه الطريق التي يُسلك بها إلى الجنة العاقل يسلكها والفاجر يتركها ، وتوجه إلى ما فيه عَطَبُ نفسه ، أليس هذا في الدنيا يسلك الطريق الذي يراه موصلاً له نافعًا له في دنياه ولا يقول : بأن القدر قد حتَّم عليّ أن أترك الطريق الأخرى ، لماذا يفرط في أمر آخرته ويحتج بالقدر؟ ويقول : أن القدر قد حتّم عليَّ أن أترك الطريق الأخرى وهي طريق النار ، فالطريق في الآخرة المحكوم به على العبد مجهول كما أن الطريق في الدنيا المحكوم به على العبد مجهول .

وأنت ترى الإنسان في هذه الدنيا يكدح ، أحيانًا يكدح ليُحصّل مبلغاً قد تصوره في ذهنه ، ثم يُسهّل له طريق يُحصّل به أضعاف أضعاف هذا المبلغ الذي كان يؤمّله ، وكلا المبلغين مجهولان للعبد لكنه عمِل وكدَح وفعل ما يظن أنه يحصّل به هذا المبلغ أو ذاك ولم يتّكل على القدر ، في حين أنك تجده إذا جاء في مسائل الشريعة ومسائل العبادة احتج بالقدر ، فهذا عين التناقض .

الوجه السادس : أن المحتج بالقدر على ما تركه من الواجبات أو فعله من المعاصي متناقض ، فهو في الدنيا لو اعتدى عليه أحد من الناس فلطمه على وجهه أو أخذ ماله أو جرحه ، فإنك تجده يطالب من فعل به ذلك ، ولا تجده يقول : بأنه فَعل بي هذا الأمر وهو مكتوب عليّ وعليه ، بل تجده يطالب بالقصاص وباسترداد الأموال وغيرها ، فإذا جاء في أمر الشريعة احتج بالقدر ، فهو في أمر دنياه لا يحتج بالقدر إذا اعتُدِيَ عليه ، وفي أمر آخرته يحتج بالقدر وهذا تناقض غريب ، فلماذا لا يجعل الأمرين من باب واحدة ؟ ويقول : بأن الله تعالى قدّر عليّ هذا الأمر وقضاه فلن أطالب بحقي ولن أطالب بالقصاص ولن أطالب بأي شيء ، لأن القدر حتّم هذا الأمر .

يؤثر بأن عمر بن الخطاب ﷺ : (جيء له بسارق قد سرق فأراد أن يقطع يده ، فقال السارق : إنما سرقت بقدر الله ، فقال

عمر بن الخطاب ﷺ : وأنا أقطع بقدر الله) ، فانظر إلى فقه هذا السارق أراد أن يحتج بالقدر واحتج به ، فاحتج عليه عمر ﷺ بأننا سنقطع يدك بقدر الله فقطع عمر ﷺ يده . لو كان هذا الأمر حجة لتعطلت الحدود .

الوجه السابع : أنه لو كان القدر حجة للعباد على الله عز وجل لبطلت الشرائع ولعطلت الحدود ولما كان لإرسال الرسل وإنزال الكتب فائدة ، فهؤلاء الذين احتجوا بالقدر لزموا هذا الأمر ، **أيّ أمر ؟** ، لزموا تعطيل الشرائع والحدود ، فوجدناهم لا يصلون ولا يزكون ولا يحجون ويفعلون المعاصي ، بل ربما فعلوا الموبقات أمام الناس فاحتجاجهم بالقدر فيه إبطال للشرائع وللتكاليف وللعقاب وللجزاء من جنة ونار ، فقولهم هذا يترتب عليه مفاسدٌ عظيمةٌ جداً ، ولهذا وجدنا القدرية خيرًا منهم في هذا الباب ، **كيف ذلك ؟** ، القدرية : يعظّمون أمر الله تعالى ويعظّمون شرعه ، أما هؤلاء الجبرية المحتجين على الله جل وعلا بالقدر الذين جعلوا القدر حجة لهم لا يعظّمون الشرائع ولا يرفعون بها رأسًا . فهم من شر الناس ، وهم موجودون ، أحدهم : كما ذكر أهل العلم كان يحتج عن إبليس ، فيقول : لو كنت مقام إبليس لقلت كذا وكذا ؛ لأن إبليس قال : ﴿ **فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي** ﴾ الأعراف ١٦ ، فالله جل وعلا أغواه وعذبه فيقول : لو كنت مقام إبليس لقلت بأن الحجة قائمة عليك – على الله – تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا ؛ لأنك أنت الذي أغويتني وفعلت بي وعذبتني ، فقولهم هذا في غاية الفساد .

الوجه الثامن : أن قولهم هذا يستلزم سوء الظن بالله عز وجل واتهامه بالظلم ، وهذا الأمر نفاه الله عز وجل عن نفسه بل وتمدح بذلك كما في قوله : ﴿ **وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾ فصلت ٤٦ ، ﴿ **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ** ﴾ الزخرف ٧٦ ، ﴿ **وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً** ﴾ الكهف ٤٩ ، فالله عز وجل تمدّح بتنزُّهه عن الظلم لكمال عدله : ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾ الأنبياء ٤٧ ، فهؤلاء يتّهمون الله عز وجل بأمر قد تنزه عنه . فهذه بعض وجوه الرد على الجبرية وهي كثيرةٌ جدًا ذكرها أهل العلم كشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه الاحتجاج بالقدر .

مسألة : ثمرات الإيمان بالقدر : الإيمان بالقدر له ثمرات عظيمة وفوائد كثيرة فمن أعظم الثمرات :-

الثمرة الأولى : أنه يفيد العبد فائدة جليلة وهي الاعتماد على الله عز وجل والتوكل عليه عند فِعْل الأسباب بحيث لا يعتمد على نفسه ولا يثق منها ولا يثق بها ، بل يفعل السبب وهو يعلم أن الله عز وجل قادر على منع هذا السبب من التأثير بمسببه ، وفعل الأسباب لا ينافي التوكل بل هو من جملة التوكل ، فالسبب لابد له من مسبب إلى أن ترجع الأسباب كلها خلقًا وإيجادًا إلى لله عز وجل والتوكل على الله جل وعلا من الإيمان به : ﴿ **وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ المائدة ٢٣ ، وقال : ﴿ **وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ النحل ٩٩ ، فالتوكل على الله عز وجل عبادة من العبادات ، ولا يدع التوكل إلا ضال والتوكل من جملة الأسباب ، ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ الطلاق ٣ ، فالتوكل من جملة الأسباب .

الحلقة (٢٧)

بدأنا الكلام في ما مضى عن ثمرات وفوائد الإيمان بالقدر ولم نكْمله ، فذكرنا أن من أعظم الفوائد وأجلها الاعتماد على الله جل وعلا عند فعل الأسباب . العبد بطبيعته حارث وهمّام فهو يعمل ويبذل السبب، عمله وبذله للأسباب هي نِتاج أسباب قبلها والأسباب نِتاج أسباب قبلها ، وهكذا إلى أن ترجع هذه الأسباب إلى مُسببها وهو الله جل وعلا الذي خَلَقها . أضرب لك مثالاً يُبيّن لك أنه ما من شيء وما من سبب إلا ويحتف به من الأسباب الشيء الكثير : وجودك أنت من هذين الأبوين، كيف وُجدتَّ من هذين الأبوين ؟ وُجدتّ من هذين الأبوين نتيجة لما يقع بين الرجل وأهله .

تعرّف الأبوان بعضهما على بعض ، كيف حصل هذا ؟ من الذي ذكر أمك لأبيك ؟ وهذا الذي ذكر أمك لأبيك كيف تعرّف على أبيك ؟ هذا الأب وهذه الأم جاءوا من آباء لهم وأمهات، كيف تعرّف بعضهم على بعض ؟ كيف وجِدَت هذه المعارف ؟ كيف وكيف ، أسئلة كثيرة تتسلسل إلى أن ينقطع التسلسل برجوعها إلى الله عز وجل .

التكييف الذي في غرفتك أو في مكتبك ، تجد هذا التكييف لا يعمل بنفسه إنما له أسباب ، فمن أسبابه وجود المادة الذي صنع منها ، كيف وجدت ؟ كيف صنعها الصناع ؟ الآلات التي معهم كيف حصلوا عليها ؟ كيف صنعها من قبلهم ؟ الكهرباء كيف جاءت ؟ وكيف هيأت لهذا المكيف ؟ وكيف استطعت إدخالها ؟ وكيف و كيف أسئلة كثيرة فما من سبب من الأسباب إلا وهو مرتبط بأسباب أخرى ، لولا أن الله عز وجل أوجد هذه الأسباب وهيّأها لما وصلت إلى فعل هذا الأمر الذي تريد فعله ، إذا علمت هذا فوّضت أمورك إلى الله عز وجل ، وعلمت أن الأسباب والأعمال التي تقوم بها إنما هي من توفيق الله عز وجل لك ، فحينئذٍ تفوّض أمورك كلها إلى الله عز وجل ، لأنك تعلم أنك لست مستقلاً بفعل هذا السبب ، وليس السبب أيضًا مستقلاً بإيجاد هذا الأمر الذي عملته حتى التوكل ، يعني : بعض الناس لا يعلم أن التوكل من جملة الأسباب ، فالتوكل من جملة الأسباب ولذلك قال الله جل وعلا : ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ الطلاق ٣ ، فجعل شرط كون الله عز وجل حسْبًا للعبد كافيه أن يكون متوكلاً على الله . فالتوكل سبب فأنت حينما تتوكل على الله جل وعلا وتفوض أمورك لله وتعتمد عليه فإنك حينئذٍ تفعل سببًا من الأسباب ليس إلاّ .

الأسباب مطلوبة وتعطيلها فساد ، والاعتماد عليها شرك ، وأما هي من حيث هي فهي مطلوبة ، لأن الله جل وعلا طلبها بل وجعل للأسباب شرطًا لحصول بعض سننه الكونية ، فأنت لو جئت إلى أرض قاحلة وجلست عندها وقلت : أنتظر أن يخرج لي من هذه الأرض عنباً ورماناً ، يضحك الناس عليك ويقولون : لابد من فعل السبب الذي به تخرج هذه الأشياء فاحرث الأرض واسقها وضع فيها البذر وارعها ثم انتظر بعد ذلك .

ولو قال إنسان : أنا لا أتزوج وأريد ولدًا ، نقول : هذا تعطيل للأسباب تعطيل للسنن الكونية ، فنفي الأسباب ضلال ، فالعبادات التي شرعها الله جل وعلا لنا سبب من أسباب رضا الله عز وجل وسبب من أسباب دخول الجنة ، فإذا عطلنا الأسباب وقلنا لا نعمل بالسبب يكون من قال هذا ضالاً ؛ لأنه بتعطيله الأسباب عطّل الشرائع ، فالشرائع سبب لدخول الجنّات وتعطيلها نقص في العقل فما من أحد إلاّ ويعمل ، والإنسان لابد أن يعمل و يبذل السبب ، لا يمكن أن يقوم أو يقعد أو ينام أو يجلس إلا وقد بذل أسبابًا ، فالله جل وعلا رتب المسببات على أسبابها فوجود المُسبب يكون في وجود المُسبب ، لكن لا يجوز لنا أن نعتمد عليها إنما نعتمد على الله عز وجل في حصولها ، ولذلك قال ﷺ : **(اعقلها وتوكّل)** ، والذين جاءوا إلى عمر بن الخطاب ﷺ ولم ير معهم زادًا قال : (من أنتم ؟ ، قالوا : المتوكلون ، قال : أنتم المتواكلون أو المتآكلون ، قال : أنتم المتواكلون ولستم المتوكلين) ؛ لأن التوكل يقتضي أن تفعل الأسباب .

وما ورد عن بعض العلماء أو بعض العُبَّاد من أنه دعا إلى ترك الأسباب فهذا لا يخلو من حالين :-

الحال الأولى : أن يكون مخطئاً في قوله ، وأنت تعلم أن في العُبَّاد من ليسوا علماء لكن غلا فيهم من غلا ، ونقل أقوالهم واستحسنوا بعض ما هم عليه ، فهؤلاء غلِطوا وظنوا أن فعل الأسباب ينافي التوكل .

الحال الثانية : أن يكون لهم مقصدًا وهو أنهم حينما دعوا إلى ترك الأسباب ، دعَوْا إلى ترك الاعتماد عليها ، وهذا هو المظنون بهم لا إنهم يدعون إلى ترك الأسباب كلية ، لأن ترك الأسباب كلية تنقّص بالشرع ونقْص في العقل ، فالإنسان يفعل الأسباب ويتوكل على الله عز وجل .

الثمرة الثانية من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر : أن العبد لا يُعجب بفعل نفسه ، يقول أهل العلم : إن العُجْبَ شرك بالنفس، فإذا أُعجب الإنسان بعمله فقد أشرك بنفسه .

إذا نظرنا إلى الأعمال التي يعملها الإنسان – الأعمال الصالحة من العبادات بجميع أنواعها – وسألنا أنفسنا: **هل نحن الذين فعلنا هذه الأمور من غير إعانة ؟** لا يمكن أن يجيب أحد بهذه الإجابة إلا القدرية ، وهم ضُلاّل وبينا الرد عليهم ، فالعبد لا يمكن أن يعمل إلا بإعانة الله عز وجل، فأنت حينما تعمل تصلي مثلاً صلاة الضحى، الله جل وعلا هو الذي وفّقك لأداء هذه الصلاة، فكيف تعجب بنفسك ؟!هو توفيق من الله جل وعلا، إذا قبلها منك فقبولها منك منّةٌ من الله عز وجل، فأنت تعلم تقصيرك في العبادة مهما عملت، إذا أدخلك الله عز وجل الجنة بسببها فهي منّةٌ منه جل وعلا؛ ولذا قال الله عز وجل: ﴿ **يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ الحجرات ١٧ ، المنّة لله عز وجل وحده، فهو الذي جعلك قادراً على هذا العمل، وهو الذي وفّقك للعمل به، وهو الذي هداك إليه ، وهو الذي قبل منك ، فكيف تُعجب بنفسك ؟! ، ما الداعي للإعجاب بالنفس مادامت الحال هكذا .

هذا يورثك أمرًا مهماً وأمراً كبيراً وهو الذلة لله عز وجل و الانطراح بين يديه والانكسار لِعِزّه جل وعلا ، يفيدك أمراً آخرَ أيضًا وهو الاستكثار من العبادة ، فإذا كنت لم تقم بهذا مستقلاً وإنما بإعانة الله عز وجل لك وبتوفيقه لك ، فإنك تعلم ضعفك وتعلم حاجتك إلى العبادة وحينئذٍ تستكثر منها .

فالإيمان بالقدر يطرد هذا الإعجاب، ولهذا وجدنا سلف هذه الأمة لا يعجبون بأفعالهم، بل هم كما وصفهم الله عز وجل: ﴿ **يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ** ﴾ المؤمنون٦٠ ، لما قال : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ *** ﴾ المؤمنون (٦١:٥٧) ، رأيت لما أنه لم يعجب بنفسه ﴿ **أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**{٦١} ﴾ المؤمنون ، بل يأتي بالعمل وهو يخشى ألا يقبل منه ، فإذا خشي ألا يقبل منه ازداد بالعمل لأجل أن يسدد ما مضى من نقص .

أما المعجب بعمله فإنك تجده يمن على الله عز وجل ، إذا عمل العمل وعَبَدَ الله عز وجل وأصابه شيء في دنياه كمرض أو موت ولد أو ذهاب مال و نحو ذلك تجده يمن على الله ما الذي فعلته يا ربي حتى تعمل بي كذا وكذا ؟ ألم أكن طائعاً ؟ ألم أكن كذا ؟ ألم أكن كذا ؟ فهو قد أعجب بنفسه .

يحكى أن راهبًا من بني إسرائيل كان في صومعته فأصاب الناس قحط شديد وكان قد بقي في صومعته أربعين عامًا فأصاب الناس قحط شديد فدعا ودعا ودعا ولم يُستجب له ، فلما دعا وأكثر من الدعاء ولم يُستجب له عاد إلى نفسه وقال : إن لي أربعين عامًا وأنا أعبد الله في هذه الصومعة وأنا منقطع عن الناس مترهب فلو أن الله جل وعلا لم يكن عليّ بغضبان لاستجاب لي فأنا عملت أمورًا لم ترضِ الله عز وجل فأرسل الله عز وجل إليه رسولاً ، أن رؤيتك لنفسك واستحقارك لها أعظم من عبادتك أربعين عامًا ، فاحتقار النفس وازدرائها ورؤيتها أنها لم تفعل ما طُلب منها هذا أمر يفيد العبد الفائدة الكبيرة ، ولا يعني هذا القنوط من رحمة الله ولا اليأس من روحه ، لا . ففرقٌ ما بين الأمرين ، أنت تعمل وأنت ترى نفسك مقصرًا وتعمل وأنت تزدري نفسك ، لكنك ترى رحمة الله عز وجل وسَعَة مغفرته أعظم من ذلك كله ، وهذا هو الواقع ، فالإنسان منا يعمل أعمالاً هي موبقة ومهلكة له وربما يعمل الإنسان أعمالاً كثيرة في طاعة الله ، لكن ما الذي تساويه هذه العبادات وهذه الطاعات وهذه القُرُبات عند أقل نعمة أنعم الله بها عز وجل عليك وليست بقليلة ، فنعمة واحدة من

نعم الله عز وجل لا يساويها أيّ عمل عملته ؟ ، فحينئذٍ تحتاج إلى رحمة الله عز وجل وإلى مغفرته وإلى توفيقه ، فإذا فهمت هذا عرفت فائدة الإيمان بالقدر وعرفت عظيم هذه الثمرة .

الثمرة الثالثة من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر : ما يحصل للعبد من الطمأنينة والراحة النفسية ، وذكر هذا الله عز وجل في كتابه في قوله : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** * ﴾ الحديد (٢٢،٢٣) ، فالإنسان إذا آمن بالقضاء والقدر وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه سهلت عليه الأمور ، فإذا أصابته سراء شكر الله عز وجل وإذا أصابته ضراء صبر ، وهذه كلها خير كما ثبت ذلك في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : (**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**) صحيح مسلم ، فأنت إذا أصابتك مصيبة فإنك تحمد الله جل وعلا وتصبر ، وإذا أصابتك نعمة فإنك تُسَرُّ وتشكر فتشكر الله جل وعلا على هذه النعمة ، فتكون دائراً بين الصبر والشكر ، انظر إلى من لا يؤمن بالقضاء والقدر أو من عنده خلل في إيمانه بقضاء الله عز وجل وقدره ، فالحاسد الذي يحسد الناس تجده يتغيّظ دائمًا تجد قلبه يحترق وجسمه يختل وتجد صحته تعتل نتيجة لأنه يرى الناس قد قدّر الله عز وجل لهم ما لم يقدّره له فتجده يحسدهم على ذلك وهذا من الأمور المذمومة ، قال الله عز وجل : ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً** ﴾ النساء ٥٤ ، أما المؤمن فإنك لا تجد عنده هذا الأمر بل يفرح بالخير لإخوانه ولأمته .

الحلقة (٢٨)

نتناول في هذه الحلقة وما يليها بعض الأمور المتعلقة بباب الإيمان بالقضاء والقدر .

وهذه الأمور مهمة ، إذا عرفها طالب العلم فإنه ينفتح له باب عظيم من أبواب الجمع بين النصوص ، وذلك أنه جاء في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ﷺ ألفاظ منقسمة مابين كونية وشرعية ، وهذه الألفاظ لها تعلقٌ بأمر الله وكلماته الكونية وكلماته الدينية الشرعية ، **فمن هذه الألفاظ التي جرى فيها هذا التقسيم :-**

اللفظ الأول : القضاء فالقضاء في كتاب الله تعالى نوعان :-

١ / **كوني قدري** : كما في قول الله جل وعلا : ﴿ **فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ** ﴾ سبأ ١٤ ، فهذا القضاء قضاء كوني فالله جل وعلا قضى على نبيه عليه الصلاة والسلام بهذا الموت ، وكما في قوله جل وعلا : ﴿ **وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ** ﴾ الزمر ٦٩ ، فهذا الذي يقضى يوم القيامة هو قضاء كوني قدري، وليس قضاء دينيًا شرعيًا .

ومثال القضاء الديني الشرعي : قوله : ﴿ **وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً** ﴾ الإسراء ٢٣ ، أي : أمر وشرع ، ولو كان هذا القضاء قضاءً كونيًا لما عُبد غير الله جل وعلا .

فالقضاء الكوني القدري حاصل لا محالة ، شاء العبد أم أبى ، فهو حاصل ولابد إذا قضاه الله تعالى .

٢ / **أما القضاء الديني الشرعي** : فقد يقع وقد لا يقع ، فالعبد قد يفعله وقد لا يفعله ، فالله جل وعلا أمر وشرع للعباد أن لا يعبدوا إلا الله ، لكن كما قال الله جل وعلا : ﴿ **فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ** ﴾ النحل ٣٦ ، فالذين هداهم الله جل وعلا عملوا بهذا الأمر الديني الشرعي ، والذين كتب الله جل وعلا لهم ضد ذلك لن يقع منهم .

إذن ما كان كونيًا من القضاء ومن غيره من الألفاظ التي سنوردها إن شاء الله فهي واقعة لا محالة ، وما كان دينيًا شرعيًا فقد يقع وقد لا يقع ، ولذا لو فسرنا قوله تعالى : ﴿ **وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ** ﴾ الإسراء ٢٣ بالقضاء الكوني القدري ، ثم

وجدنا هؤلاء الذين يعبدون غير الله تعالى لكان فيه تكذيب للخبر ، أو وصفٌ للرب جل وعلا بالعجز تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا لأنه أخبر أنه قضى ، لكن إذا فسرناه بالقضاء الديني الشرعي زال هذا الإشكال ، ما يتعلق بما هو ديني شرعي يكون هو مناط الثواب والعقاب . فالعبد يثاب على فعله إذا كان طاعة ، ويعاقب على معصيته إن كان معصية ، وأما ما كان كونيًا قدريًا فليس مناط ثواب ولا عقاب ، فهذا شيء من الفرق بين الأمرين .

اللفظ الثاني : الحُكم ، هذا اللفظ كسابقه ينقسم إلى :-

١ / **الكوني القدري** ، قوله جل وعلا : ﴿ **قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ** ﴾ الأنبياء ١١٢ ، أي: افعل ما تنصر به عبادك وأولياءك وتخذل به أعداءك، فهذا دعاء بأن يحكم الله بين الفريقين بالحق وذلك بفعل ما ينصر به الأولياء وفعل ما يُخذل به الأعداء.

٢ / **الديني الشرعي** ، كقوله تعالى : ﴿ **ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ الممتحنة ١٠ ، فبعد أن سبقت هذه الآية ما سبقها من بيان الأحكام ، قال جل وعلا : ﴿ **ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ** ﴾ الممتحنة ١٠ ، يعني : ما تقدم .

ومثاله أيضًا قول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ** ﴾ المائدة ١ ، بعد قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ** ﴾ المائدة ١ ، فبعد أن بيّن الله تعالى الأحكام في هذه الآية وهي أحكام دينية شرعية يلزم العباد فعلها قال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ** ﴾ ، فالله جل وعلا يشرع ما يريد وشرعه جل وعلا حكمه ديني شرعي موافق لحكمته تبارك و تعالى .

وقد يأتي اللفظ أحيانًا ويراد به المعنيان : يراد به الحكم الكوني القدري ويراد به الحكم الديني الشرعي ، لقوله جل وعلا : ﴿ **وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً** ﴾ الكهف ٢٦ ، فهذا يتناول حكمه الكوني القدري وحكمه الشرعي .

فحكمه الكوني القدري : لا يشرك الله جل وعلا فيه أحدًا ؛ لأن الإشراك فيه إشراك في الربوبية ، والله جل وعلا هو الرب وحده فهو المتفرد في الحكم ، ولا يشرك في حكمه الديني الشرعي أحدًا ، **فحكمه الديني الشرعي** : لا يُشرك فيه أحد لأن الإشراك فيه إشراك في الإلهية والله عز وجل يقول : ﴿ **وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً** ﴾ الجن ١٨ .

اللفظ الثالث : الإرادة والإرادة تقدم الكلام فيها بمسالة مراتب القدر ، وسبق أن قلنا بأن **الإرادة نوعان** :-

١ / **الإرادة الكونية القدرية** ، كقوله تبارك وتعالى : ﴿ **فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ** ﴾ البروج ١٦ ، وقوله جل وعلا : ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً** ﴾ الإسراء ١٦ ، وكقوله جل وعلا حكاية عن نبيه نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أنه قال لقومه : ﴿ **إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ هود ٣٤ ، وقوله جل وعلا : ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ** ﴾ القصص ٥ ، فإذا نظرنا إلى هذه الآيات وجدناها جميعها كونية قدرية متعلقة بربوبيته جل وعلا ، فالله جل وعلا فعّال لما يريد فإذا أراد الله جل وعلا شيئاً فعله فهو جل وعلا يفعل ما يريد لا يمنعه من ذلك مانع ، وإذا أراد الله جل وعلا إهلاك قرية من القرى فإن ذلك يقع ولا يمتنع عليه ، ولا يقول قائل : بأن هذه إرادة دينية شرعية ، فالعباد لم يؤمروا بالإهلاك إنما الله جل وعلا هو الذي أراد إهلاك هذه القرية .

ونوح عليه السلام يقول لقومه : ﴿ **وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ** ﴾ هود ٣٤ ، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام مهمتهم إبلاغ ما أرسل الله جل وعلا وليست مهمتهم تقليب قلوب الناس ؛ لأن من الناس من يريد الله عز وجل هدايته ومنهم من لا يريد هدايته ولذا قال : ﴿ **وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ** ﴾ هود ٣٤ ، فالله جل وعلا بعد هلاك قوم نوح عليه السلام علمنا أنه أراد أن يغويهم ولن يرد هدايتهم حكمةً

منه جل وعلا، وليست هذه إرادة دينية شرعية فالإرادة الدينية الشرعية خالفها هؤلاء بعد أن جاءت بها الرسل عليهم الصلاة والسلام وقوله جل وعلا عن بني إسرائيل : ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ** ﴾ القصص ٥ ، فالله جل وعلا يريد إرادةً كونية قدرية أن يمن على الذين استضعفوا ، ووقع ما أراده الله عز وجل فمنَّ الله تعالى على الذين استضعفوا ونصرهم وأهلك فرعون وقومه .

٢ / **والإرادة الدينية الشرعية** ، كقوله جل وعلا : ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ البقرة ١٨٥ ، يعني : يريد بكم في الأحكام اليسر ولا يريد بكم العسر فلا يريد أن يشق عليكم ، فالله جل وعلا جعل هذا الدين يسرًا ولم يجعله عسراً فهذه الإرادة إرادة دينية شرعية ومثلها قوله جل وعلا : ﴿ **وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ** ﴾ النساء ٢٧ ، فلو كانت هذه الإرادة كونية لما حصل العسر لأحد منا ولوقعت التوبة من جميع المكلفين .

الحلقة (٢٩)

تقدم معنا ذكر بعض **الألفاظ التي تنقسم إلى** : **كونية قدرية** ، **ودينية شرعية** .

وكان مما قلنا بأن ما كان من الأمور الكونية القدرية فإنها واقعة لا محالة ، وأما ما كان من الأمور الدينية الشرعية فإنها قد تقع وقد لا تقع ، وكان آخر ما وقفنا عنده مسألة الإرادةِ ، وذكرنا أنها تنقسم إلى : إرادةٍ كونية قدرية ، وإرادة دينية شرعية ، وذكرنا مثال كل منهما .

وهنا مسألةٌ يبحثها كثيرٌ من المتكلمين والأصوليين وهي :- **الأمر والإرادة هل هما متلازمان أم لا ؟**

فنقول : **ذهبت القدرية** وهم ضلاّلٌ عن الحق إلى أن الأمر يستلزم الإرادة، **وذهبت الجبرية** إلى أن الأمر لا يستلزم الإرادة، **وأهل السنة والجماعة** لم يطلقوا النفي ولا الإثبات وإنما قالوا : أن الصواب أن الأمر يستلزم الإرادة الدينية ولا يستلزم الإرادة الكونية القدرية ، وبيان هذا هو أن الله جل وعلا لا يأمر إلا بما يريده شرعاً ودينًا ، لكنه جل وعلا قد يأمر بما لا يريده كوناً وقدرًا ، كإيمان من أمره الله عز وجل ولم يوفقه للإيمان ، فالله جل وعلا أراد منه الإيمان ديناً وشرعًا ولم يرد منه الإيمان كوناً وقدرًا ، بهذا التفصيل يزول الإشكال ، فعندنا الآن على سبيل المثال الكافر الذي مات على كفره نقول : إن الله جل وعلا أمره بما يريده ديناً وشرعاً فأمره بالإيمان ودعاه إليه لكنه عز وجل لم يرد إيمانه كوناً وقدرًا ، وإذا وقع منه الكفر ولم يقع منه الإيمان والعقاب والثواب واقعٌ على مخالفته للأمر الديني الشرعي ، وأما الأمر الكوني القدري أو الإرادة الكونية القدرية أو القضاء الكوني ، فالعبد لا يعلمه حتى يقع فإذا وقع على العبد ما وقع علم هو أو علم غيره أن الله عز وجل أراد كوناً وقدراً إضلال هذا العبد ولم يرد كوناً ولا قدرًا هدايته .

<u>**اللفظ الرابع** : **الكتابة ، فالكتابة قسمان** :-</u>

١ / **الكونية القدرية** : هي كقول الله عز وجل : ﴿ **كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي** ﴾ ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** ﴾ الأنبياء ١٠٥ ، وقوله عز وجل : ﴿ **كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ** ﴾ الحج ٤ ، فهذه الكتابة هي بمعنى القدر : ﴿ **كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي** ﴾ ، وهذا واقع لا محالة : ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** ﴾ الأنبياء ١٠٥ .

فالله جل وعلا كتب كتباً كونيةً قدرية ، بمعنى : قدّر أن الأرض يرثها عباد الله الصالحون سواءٌ أقيل أن الأرض أرض الجنة ، أم قيل أن الأرض أرض الدنيا ، فإن كانت أرض الجنة فالأمر في هذا واضح ، وإن كانت أرض الدنيا فقد يقول قائل : إننا نرى أن الكفار يتغلبون في بعض الأحايين على الأرض ، فهل هذا ينافي الكتابة الكونية القدرية التي قلتم بأن ما ينتج

عنها واقع لا محالة .

فنقول : لا . إنه لا تعارض ، وبيان هذا أن الأرض لا يمكن أن يحكمها جميعها الكفار ، وإنما لا بد من حكمٍ للمسلمين عليها، والمسلمون هم المنصورون في كل زمان مهما وقع عليهم ما وقع ، مما قد يقال بأنه هزيمة عسكرية ونحو ذلك ، لأن الحق معهم فهم الوارثون حقيقةً للأرض ، وإن كان أولئك قد يكونون متغلبين عليها ظاهراً ، لكن النصرة والغلبة والإرث الحقيقي للأرض إنما هو للمسلمين ، بهذا تعلم زوال الإشكال الذي قد يتبادر إلى بعض الأذهان حول هذه الآية ومعناها .

٢ / **الكتابةُ الدينية الشرعية** : هي كقوله جل وعلا : ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ** ﴾ البقرة١٨٣ ، وكما في قوله جل وعلا : ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ** ﴾ الآيات...إلى قوله جل وعلا : ﴿ **كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ** ﴾ النساء ، فالمحرمات في الآيات مما كتبه الله جل وعلا ديناً وشرعيًا ، ومثال هذا أيضًا قوله جل وعلا : ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ** ﴾ المائدة ٤٥ ، فهذه الكتابة كتابةٌ دينية شرعية يلزم العمل بها ولا يجوز مخالفتها ، من خالفها وقع في الإثم ومن عمل بها أُجر ، وهذه الكتابة هي بمعنى الأمر ، فالكتابة إذاً كتابتان كتابة كونية قدرية وهذا لا يختلف مقتضاها ، وكتابة دينيةٌ شرعية وهي التي بمعنى الأمر هذه قد يُعمل بها وقد لا يُعمل .

الأولى : لا مناط ثواب ولا عقاب . والثانية : هي مناط الثواب والعقاب .

<u>اللفظ الخامس : **الأمر ، والأمر ينقسم قسمين** :-</u>

١ / **الأمرُ الكوني** ، وهذا لابد أن يقع المأمور به .

٢ / **الأمر الديني الشرعي** ، وهذا قد يقع وقد لا يقع .

فالأمر الكوني كقول جل وعلا : ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾ يس ٨٢ ، لاحظ: جاء بالفاء التعقبية ولم يقل: ثم، إنما جاء بالفاء التعقبية فلا تراخي بين القول وبين مُراد تكوينه، وكقوله جل وعلا: ﴿ **وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ**﴾ القمر٥٠، فلا يختلف المأمور، وقوله جل وعلا: ﴿ **وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً** ﴾ النساء ٤٧،وقوله عز وجل: ﴿**وكان أَمْراً مَّقْضِيّاً** ﴾مريم ٢١، وقوله تبارك وتعالى: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**﴾ الإسراء ١٦، فهذا أمرٌ تقديري كوني وليس أمراً دينياً شرعياً ، **ما وجه هذا ؟**

وجه هذا : أن الله جل وعلا لا يأمر بالفحشاء ، فلو كان الأمر أمراً دينياً شرعياً ، يعني : في قوله عز وجل : ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا** ﴾ لكان هذا أمرًا بالفسق ، فدلّ هذا أن الأمر كوني قدري خلاف لمن قال من الطوائف أنه أمر ديني شرعي .

الحلقة (٣٠)

تقدم في الحلقة الماضية أن الأمر أمرٌ كوني قدري وقلنا بأن مأموره لا يتخلف ، وأمرٌ دينيٌ شرعي قلنا فإن مأموره قد يتخلف وقد لا يتخلف ، وانتهى بنا الكلام إلى قوله جل وعلا : ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً** ﴾ الإسراء ١٦ ، وقلنا بأن قوله جل وعلا : ﴿ **أَمَرْنَا** ﴾ أن المراد به الأمرُ الكونيُ القدري ، وذكرنا أن طائفة قالت : بأنه الأمر الديني الشرعي ، فيكون معنى الآية : نحن أمرناهم بالطاعة فخالفونا وفسقوا لأنه قال : ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا** ﴾ الإسراء ١٦ ، والفسق لا يكن إلا بمخالفة الأمر الديني الشرعي لا

بمخالفة الأمر الكوني القدري .

القول الأول : قالت هذه الطائفة : إن المعنى – أمرناهم بالطاعة فخالفونا وفسقوا – وهذا القول ضعيف .

والقول الثاني : تفسير الأمر بالأمر الكوني القدري ، وهو القول الراجح ، **وذلك لوجوه** :-

الوجه الأول: أن القائلين بأن الأمر في هذه الآية هو الأمر الديني الشرعي صاروا إلى الإضمار ، والإضمار كما يقول أهل اللغة : على خلاف الأصل، وهو لا يصار إليه إلا إذا لم يُمكن تصحيح الكلام بدونه ، فإذا لم يمكن تصحيح الكلام بدون الإضمار صرنا إلى الإضمار ، أما هنا فلا نحتاج إليه لأن المعنى يمكن أن يصار إليه ويعرف من دون إضمار .

الوجه الثاني : أن قول هذه الطائفة يستلزم في الحقيقة إضمارين وليس إضماراً واحداً :-

الإضمار الأول : هو إضمار الجار والمجرور في قوله: (**وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا بطاعتنا**)، يعني: إذا أردنا أن نهلك قريةً أمرناهم هذه الطائفة بطاعتنا، فلاحظ أنه أضمر الجار والمجرور ليتوافق مع أن يكون الأمر دينياً شرعيًا .

الإضمار الثاني : هو (**فخالفونا أو عصونا**) ونحو ذلك .

فصار عندنا إضماران : الإضمار الأول : وهو (**بطاعتنا**)، الإضمار الثاني: إضمار الفعل (**فخالفونا**)، فصار عندنا إضماران على حين أنهم لو فسروا الأمر بالأمر الكوني القدري لم يحتاجوا إلى هذين الإضمارين وهو الأصل في الكلام .

الوجه الثالث : أن ما بعد الفاء في مثل هذا التركيب هو المأمور به نفسه ، كقوله : أمرته ففعل ، وأمرته فقام ، وأمرته فركب ، ففي لغة العرب المخاطب لا يفهم غير هذا ، فإذا قلت : أمرتُهُ فركب ، لا يفهم المخاطب أنك أمرته بشيء مضمر مع مجيء الفاء متصلة بالفعل الذي يليه ، والأصل أن تُجرى النصوص على لغة العرب .

الوجه الرابع : أنه سبحانه وتعالى جعل سبب هلاك تلك القرية أمرَهُ المذكور ، ومن المعلوم أن أمر الله جل وعلا بالطاعة والتوحيد لا يصلح أن يكون سبباً للهلاك بل هو سبب النجاة والفوز ، فالله جل وعلا عند هذه الطائفة أمر بالطاعة فدمّر ، أمر بالتوحيد فدمّر وهذا لا يتناسب ، فإذا قال قائل : أن أمره جل وعلا بالطاعة مع الفسق هو سببٌ للهلاك ، قيل : هذا الأمر لا يختص بالمترفين ، بل هو سبحانه يأمر باتباع رسله و طاعته المترفين وغيرهم ، فلا يصلح تخصيص الأمر بالطاعة بالمترفين، يعني : لماذا خُصت المترفون بهذا دون غيرهم ؟ فلا وجه للتخصيص إلا لوجود معنى ، وعلى هذا القول يبطل هذا المعنى .

الوجه الخامس: أن الأمر لو كان بالطاعة لكان هو نفس إرسال رسله إليهم، ومعلومٌ أنه لا يحسن أن يقال: أرسلنا رسولنا إلى مترفيها ففسقوا فيها، ذلك أن الإرسال لو كان إلى المترفين لقال من عداهم: نحن لم يرسل إلينا، يعني: أنه لو كان الأمر بالطاعة لكان هو نفس إرسال المرسلين ومعلومٌ أن المرسلين لا يرسلون إلى المترفين فقط إنما يرسلون إلى المترفين وغيرهم فلو كان الإرسال إلى المترفين فقط لقال غيرهم أنه لا يلحقنا لوم ولا يلحقنا ذنب ولا يقال بأنهم عصوا الرسل؛ لأن الرسل أصلاً لم ترسل إليهم وإنما أرسل إلى المترفين وهذا يبطل مهمة الرسل عليهم الصلاة السلام .

الوجه السادس: أن إرادة الله سبحانه وتعالى لإهلاك القرية إنما يكون بعد إرسال الرسل إليهم وتكذيبهم، وإلا فقبل ذلك هو لا يريد إهلاكهم لأنهم معذورون بغفلتهم وعدم بلوغ الرسالة إليهم ، كما قال جل وعلا : ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً** ﴾ القصص ٥٩ ، كما في قوله جل وعلا : ﴿ **ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ** ﴾ الأنعام ١٣١ .

فإذا أرسل الله عز وجل الرسل إليهم فكذبوهم أراد إهلاكها، فأمر رؤساءها ومترفيها أمراً كونياً قدريًا لا أمراً دينياً شرعيًا

فيأمرهم أمراً كونياً قدريًا بالفسق بالقرية فاجتمع على أهلها تكذيبهم وفسق رؤسائهم، فحينئذ جاءهم أمر الله وحق عليها قوله بالهلاك، بهذا يتبين قوة القول الأول وضعف القول الثاني، والأمر الديني الشرعي هو كقوله جل وعلا : ﴿ **إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ** ﴾ النحل ٩٠ ، وقوله عز وجل : ﴿ **إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً** ﴾ النساء ٥٨ ، فقوله : ﴿ **إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ** ﴾ ، هذا أمرٌ دينيٌ شرعي فالله جل وعلا أمرنا بالعدل والإحسان وأمرنا بأداء الأمانات إلى أهلها وإذا حكمنا بين الناس أن نحكم بالعدل ، وشرْع الله جل وعلا هو من أمره الديني الشرعي ، فكل ما أمر الله جل وعلا به أو كل ما نهى الله جل وعلا عنه فهو راجع إلى أمره الديني الشرعي ، فالإباحة والاستحباب والوجوب والكراهية والتحريم كل هذه بأمر الله عز وجل الديني الشرعي

اللفظ السادس : الإذن ، فالإذن نوعان :-

١ / **الكوني القدري** : هو كقول الله عز وجل في السحر : ﴿ **وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ** ﴾ البقرة ١٠٢ : أي بمشيئته وقدرته ، فالساحر مهما عمل من السحر فإنه لا يمكن أن يضرّ المسحور إلا بإذن الله الكوني القدري ، ولا يجوز أن يقال : إنه الإذن الديني الشرعي ؛ لأنه لو قال ذلك قائل لقلنا : بأن هذا يقتضي القول بأن السحر حلال والله جل وعلا سمّاه كفرًا : ﴿ **إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ** ﴾ البقرة ١٠٢ .

٢ / **الإذن الديني الشرعي**: فهو كقوله جل وعلا: ﴿ **مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ الحشر ٥ ، أي: بأمر الله عز جل ورضاه ، وكقوله جل وعلا: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ** ﴾ يونس ٥٩، وكقوله عز وجل: ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ** ﴾ الشورى ٢١ فالإذن في هذه الآيات هو إذنٌ دينيٌ شرعي ، يعني: ما قطعتم أيها المجاهدون من لينة فبإذن الله ورضاه فهو الذي أذن لكم شرعاً بأن تقطعوها أو تركتموها قائمة ، فهو الذي جل وعلا أذن لكم بتركها فهو أذن لكم بالأمرين بالقطع أو بالترك، ومثله قوله جل وعلا : ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ** ﴾ يونس ٥٩ ، يعني : هل الله عز وجل شرع لكم ذلك ورضيه لكم ديناً أم أنتم على الله تفترون ؟ ، يعني : بل أنتم مفترون على الله عز وجل ، ومثله قوله جل وعلا : ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ** ﴾ الشورى ٢١ ، يعني : ما لم يشرعه الله جل وعلا فهم شرعوه ابتداعًا ومنازعةً لله عز وجل .

الحلقة (٣١)

تقدم لنا في الحلقات السابقة ذكر بعض الألفاظ المنقسمة إلى : ما هو كوني قدري وإلى ما هو ديني شرعي ، وانتهى بنا الكلام في الحلقة الماضية إلى الكلام في الإذن . وقلنا بأن الإذن هو من هذه الألفاظ :-

١ / إذنٌ كوني قدري . ٢ / إذنٌ دينيٌ شرعي ، وذكرنا الأدلة على كلٍّ منهما .

وفي هذه الحلقة نذكر أيضاً بعض الألفاظ فمنها :-

اللفظ السابع : الجَعْل ، فالجعل ينقسم :-

١ / **الكوني القدري** ، كقوله عز وجل : ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ** ﴾ يس ٨،٩ ، وكقوله جل وعلا : ﴿ **وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ** ﴾ يونس ١٠٠ ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ**

وَحَفَدَةً ﴾ النحل ٧٢ ، فهذا الجعل جعلٌ كوني قدري لا يتخلف المجعول ، فالمجعول كائن وليس هو مناط ثوابٍ أو عقاب ، ولا مناط أمر أو نهي.

٢ / **وأما الجعل الديني الشرعي** ، فهو كقول الله عز وجل : ﴿ **جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ** ﴾ المائدة ٩٧ ، وكقول الله عز وجل : ﴿ **مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ** ﴾ المائدة ١٠٣ .

اللفظ الثامن : الكلمات ، فالكلمات منها :-

١ / **الكوني القدري** ، كقوله تعالى : ﴿ **كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ** ﴾ يونس ٣٣ ، وكقوله جل وعلا : ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ** ﴾ الأعراف ١٣٧ ، وقول النبي ﷺ : **(أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برٌ ولا فاجر من شر ما خلق)** ، فهذه كلماته الكونية ، التي يخلق بها ويكون ولو كانت الكلمات الدينية الشرعية التي يأمر بها وينهى ، لكانت مما يجاوزهن الفجار والكفار فالنبي ﷺ قال : **(التي لا يجاوزهن برٌ ولا فاجر)** ومعلوم أن الكلمات الدينية الشرعية يجاوزهن الفجار فلا يعملون بها .

٢ / **وأما الدينية**، فكقوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْه مَأْمَنَهُ** ﴾ التوبة ٦، والمراد به القرآن ، وكقوله ﷺ في النساء : **(واستحللتم فروجهن بكلمة الله)** أي: بإباحته ودينه ، وهي قوله عز وجل : ﴿**فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء** ﴾ وقد اجتمع النوعان في قوله عز وجل: ﴿ **وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ** ﴾ التحريم ١٢ فكتبه كلماته التي يأمر بها وينهى عنها ويُحل ويحرم ، وكلماته التي يخلق بها ويُكوّن ، فأخبر في هذه الآية عن القسمين عن الكلمات الدينية الشرعية وعن الكلمات الكونية القدرية .

اللفظ التاسع : البَعْث ، فالبعث ينقسم إلى :-

١ / **البعث الكوني القدري** ، هو كقوله عز وجل: ﴿ **فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً** ﴾ الإسراء ٥ ، وكقوله عز وجل : ﴿ **فَبَعَثَ اللّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ** ﴾ المائدة ٣١ ، فالبعث المذكور في هاتين الآيتين هو بعث كوني قدري .

٢ / **البعث الديني الشرعي** ، كقوله عز وجل : ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ** ﴾ الجمعة ٢ ، وكقوله عز جل : ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ** ﴾ البقرة ٢١٣ ، فالبعث هنا بعثٌ ديني شرعي وأما في الآيتان اللتين قبل هاتين الآيتين فهو بعثٌ كوني قدري .

اللفظ العاشر : الإرْسال ، فالإرسال ينقسم :-

١ / **الإرسال الكوني القدري** ، هو كقوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا** ﴾ مريم ٨٣ ، وكقوله : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ** ﴾ الفرقان ٤٨ ، فالإرسال هنا إرسالٌ كوني قدري لا يمكن أن يتخلف المُرسَل .

٢ / **الإرسال الديني الشرعي** ، فكقوله جل وعلا : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ** ﴾ التوبة ٣٣ ، وقوله عز وجل: ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً** ﴾ المزمل ١٥ ، فالإرسال هنا إرسال ديني شرعي .

اللفظ الحادي عشر : التحْريم ، فالتحريم ينقسم :-

١ / **التحريم الكوني القدري** ، كقوله جل وعلا : ﴿ **وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ** ﴾ القصص ١٢ ، فموسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام لِمَا أراد الله له من الخير حرّم عليه المراضع فلم يعُد يقبل من المراضع أحدًا ، وذلك لأن الله جل وعلا أراد

أن يعيده وأن يرجعه إلى أمه فلم يقبل ثديًا، فهذا التحريم على موسى تحريم كوني قدري وليس تحريمًا دينيًّا شرعيًّا، فموسى عليه السلام لم يكن إذ ذاك مخاطباً في الشريعة ؛ لأنه عليه السلام لا يزال في المهد لكن الله عز جل حرم عليه تحريماً كونياً قدرياً أن يقبل ثدي مُرضع. وكقوله عز وجل عن بني إسرائيل قال: ﴿ **قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ** ﴾المائدة ٢٦ ، فكان التيه في الأرض هو من تحريم الله عز وجل على بني إسرائيل أن يدخلوا تلك القرية، ولو أراد بنو إسرائيل دخول تلك القرية لما استطاعوا، ولذلك هم كانوا يريدون أن يدخلونها لكن الله عز وجل لم يدلهم عليها بل جعلهم مدة أربعين عامًا يتيهون في الأرض، وكقوله : ﴿ **وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ** ﴾ الأنبياء ٩٥، يعني: أن الله عز وجل حرم تحريماً كونياً وقدرياً على كل من أهلكهم أنهم لا يرجعون ، وهذا التحريم ليس تحريماً دينياً شرعي وإنما هو تحريم كوني قدري .

٢ / **التحريم الديني الشرعي**، فكقوله عز وجل : ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ** ﴾ النساء ٢٣ ، وكقوله عز وجل : ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ** ﴾ المائدة ٣ ، وكقوله جل وعلا: ﴿ **وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً** ﴾ المائدة ٩٦ ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ **وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا** ﴾ البقرة ٢٧٥ ، فهذا تحريمٌ ديني شرعي فالله جل وعلا حرم علينا المذكورات في آية النساء حرّم علينا نكاحهن، وحرّم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبُع إلا ما ذكيتم ، فهذه الأمور حرّمها الله عز وجل علينا دينًا وشرعًا ، فإذا تعاطاها أحد أو تعاقرها فإنه يأثم بذلك، وهذا التحريم متعلقها كلمات الله عز وجل الدينية الشرعية، وأما الأول وهو التحريم الكوني القدري متعلقها كلمات الله عز وجل الكونية القدرية .

اللفظ الثاني عشر : الإيتاء ، فالإيتاء ينقسم :-

١ / **الإيتاء الكوني القدري** ، كقول الله عز وجل : ﴿ **وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ** ﴾ البقرة ٢٤٧ ، ومثله قوله تبارك وتعالى : ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء** ﴾ آل عمران ٢٦ ، ومثله قوله جل وعلا : ﴿ **وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً** ﴾ النساء ٥٤ ، فهذا الإيتاء هو إيتاء كوني قدري ومتعلقه كلمات الله تعالى الكونية القدرية .

٢ / **الإيتاء الديني الشرعي** ، فهو كقول الله جل وعلا : ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ الحشر ٧ ، وكقول الله جل وعلا : ﴿ **خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ** ﴾ البقرة ٦٣ ، فهذا من الإيتاء الديني الشرعي فالإيتاء الديني الشرعي متعلقه كلمات الله الدينية الشرعية .

وأما قول الله عز وجل: ﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً** ﴾ البقرة ٢٦٩ ، فهذا يتناولُ النوعين، فإنه يؤتيها من يشاء أمراً ودينًا أي : الإيتاء الديني الشرعي ، وتوفيقاً وإلهامًا أي : الإيتاء الكوني القدري .

الحلقة (٣٢)

لا يزال الكلام متصلاً فيما يتعلق بالألفاظ التي تنقسم إلى كونية قدرية وإلى دينية شرعية ، وقد تبين لنا فيما سبق أن معرفة هذا من الأمور المهمة لطالب العلم وبخاصة لمن يبحث في مسائل القضاء والقدر ، فمعرفة هذه الأمور تزيل ما قد يعلق بالذهن من توهّم التعارض بين النصوص الشرعية ، ومعلومٌ أن النصوص الشرعية لا يمكن أن يقع بينها تعارض لأن التعارض دليل الاضطراب والفساد ، والله عز وجل يقول : ﴿ **أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً** ﴾ النساء ٨٢ ، وطالب العلم دائماً ينبغي له أن يحرص على ما يُسهّل له أمر العلم ، ومما يُسهّل له العلم البحث عما يزيل الإشكالات لإن بقاء الإشكالات في الذهن تُعكّر على طالب العلم العلم الذي ينشده ، فتبقى هذه الإشكالات عالقةً

في ذهنه تشغله عما هو أهمّ منها ، ولهذا حرِص العلماء قديماً وحديثاً على تتبع مثل هذه الأمور وعلى دفع هذه التوهّمات .
نعود إلى موضوعنا الذي نحن بصدد بحثه ودراسته ونُكْمل بعض هذه الألفاظ فمنها:

اللفظ الثالث عشر : الوحْي ، فالوحي ينقسم إلى :-

١ / **الكوني القدري** : هو مثل قول الله جل وعلا : ﴿ **وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ النحل (٦٨،٦٩) ، فهذا الوحي هو وحي كوني قدري وليس وحياً دينياً شرعيًا ، لأن النحل لا يخاطب بالشرائع ، وقد فسّر العلماء عليهم رحمة الله هذا الوحي بالإلهام ، يقول الإمام مجاهد بن جبر رحمه الله : (ألهمناها إلهامًا) ، ويقول الحافظ ابن كثير رحمه الله : (المراد بالوحي هنا الإلهام والهداية والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها ومن الشجر ومما يعرشون ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تسديدها ورصّها بحيث لا يكون في بيتها خلل ثم أذِن لها تعالى إذناً قدرياً تسخيريّاً أن تأكل من كل الثمرات وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذللة لها أي مسهّلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة والأودية والجبال الشاهقة ثم تعود كل واحدةً منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل فتبني الشمع من أجنحتها وتقيء العسل من فيها وتبيض الفراخ من دبرها ثم تصبح إلى مراعيها) ، ومن هذا النوع أيضاً أعني الوحي الكوني القدري قول الله عز وجل : ﴿ **فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا** ﴾ فصلت ١٢ ، يقول مجاهد رحمه الله : (ما أمر الله به وأراده) ، ويقول السُدي رحمه الله : (خلَق في كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذي فيها من البحار وجبال البرد وما لا يعلمه إلا الله) ، ويقول قتادة رحمه الله : (خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وصلاحها) ، ومن هذا النوع أيضاً قول الله جل وعلا : ﴿ **إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا** ﴾ الزلزلة ، فقوله عز وجل بأن ربك أوحى لها ، يعني : أوحى إلى الأرض ومعلومٌ أن الأرض لا تخاطب بالخطاب الشرعي فلا تكلف التكاليف الشرعية وإنما تخاطب بالأمر الكوني القدري ، كما قال عز وجل : ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾ يس٨٢ ، فالوحي هنا إذن وحيٌ كونيٌ قدري وليس وحياً دينياً شرعيًا .

٢ / **الشرعي الديني** ، ومنه قول الله عز وجل : ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ** ﴾ آل عمران ٤٤ ، فهذا الغيب الذي أوحاه الله عز وجل لنبيه ﷺ لم يكن ﷺ يعلمه قبل هذا الوحي ، ولم يكن النبي ﷺ لدى أولئك وهم يقترعون فيما بينهم أيهم يكفُل مريم ، فلولا وحيُ الله جل وعلا لنبيه ﷺ بهذه الأنباء من الغيب ما علِمها ، فهذا وحيٌ دينيٌ شرعي يُلزم المخاطبين الذين علموا به أن يصدقوه ، ولا يجوز لأحدٍ كائناً من كان أن يكذب بهذا الغيب الذي أخبره النبي ﷺ ، ومن هذا القسم أعني الوحي الديني الشرعي قول الله عز وجل : ﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورا** ﴾ النساء ١٦٣ ، فهذا الوحي الذي أوحى الله جل وعلا به لنبيه ﷺ هو من جنس الوحي الذي نزل على الأنبياء عليهم السلام من قبله ولذا قال : ﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ** ﴾ ، فهذا الوحي الذي جاء به النبي ﷺوجاء إلى الأنبياء عليهم السلام من قبله هو الوحي الديني الشرعي ، هذا الوحي الديني الشرعي يُلزم المخاطبين به العمل به أمراً ونهيا ، فإذا جاء الخطاب والوحي من الله جل وعلا بالأمر لزم امتثاله والعمل به ، وإذا جاء الخطاب بالنهى لزم اجتنابه وتركه ، كما يلزم هذا الوحي التصديق بالأخبار فإذا جاءنا خبرٌ من عند

الله عمن كان قبلنا أو ما سيكون بعدنا أو ما سيكون لنا فإنه يلزمنا الإيمان به والتصديق ، فهذا الوحي الديني الشرعي هو الوحي المتعلق بأفعال المكلفين ، إذن تبين لنا أن الوحي من الألفاظ التي تنقسم إلى كونية قدرية وإلى دينية شرعية .

اللفظ الرابع عشر : السُنة ، فالسُنة في كتاب الله جل وعلا جاء في بعض مواردها فالسُنة سنتان :-

١ / **السُنة القدرية الكونية** ، هي كقول الله جل وعلا : ﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾ الأحزاب ٦٢ ، وقوله عز وجل : ﴿ **فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾فاطر ٤٣ ، ومنه قوله عز وجل : ﴿ **فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ** ﴾ غافر ٨٥ ، فقوله عز وجل : ﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾ الأحزاب٦٢ ، هذه سنة كونية قدرية فمن فعل مثل ما فعل الأولون فسنة الله جل وعلا فيه أي يفعل به ما فعل بالأولين ولذا قال : ﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾ الأحزاب٦٢ ، وهنا يجب الاعتبار وكذا قوله عز وجل : ﴿ **فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ فاطر ٤٣ ، يعني : فلن تجد لسنه الله تغيرًا ، ولن تجد لسنه الله تبدلاً ، فسنة الله عز وجل في الناس جميعاً واحدة ومنه قوله عز وجل : ﴿ **فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا** ﴾ ، فمن رأى بأس الله عز وجل وآمن لا ينفعه الإيمان فالله جل وعلا حكم بذلك كوناً وقدرًا ، سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون .

الحلقة (٣٣)

سبق تقسيم السنة وأنها جاءت في كتاب الله عز وجل كونية قدرية وجاءت أيضاً دينية شرعية ، وانتهى بنا الكلام في الحلقة الماضية إلى القسم الأول وهو السنة الكونية القدرية ، وذكرنا لهذا القسم أدلة ، وهي قول الله عز وجل : ﴿ **سنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾ الأحزاب ٦٢ ، وكذلك قول الله عز وجل : ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ فاطر٤٣ ، وكذلك قول الله عز وجل : ﴿ **فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ** ﴾ غافر٨٥ .

٢ / **أما السنة الدينية الشرعية** : فهي كقول الله عز وجل : ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ النساء ٢٦ ، فهذه السنن هي بمعنى الشرائع ، وهذه الشرائع شرائع دينيةٌ شرعية ، يقول البغوي رحمه الله تعالى: (سنن شرائع) ، ويقول ابن جرير عليه رحمة الله : (سنن الذين من قبلكم ، يعني : سبل من قبلكم من أهل الإيمان من أهل الإيمان بالله وأنبيائه ، ومناهجهم فيما حرّم عليكم من نكاح الأمهات والبنات والأخوات وسائر ما حرّم عليكم في الآيتين اللتين بيّنَ فيهما ما حرّم من النساء ..) ، فهذه السنن المذكورة في هذه الآية هي سنن دينيةٌ شرعيةٌ ،

فتبين لنا إذن أن السنة سنتان: سنةٌ كونيةٌ قدريةٌ وسنةٌ دينيةٌ شرعيةٌ، المتعلق منها بالثواب والعقاب وبأفعال المكلفين هي السنة الدينية الشرعية ، أما السنن الكونية القدرية فإنها تجري على العباد ليس لهم مقدور على تركها، أما السنن الدينية الشرعية فقد يفعلها الإنسان وقد لا يفعلها، فمثلاً الإسلام هو من السنن الدينية الشرعية، فالإنسان يخاطب بهذا الإسلام، فمن وفّقه الله عز وجل وألهمه دخل فيه، ومن خذله ولم يوفّقه ولم يُعنه لم يدخل فيه ، فهذا فعل وهذا ترك.

سنة الله عز وجل الكونية القدرية التي لا تتغير هو أن من دخل في هذا الإسلام نجا ومن لم يدخل فيه هلك، فمن دخل في هذا الإسلام فقد وافق السنتين السنة الكونية القدرية والسنة الدينية الشرعية. ومن لم يدخل في هذا الإسلام فقد وافق

السنة الكونية القدرية ، ولم يوافق السنة الدينية الشرعية

اللفظ الخامس عشر: الإنْزال، فالإنزال نوعان:-

١ / **الكوني القدري** ، هو كقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ** ﴾ البقرة ٥٩، فالإنزال هنا كوني قدري وليس دينياً شرعياً. ومنه قوله الله عز وجل : ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** ﴾ الأعراف ٢٦ . ومنه قول الله جل وعلا : ﴿ **خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ**﴾ الزمر٦، فقوله : ﴿ **وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ** ﴾ ، هذا إنزال كوني قدري وليس إنزالاً دينياً شرعياً فالإنزال في هذه الآيات إنزال متعلق بالخلْق والإيجاد فقوله : ﴿ **فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ**﴾ البقرة ٥٩ ، يعني : أن اليهود لما أنزل الله عز جل عليهم التوراة وأمرهم ونهاهم على لسان أنبيائه عليهم السلام ، بدلوا وحرفوا القول الذي أنزله الله تعالى ، فأنزل على هؤلاء الذين فعلوا هذا الفعل رجساً من السماء أنزل عليهم عذاباً من السماء . فإن نظرت إلى الإنزال وجدته هنا متعلق بالخلق والإيجاد وكذلك قوله عز وجل : ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً** ﴾ الأعراف ٢٦ ، فالله عز وجل أنزل علينا معشر بني آدم هذا اللباس، فهذا الإنزال لهذا اللباس هو إنزال كوني قدري متعلق بخلق الله عز وجل وإيجاده وكذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ **خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ**﴾الزمر٦، فالإنزال لهذه الثمانية أزواج من الأنعام إنزال متعلق بالخلق والإيجاد فهو إذاً إنزال كونيٌ قدريٌ لأنه كما تقدم معنا في بداية الكلام على هذه الألفاظ أن اللفظ إذا قيل بأنه كوني قدري فمتعلقه الخلق والإيجاد .

٢ / **الإنزال الشرعي الديني** ، وهذا كقول الله تعالى : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ** ﴾ البقرة ١٧٦ ، فهذا الإنزال ديني شرعي وليس كما تقول المعتزلة ومن وافقها : بأنه إنزالٌ كونيٌ قدريٌ لأجل أن يجعلوا القرآن مخلوقاً ، فيجعلون إنزال القرآن كإنزال الثمانية أزواج ، وقد أجمع المسلمون على خلاف هذا القول وبيّنوا أن هذا القول قولٌ مبتدع ، فالقرآن نزل من عند الله عز وجل ولم يُخلق لأن القرآن من كلام الله عز وجل وكلام الله تبارك وتعالى صفةٌ من صفاته وليس شيءٌ من صفات الله عز وجل مخلوقًا - كما سيأتي معكم إن شاء الله تعالى في المستويات القادمة التي فيها مبحث كلام الله عز وجل - ومن هذا القسم الإنزال الديني الشرعي قول الله جل وعلا : ﴿ **الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ التوبة ٩٧ ، فما أنزل الله على رسوله هنا هو إنزال ديني شرعي وليس إنزالاً كونياً قدرياً فهذه الآية كالآية التي قبلها وهو أن الإنزال إنزالٌ دينيٌ شرعي .

اللفظ السادس عشر : الوهْب ، فالوهب في كتاب الله تعالى وهبان :-

١ / **الوهب الكوني القدري** ، هو كقوله تعالى : ﴿ **لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ** ﴾ الشورى (٤٩،٥٠) ، أي : يعطي من يشاء من عباده ذكورًا ويعطي من يشاء من عباده إناثاً ويجمع لمن يشاء بين الذكور والإناث وهذا من هِبته المتعلقة بخلقه وإيجاده ، يقول الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله : (هذه الآية فيها الإخبار عن سعة ملكه تعالى ونفوذ تصرفه في الملك وفي الخلق لما يشاء والتدبير لجميع الأمور حتى إن تدبيره تعالى من عمومه أنه يتناول المخلوق عن الأسباب لولادة الأولاد فالله تعالى هو الذي يعطيهم من الأولاد ما يشاء ، فمن الخلق من يهب له إناثاً ومنهم من يهب له ذكورا ومنهم من يزوجه ، أي : يجمع له ذكوراً وإناثا ومنهم من يجعله عقيماً لا يولد له) ، فهذه الهبة إذاً لما كان متعلَّقها الخلق

والإيجاد كانت هبةً كونيةً قدرية ولم تكن هبةً دينيةً شرعية.

٢ / **الوهب الشرعي الديني** ، كما في قوله تعالى عن موسى ﷺ : ﴿ **فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ الشعراء ٢١ ، يقولهُ لفرعون وآله ، ومنه قول الله عز وجل : ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً * وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً * وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً** ﴾ مريم (٥١:٥٣) ، هذه الهبة لهارون ﷺ هي هبة دينية شرعية ، يقول ابن عباس رضي الله عنهما : (كان هارون أكبر من موسى ولكن إنما وُهب له نبوته) ، فهذه الهبة ليس متعلقها الخلق والإيجاد فهي إذاً هبةٌ أو وهبٌ دينيٌ شرعي .

الحلقة (٣٤)

لا يزال الكلام متصلا في موضوع الألفاظ المنقسمة إلى كونية قدرية متعلقها الخلق والإيجاد وإلى دينية شرعية . وكان من آخر ما تكلمنا عليه وأوضحناه لفظ الوهْب أو الهبة .

اللفظ السابع عشر : الرزْق ، فالرزق في كتاب الله عز وجل رزقان :-

١ / **الرزق الكوني القدري** ، هو كما في قول الله عز وجل : ﴿ **وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ ، وكما في قول الله عز وجل : ﴿ **وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ ، فهذا الرزق يدخل فيه الرزق الحلال والرزق الحرام فكل ما يُتقوّتُ به فهو رزق . فالرزق الحرام كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهل لغير الله به وغير ذلك من المحرمات فهذا يعد رزقًا وإن كان محرمًا ، والرزق الحلال هو ما أحل الله عز وجل كالبر والشعير والماء وغير ذلك .

وقد يكون الرزق الحلال حراماً لوجود سبب من الأسباب ، كأن يكون البُر مغصوباً أو مسروقاً أو غير ذلك ، فالاقتيات بالبُر حلال ولكن التحريم طرأ عليه لهذا العارض ، وهذا الرزق الكوني القدري يدخل فيه المؤمن والكافر بل يدخل فيه كل دابّة تحتاج إلى الرزق ، ولهذا قال الله عز وجل : ﴿ **وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ** ﴾ ، فما من دابّة تدبّ في أرض الله عز وجل إلا وقد تكفل الله عز وجل برزقها فهذا الرزق يشمل الرزق الحلال والرزق الحرام ويشمل رزق الكافر ورزق المؤمن ولهذا قال النبي ﷺ : (**ولن تموت نفس حتى تستكمل رزقها)** ، فكل نفس لا يمكن أن تموت حتى تستكمل رزقها فإذا رأينا نفسا ماتت سواء كانت نفس إنسان مؤمن أو كافر أو نفس بهيمة أو نفس بشريةٍ أو غير ذلك من الدواب فإننا نجزم جزمًا بأنها لم تمت إلا بعد أن استكملت رزقها فالموت لا يكون إلا بعد استكمال الرزق ، لكن رزق كل أحد بحسبه منهم من يوسّع عليه في رزقه ومنهم من ليس كذلك ، لكن الجميع قد استكمل رزقه الذي كتبه الله جل وعلا له .

٢ / **والرزق الديني الشرعي** ، فهو كما في قول الله عز وجل عن شعيب ﷺ : ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾ ، فهذا الرزق فسّره طائفة من أهل العلم بالنبوة والعلم ، ووجه هذا أن الأنبياء ﷺ لا يُمتدحون بكثرة المال بل يُمتدحون بالعلم والهدى من الله عز وجل .

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى : (قيل أراد النبوة ، وقيل أراد الرزق الحلال ويحتمل الأمرين) ، ومنه قوله ﷺ : " إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالاً وعلمًا فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقًّا فهذا بأفضل المنازل ... الحديث " ، وكما في قول علي رضي الله عنه : (والله ما عندنا إلا ما عند الناس إلا أن يرزق الله رجلاً فهمًا في القرآن) ، فالعلم والفهم من الرزق

الشرعي الديني .

اللفظ الثامن عشر : الحياة ، فالحياة في كتاب الله عز وجل حياتان :-

١ / **الحياة الكونية القدرية** ، فهي كما في قول الله جل وعلا : ﴿ **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ ، فهذه الحياة حياة كونية قدرية ، ومثلها قول الله جل وعلا : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ ، فالحياة في هذه الآيات متعلقة بخلْق الله عز وجل وإيجاده وكل ما كان متعلقًا بخلْقه وإيجاده كما سبق فهو من الكوني القدري وليس من الديني الشرعي

٢ / **الحياة الدينية الشرعية** ، فهي كقول الله عز وجل : ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾ ، فهذه الحياة حياة دينية شرعية ، يقول الحافظ ابن كثير رحمة الله : (هذا مثلاً ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتًا أي في الضلالة هالكا حائرا فأحياه الله ، أي : أحيا قلبه بالإيمان وهداه ووفقه لاتباع رسله) ، فهذه الحياة حياة دينية شرعية ، ومثل هذا قول الله عز وجل : ﴿ **يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾ ، يقول السدي رحمه الله : (فهو الإسلام أحياهم بعد موتهم - بعد كفرهم -) ، وقال مجاهد : (الحق) ، وقال قتادة : (القرآن) ، وهي ألفاظ متقاربة فالحياة هنا حياة دينية شرعية وليست حياة كونية قدرية .

اللفظ التاسع عشر : الإخْراج ، فالإخراج في كتاب الله عز وجل إخراجان :-

١ / **الإخراج الكوني القدري** ، الذي متعلقه الخلْق والإيجاد هو كقول الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ** ﴾ ، وكقول الله عز وجل : ﴿ **وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً** ﴾ ، فالإخراج هنا إخراج خلق وإيجاد .

٢ / **الإخراج الديني الشرعي** ، فهو كما في قول الله عز وجل : ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ** ﴾ ، يقول ابن جرير رحمه الله تعالى : (يخرجهم من الظلمات ، يعني : بذلك يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان) ، ويقول ابن كثير رحمه الله تعالى : (يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشرك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير ، وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان يُزيّن لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى طريق الكفر والإفك ، فهذا الإخراج إخراج ديني شرعي وليس إخراجًا كونيًا قدريًا .

اللفظ العشرون : الدعاء ، فالدعاء من حيث التقسيم إلى نوعان :-

١ / **دعاء متعلقه الخلْق والإيجاد وهو الدعاء الكوني القدري** ، وهذا كما في قول الله عز وجل : ﴿ **إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ** ﴾، وكما في قول الله عز وجل: ﴿ **يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾

٢ / **وأما الدعاء الديني الشرعي**، فهو كما في قول الله عز وجل : ﴿ **وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ ، فالله جل وعلا يدعو إلى جنته بما أنزل من الكتب وبما أرسل من الرسل وبما بيّنه من الطرق الموصلة إليه سبحانه وتعالى وهذا دعاء ديني شرعي ، إذ لو كان دعاء كونيًا قدريًا ما تخلّف أحد عن سلوك الصراط المستقيم . يقول البغوي رحمه الله: (والله يدعو إلى دار السلام ، يقول : سميت الجنة دار السلام لأن من دخلها مُسَلَّمٌ من الآفات) ، وقيل المراد بالسلام : التحية ، سميت الجنة دار السلام لأن أهلها يحي بعضهم بعضًا بالسلام والملائكة تسلم عليهم

، ومثل هذا قول الله جل وعلا : ﴿ **قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ .

الحلقة (٣٥)

لا يزال كلامنا متصلاً بالألفاظ التي تنقسم إلى كونية قدرية ودينية شرعية . ومن هذه الألفاظ :-

اللفظ الحادي والعشرون : الإلهَام ، فالإلهام في كتاب الله جل وعلا نوعان :-

١ / إلهام كوني قدري . ٢ / إلهام ديني شرعي .

وقد اجتمع النوعان في قول الله عز وجل : ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا {٧} فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا {٨}** ﴾ ، يقول ابن زيد رحمه الله تعالى : (جعل فيها ذلك) ، ويقول البغوي رحمه الله : (يعني : بتوفيقه إياها للتقوى) ، وهذا يُبيّن أنّ الله عز وجل خلق في المؤمن التقوى وفي الكافر الفجور وهذا هو التفسير الصحيح للآية ، يؤيده ما ثبت عن أبي الأسود الدؤلي قال " : قال لي : عمران بن الحصين أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قُضيَ عليهم ومضى عليهم من قدر ما سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت : بل شيء قُضيَ عليهم ومضى عليهم ، قال : فقال : أفلا يكون ظلمًا ؟ قال : ففزعت من ذلك فزعًا شديدًا ، وقلت : كل شيء خلْق الله وملك يده فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون . فقال لي : يرحمك الله إني لم أُرِدْ بما سألتك إلا لأحْرِز عقلك ، إن رجلين من مُزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا : يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم ؟ ، فقال : (**لا بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل** ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا {٧} فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا {٨}** ﴾ .

فالإلهام إلهام كوني قدري متعلقه الخلْق والإيجاد وإلهام ديني شرعي ، فالإلهام الكوني القدري هو ما خلَقه الله عز وجل في العبد والإلهام الديني الشرعي هو ما خوطب به العبد مما هو مناط ثوابه وعقابه ، فمن اهتدى واستجاب عُلم أنه وافق الإلهامين : الإلهام الديني الشرعي والإلهام الكوني القدري ، ومن لم يستجب فإنه لم يوافق إلا الإلهام الكوني القدري ولم يوافق الإلهام الديني الشرعي .

اللفظ الثاني والعشرون : الآية ، فالآية في كتاب الله عز وجل من حيث هذا التقسيم آيتان :-

١ / **الآية الكونية القدرية** ، كما في قوله تبارك تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً** ﴾ ، وكما في قول الله جل وعلا : ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً** ﴾ ، فقوله عز وجل : ﴿ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ** ﴾ ، فهما آيتان كونيتان قدريتان وهما آيتان مخلوقتان ، ومثل ذلك آية الخسوف والكسوف والشمس والقمر ، وهكذا قول الله جل وعلا : ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً** ﴾ ، فهذا المذكور وهو قوله : ﴿ **أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ** ﴾ ، هو طلوع الشمس من مغربها وهي آية كونية قدرية ، ومثلها غيرها من الآيات مما هو من أشراط الساعة كالدجال والدخان و الخسوفات الثلاث التي هي خسف في المشرق وخسف في المغرب وخسف في جزيرة العرب والدابة وغيرها ، فهذه كلها آيات كونية قدرية وليست آيات دينية شرعية .

٢ / **الآية الدينية الشرعية** ، كما في قول الله عز وجل : ﴿ **مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا** ﴾ ، وكما في قول

الله عز وجل : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق** ﴾ ، فهذه الآيات هي الآيات المنزلة فقولة : ﴿ **مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ** ﴾ ، يعني : أنزلناها من قبل وهي آية نسخت أو لم تنسخ : ﴿ **مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا** ﴾ ، فهذه الآية آية من آيات القرآن ، وكذلك قول الله عز وجل : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق** ﴾ ، فهذه الآيات هي آيات القرآن وآيات القرآن آيات دينية شرعية وليست آيات كونية قدرية .

وإنما يقول أنها آيات كونية قدرية من يقول أن القرآن مخلوق ، هذا قول باطل ترده النصوص من كتاب الله تعالى ومن سنة رسوله ﷺ و بإجماع المسلمين فليس القرآن مخلوقًا وليست هذه الآيات مخلوقة .

اللفظ الثالث والعشرون : التزْيين ، فالتزيين في كتاب الله عز وجل نوعان :-

١ / **التزيين الكوني القدري** ، كما في قول الله جل وعلا : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ** ﴾ ، يقول العلامة ابن جرير رحمه الله تعالى : (يقول تعالى ذكره : إن الذين لا يصدّقون بالدار الآخرة وقيام الساعة وبالمعاد إلى الله بعد الممات والثواب والعقاب زيّنا لهم أعمالهم) ، يقول : حببنا إليهم قبيح أعمالهم وسهّلنا ذلك عليهم فهم يعمهون ، فهم في ضلال أعمالهم القبيحة التي زيّنّاها لهم يترددون حيارى يحسبون أنهم يحسنون ، فهذا التزيين تزيين كوني قدري لأن الله عز وجل لا يرضى لعباده الكفر ولو كان هذا تزييناً دينيًا شرعيًا لكان من الرضا بالكفر والله عز وجل قال : ﴿ **ولا يرضى لعباده الكفر** ﴾ ، ولهذا فإن هذا التزيين لا يتخلّف عنه الكفار ، فمن كفر فقد زين له سوء عمله فرآه حسنا .

ومثل هذا قول الله عز وجل : ﴿ **وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** ﴾ ، يقول ابن كثير رحمه الله تعالى : (أي : كما زينا لهؤلاء القوم حب أصنامهم والمحاماة والانتصار ، كذلك زينا لكل أمة ، أي : من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذي كانوا فيه ، ولله الحجة البالغة والحكمة التامة فيما يشاءه ويختاره) ، فقوله جل وعلا : ﴿ **وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾ ، هؤلاء الذين يعبدون الأصنام نهينا عن سبِّهم أو عن سبُّ آلهتهم على اختلاف بين المفسرين لئلا يسبوا ديننا ولئلا يسبوا ربنا جل وعلا ، فقال : ﴿ **وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ** ﴾ : فيحتمل أن يكون ولا تسبوا الداعين ، ويحتمل أن يكون المراد ولا تسبوا المدعوّين من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ، فيكون سبكم سببا في سب الله عز وجل ، فمنع الله جل وعلا المسلمين من ذلك ، قال : ﴿ **كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ** ﴾ ، فهذا التزيين إنما هو من التزيين الكوني القدري ، وليس هو من التزيين الديني الشرعي .

٢ / **وأما التزيين الديني الشرعي** ، فهو كقول الله عز وجل : ﴿ **ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم** ﴾ ، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى : (فتحبيبه سبحانه الإيمان إلى عباده المؤمنين هو إلقاء محبته في قلوبهم وهذا لا يقدر عليه سواه ، وأما تحبيب العبد الشيء إلى غيره فإنما هو بتزيينه وذكر أوصافه وما يدعوا إلى محبته ، فأخبر سبحانه أنه جعل في قلوب عباده المؤمنين الأمرين : حبه وحُسْن الداعي إلى حبه ، وألقى في قلوبهم كراهية ضده من الكفر والفسوق والعصيان ، وأن ذلك محض فضله و منته عليهم حيث لم يكلهم إلى أنفسهم بل تولى هو سبحانه هذا التحبيب والتزيين وتكريه ضده ، فجاد عليهم به بفضلاً منه ونعمة والله عليم بمواقع فضله وبمن يصلح له وبمن لا يصلح ، حكيم بجعله في مواضعه) ، ويقول ابن القيم رحمه الله في موضع آخر : (يقول سبحانه لم تكن محبتكم للإيمان وإرادتكم له وتزيينه في قلوبكم منكم ، ولكن الله هو الذي جعله في قلوبكم كذلك ، فأثرتموه ورضيتموه) ، فإيثاركم له ورضاكم به ، يعني : هذا من التزيين الديني الشرعي فالله جل وعلا زين في قلوب عباده المؤمنين الإيمان والطاعة كرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان

، فنشأ من هذا التزيين فعلهم ورضاهم به وإيثارهم له ففعلهم للإيمان ورضاهم به وإيثارهم له ، وكذلك نشأ من هذا التزيين من الله جل وعلا أن العباد صاروا يكرهون الكفر والفسوق والعصيان . إذًا المؤمن اجتمع فيه الأمران : اجتمع فيه أن الله عز وجل زين الإيمان في قلبه ، بمعنى : أنه ألهمه ووفقه بحيث قبله وزين الإيمان له بحيث أنه دعاه إليه ولطف به وجعل لهذا الإيمان ما يدعو إلى محبته وقبوله وإلى الرضا به ، مما جعل العبد يؤثر هذا الإيمان على الكفر ويكره الكفر والفسوق والعصيان ، فالعبد فاعل ومفعول به فهو فاعل من حيث أنه رضي هذا الإيمان ، ومفعول به من حيث أن الله عز وجل حببه إليه إلهامًا وتوفيقًا.

الحلقة (٣٦)

لا يزال كلامنا متصلاً للألفاظ المنقسمة : ١ / **كونية قدرية متعلقها الخلق والإيجاد .** ٢ / **وألفاظ دينية شرعية .**

وكان من آخر الألفاظ التي تناولناها بالشرح لفظ التزيين، ونُكمل في هذه الحلقة ما يتعلق بهذه الألفاظ فمن هذه الألفاظ:-

اللفظ الرابع والعشرون : الهُدى ، فالهدى في كتاب الله عز وجل نوعان :-

١ / **هدى كوني قدري** ، وهذا كما في قول الله تعالى : ﴿ **قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى** ﴾ ، هذا الهدى هدىً كوني قدري وليس هدى ديني شرعي ، إذ لو كان الهدى هدى ديني شرعي لتخلّف عنه من تخلف لكنّ الهدى في هذه الآية لم يتخلّف عنه أحد . يقول العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : (والمعنى : أعطاه من الخلْق والتصوير ما يَصلُح به لما خُلق له ، ثم هداه لما خلق له وهداه لما يُصلحه في معيشته ومطعمه ومشربه ومنكحه وتقلّبه وتصرّفه) ، هذا هو القول الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين فيكون نظير قوله : ﴿ **قَدَّرَ فَهَدَى** ﴾ ، فالهداية المذكورة في هاتين الآيتين هما هداية كونية قدرية وليست هداية دينية شرعية .

٢ / **الهداية الدينية الشرعية أو الهدى الشرعي الديني** ، هو كقول الله عز وجل : ﴿ **أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ ، وكما في قول الله عز وجل : ﴿ **بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ ، وكقول الله عز وجل : ﴿**أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ ، فقوله جل وعلا : ﴿ **أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ ، هداهم ، أي : هدى الأنبياء عليهم السلام ، أي : فبهدى الأنبياء فاقتدِ واتّبع واسْلك سبيلهم ، فالأنبياء عليهم السلام على دين واحد وعلى طريقة واحدة فيما يدعون إليه ، وهو الدعوة إلى عبادة الله عز وجل وإن اختلفت الشرائع فالدين واحد لا خلاف بين أوّلهم وآخرهم فدينهم الإسلام ، ولهذا قال الله : ﴿ **أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ ، فالهدى هنا هدى ديني شرعي ولو كان الهدى هدى كوني قدري لما تخلّف عنه أحد ؛ لأن الله عز وجل يقول : ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾ ، فالهدى الكوني القدري متعلقه كغيره الخلْق والإيجاد ، فلو كان المذكور هنا هدى كوني قدري لكان كل أحد أخذ به .

اللفظ الخامس والعشرون : التعْليم ، فالتعليم في كتاب الله عز وجل نوعان :-

١ / **التعليم الكوني القدري**، كما في قوله جل وعلا: ﴿ **تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللّهُ**﴾، وكما في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **خَلَقَ الْإِنسَانَ {٣} عَلَّمَهُ الْبَيَانَ {٤}** ﴾، فقوله عز وجل: ﴿ **تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللّهُ**﴾ ، يعني: تعلّمون الجوارح التي تصطادون بها ، فهذه الجارحة التي يُصطاد بها من كلاب الصيد أو الطير فإنها لابد لها من التعليم ، فهي تُعَلَّم وهذا المعلِّم علّمه الله عز وجل ، ولهذا قال : ﴿ **تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللّهُ** ﴾ ، فهذا التعليم الذي حصل لمن يقتني كلاب الصيد أو

الجوارح و يعلّمه الكلاب هو من التعليم الذي علّمه الله إياه ، وهذا كما قال الله عز وجل : ﴿ **وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا** ﴾ ، فهذا التعليم من الله عز وجل وهذا التعليم تعليم كوني قدري وليس تعليماً دينياً شرعياً .

٢ / **التعليم الشرعي الديني** ، فهو كما في قول الله عز وجل : ﴿ **وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ** ﴾ ، فتعليم التوراة والإنجيل تعليم ديني شرعي ، ومثْله قوله جل وعلا : ﴿ **الرحمن * علم القران** ﴾ ، فنحن إذا نظرنا إلى قوله عز وجل : ﴿ **وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ** ﴾ ، وجدنا هذا التعليم لا يحتمل إلا الديني الشرعي ولا يحتمل الكوني القدري ، نظيره ما في الآية التي سقناها بعده : ﴿ **الرحمن * علم القرآن** ﴾ ، فالتعليم هنا تعليم ديني شرعي وليس تعليما كونيا قدريا .

<u>**اللفظ السادس والعشرون** : التيْسير ، **فالتيسير في كتاب الله عز وجل من حيث التقسيم إلى** :-</u>

١ / **تيسير كوني قدري** ، كما في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى{٨} وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى {٩} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى** ﴾ ، فهذا تيسير كوني قدري ، ثبت عن علي ﷺ أن الرسول ﷺ قال : (**ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا كُتب مكانها من الجنة والنار وإلا قد كُتبت شقية أو سعيدة " ، فقال رجل : يا رسول الله أفلا نتّكل على كتابنا وندع العمل، فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة وأما من كان منا من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ، قال : " أما أهل السعادة فييسرون لعمل السعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل الشقاوة** ، ثم قرأ : ﴿ **فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى {٥} وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى {٦} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى {٧} وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى {٨} وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى {٩} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى {١٠}** ﴾ ، فهذا التيسير تيسير كوني قدري ولله عز وجل في ذلك حكمة بالغة ، فمن شاء الله جل وعلا يسره للخير ومن يسره للخير اهتدى ، ومن شاء الله جل وعلا تيسيره لغير ذلك وهو تيسيره للعسرى يسّره للعسرى ولله عز وجل في ذلك حكمة بالغة : ﴿ **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾ .

٢ / **التيسير الديني الشرعي** ، فهو كما في قول الله جل وعلا : ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ ، وكما في قوله جل وعلا : ﴿ **فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً** ﴾ ، وكما في قول الله عز وجل : ﴿ **يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ ، فالتيسير واليسر هنا هو التيسير واليسر الشرعي ، فالله جل وعلا ما جعل علينا في الدين من حرج : ﴿ **لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نفسا إلا ما أتاها** ﴾ ، ﴿ **لا يكلف الله نفسا إلا وسعها** ﴾ ، فهذا التيسير تيسير ديني شرعي وهو تيسير مطلوب منا نحن العباد فليس لنا أن نعسر على أنفسنا ما يسره الله جل وعلا لنا ، فالله جل وعلا يحب لنا اليسر ولا يحب لنا العسر يحب الله جل وعلا أن نكون في أمورنا كلها في يسر لا في عسر ، فالتيسير هنا إنما هو تيسير ديني شرعي وليس تيسيراً كونياً قدرياً .

<u>**إذًا التيسير نوعان**</u> : تيسير كوني قدري ، وتيسير ديني شرعي فهذا التيسير الديني الشرعي غير التيسير الكوني القدري ، فإذا رأينا في كتاب الله عز وجل أو في سنة رسوله ﷺ لفظ التيسير فإننا ننظر من أيهما هو ، هل هو من التيسير الكوني القدري ؟ أو من التيسير الديني الشرعي ؟

فالتيسير الديني الشرعي مطلوب منا فإذا يسر الله جل وعلا علينا أمرًا فإنه لا يجوز لنا أن نعسره ، النبي ﷺ قد رأى بعض أصحابه قد أخذوا بالتعسير فأنكر عليهم النبي ﷺ ، ورأى النبي ﷺ بعض أزواجه قد وضعت لها حبلاً فقال : (**لمن هذا ؟**) فقيل : لزينب تشتد به إذا أرادت أن تصلي لئلا تفتر ، فأمر النبي ﷺ بإزالته و أمر النبي ﷺ و أمرنا معها أن نصلي ما نطيق وأن نأخذ من العمل ما نطيق ، وقال النبي ﷺ : (**إن الله لا يمل حتى تملوا**)، فنحن مطالبون بالتيسير ولسنا مطالبون

بالتعسير فهذه هي شريعة النبي ﷺ وهي شريعة سمحة ، وما خُيِّر النبي ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، فالنبي ﷺ يختار اليسر لهذه الأمة ، وانظر إلى صلاة النبي في رمضان فالنبي ﷺ صلى بالناس التراويح ليلة أو ليلتين ثم تخلّف النبي ﷺ عن الصلاة فيهم ، ثم ذكر العلة في ذلك لئلا تفرض عليكم ، فالنبي ﷺ خشي أن تفرض علينا فلا نستطيع القيام بها ، وانظر إلى تردد النبي ﷺ بين موسى عليه السلام وبين ربه في ليلة أسري به كما مر معنا في قصة الإسراء والمعراج ، فالنبي ﷺ سأل ربه أن يخفف عن هذه الأمة من خمسين صلاة إلى خمس صلوات وهي في الحقيقة أجرها أجر خمسين صلاة ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

اللفظ السابع والعشرون : القذْف ، فالقذف من حيث التقسيم الذي نحن بصدده وهو التقسيم إلى :-

١ / **القذف الكوني القدري** ، هو كما في قوله عز وجل : ﴿ **وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ** ﴾ ، فالقذف في قوله جل وعلا : ﴿ **وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ** ﴾ ، قذف كوني قدري متعلق بالخلْق والإيجاد لا بل الأمر .

٢ / **القذف الشرعي الديني** ، فهو كما في قول الله جل وعلا : ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ** ﴾، يقول الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله : (يخبر تعالى بأنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل وأن كل باطل قيل أو جُودل به فإن الله عز وجل ينزل من الحق والعلم والبيان ما يدفعه فيضمحل ويتبين لكل أحد بطلانه فإذا هو زاهق ، أي : مضمحل فانٍ ، هذا هو القذف الديني الشرعي .

الحلقة (٣٧)

انتهينا في المحاضرة السابقة إلى الكلام في لفظ القذف ولم نكمله ونكمله إن شاء الله تعالى في هذه الحلقة فنقول :

إن القذف في كتاب الله عز وجل قذفان: ١ / **قذف كوني قدري،** وهذا متعلقه الخلق والإيجاد . ٢ / **وقذف ديني شرعي** .

وذكرنا بأن القذف الكوني القدري ، هو كما في قول الله عز وجل : ﴿ **وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ** ﴾ ، فهذا الرعب الذي وقع في قلوب اليهود هو من قذف الله عز وجل الكوني القدري ولهذا لازمهم هذا الرعب ، فلم يقاوموا النبي ﷺ ولا أصحابه إنما خرجوا من ديارهم وأخْربوا بيوتهم بأيدهم وأيدي المؤمنين مع أنهم من الكثرة بمكان ، فهذا القذف قذف كوني قدري متعلقه الخلْق والإيجاد ومتعلقه الأمر الكوني القدري ، كما في قوله جل وعلا : ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾ .

وأما القذف الديني الشرعي ، فمتعلقه الأمر الديني الشرعي ، وهذا كما في قول الله جل وعلا : ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ** ﴾ ، وذكرنا لكم كلام الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى في هذه الآية ولا بأس بإعادته مرة أخرى ، يقول الشيخ السعدي رحمه الله : (يخبر تعالى أنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل وأن كل باطل قيل أو جُودل به فإن الله ينزل من الحق والعلم والبيان ما يدفعه فيضمحل ويتبن لكل أحد بطلانه ، فإذا هو زاهق أي مضمحل فانٍ وهذا عام في جميع المسائل الدينية لا يورد مبطل شبهة عقلية ولا نقلية في إحقاق باطل أو رد حق إلا وفي أدلة الله من القواطع العقلية والنقلية ما يُذهب ذلك القول الباطل ويقمعه فإذا هو متبين بطلانه لكل أحد) .

وهذا واضح وجلي فإنك ما ترى مبطلاً أورد باطلاً إلا وتجد في كتاب الله عز وجل ما يرد باطله ، لكن أهل الباطل إنما يريدون منك أن تتبع أهواءهم ويريدون أن يتبع الحق أهواءهم والله جل وعلا يقول : ﴿ **وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ** ﴾ ، فالباطل يزهقه الحق ويدمغه كأنه أصابه في

دماغه ، فهذا قذف ديني شرعي ، ومثل هذا قول الله جل وعلا : ﴿ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ** ﴾ ، يقول ابن كثير رحمه الله تعالى : (وقوله عز وجل : ﴿ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ** ﴾ ، هو كقول الله تعالى : ﴿ **يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** ﴾ ، أي : يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض وهو علام الغيوب فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض) .

اللفظ الثامن والعشرون : **الكُره ، فالكُره من حيث هذا التقسيم كرهان** :-

١ / **كره كوني قدري** ، كما في قول الله جل وعلا : ﴿ **وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦)** ﴾ ، يقول ابن كثير رحمه الله : (ولكن كره الله انبعاثهم ، أي : أبغض أن يخرجوا معكم قَدراً فهذا الكره وهو كره الله جل وعلا انبعاث المنافقين هو من الكره الكوني القدري) ، وليس هو من الكره الديني الشرعي فالله جل وعلا كره انبعاث هؤلاء المنافقين لأنهم لو خرجوا من المؤمنين ما زادوهم إلا خبالاً ولا أوضعوا خلالهم يبغونهم الفتنة، وفي المؤمنين سمّاعون لهم، فالله جل وعلا كره انبعاث هؤلاء، وكراهته ليست كراهة دينية شرعية بدليل أن الله عز وجل قال:

﴿ **انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً** ﴾، فلو كانت الكراهة كراهة دينية شرعية لكان هنا تعارض بين الآيتين فالله جل وعلا يقول: ﴿ **انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً** ﴾، ويقول : ﴿ **وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ** ﴾ فأمر الله عز وجل بهذا وهنا يقول: ﴿ **كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ** ﴾ ، فلو كان الله عز وجل يكره الجهاد ويكره النفير فيه لكان معارضًا لأمره جل وعلا للجهاد وبالنفير فيه ، فدل هذا على أن كراهته جل وعلا هنا أو كرهه جل وعلا هنا إنما هو كره كوني قدري ، لعلمه جل وعلا بأنه هؤلاء لو انبعثوا مع المؤمنين وخرجوا معهم لحصل منهم من المفسدة ما يربوا على خير انبعاثهم لو كان فيه خير ؛ ولكن الله عز وجل علم أنه ليس في انبعاثهم خير فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين .

٢ / **الكره الديني الشرعي**: فهو كما في قوله ﷺ من حديث أبي هريرة ﷺ : **(إن الله يرضى لكم ثلاثًا ويكره لكم ثلاثًا، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا ، ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال)**، فهذه الكراهة هي كراهة دينية شرعية ومتعلقها الأمر الديني الشرعي وليست كراهة كونية قدرية ، ودليل أنها ليست كراهة كونية قدرية هو: أن الشرك وقع ولو كانت كونية قدرية لما وقع الشرك والتفرّق، والقيل والقال وقع ولو كانت الكراهة كونية قدرية لما وقع ، وكثرة السؤال وقع فأنت ترى من يُنقّرون عن الأسئلة التي لا تفيد سواء أكانوا من المنافقين زمن النبي ﷺ أو من أهل الكتاب أو من المشركين أو من بعد زمن النبي ﷺ ، ولو كانت الكراهة كراهة كونية قدرية لما وقع هذا ولكنه وقع ، وكذلك إضاعة المال والإسراف فيه وأنت لا تزال ترى هذا الأمر إلى يومنا هذا فإضاعة المال فيما لا ينفع واقع ولو كانت الكراهة في هذا الحديث كراهة كونية قدرية لما أضاع أحد ماله لأن الكراهة الكونية القدرية متعلقها الأمر الكوني القدري ، وهو كما ذكرناه كثيرا في قول الله عز وجل : ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾، فهذه الكراهة إذن في هذا النص هي كراهة دينية شرعية بخلاف قول الله عز وجل : ﴿ **وَلَكِن كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ** ﴾، فهذه كراهة كونية قدرية فالمنافقون الذين كره الله جل وعلا انبعاثهم لم يخرجوا مع النبي ﷺ .

وأما الثانية وهي **الكراهة الدينية الشرعية** فهذه الكراهة قد تقع وقد لا تقع وقد يوافقها العبد وقد لا يوافقها فإذا كره الله عز وجل أمرًا دينا وشرعا فقد يقع وقد لا يقع ، فالمؤمن إذا كره الله أمراً وتركه فإنه قد اجتمع فيه الأمران وهو ترْكه لهذا الأمر تحقيقا لما كره أمر الله عز وجل دينا وشرعا ، ووافق كراهته الكونية القدرية التي كَرِهت أن يَفعل هذا العبد ذلك ،

لكن لنعلم أننا لا نعلم تحقّق ما هو من باب الكوني القدري إلا بعد وقوع الشيء ، أما قبله فلا ؛ لأنه من الغيب الذي لا نعلمه وهو من القدر المغيّب عنا فلا نقول أن أحدا وافق أمرا كونيا قدريًا أو أنه سيوافق أمرا كوني قدريا دون أن نعلم انه وقع منه الأمر أو لم يقع . فعلى سبيل المثال : **كره الله عز وجل للكفر،** فالله عز وجل يكره الكفر لعباده ولا يرضاه فإذا وقع الكفر من العبد ومات عليه علمنا أن الله عز وجل كره إيمان هذا العبد ، أما قبل ذلك فإننا لا نعلمه وهذه اجعلها قاعدة عندك في هذه الأمور كلها .

اللفظ التاسع والعشرون : **التحْبيب ، فالتحبيب تحبيبان** :-

١ / **تحبيب كوني قدري** ، وهذا كما في قوله ﷺ : (**حُبّب إليّ من الدنيا النساء والطيب وجُعلت قُرّة عيني في الصلاة**)، فقوله ﷺ : (**حبب إلي من الدنيا النساء والطيب**) ، هذا تحبيب كوني قدري والمحبِّب هو الله تبارك وتعالى .

٢ / **التحبيب الديني الشرعي** ، فهو كما في قول الله عز وجل : ﴿ **وَلَكِنّ اللهَ حَبّبَ إِلَيْكُمْ الإِيمَانَ وَزَيّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾ ، فهذا التحبيب تحبيب ديني شرعي ، فالله سبحانه وتعالى أمر بذلك وأحبه وحببه إلى أوليائه وجعله دينًا لهم ، ولذلك لما جاء جبريل إلى النبي ﷺ وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان وأجابه النبي ﷺ قال بعد هذا : هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم .

اللفظ الثلاثون : **التفْضيل ، فالتفضيل من حيث هذا التقسيم تفضيلان** :-

١ / **التفضيل الكوني القدري** ، هو كما في قول الله جل وعلا : ﴿ **وَاللهُ فَضّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرّزْقِ** ﴾ ، إذا نظرت إلى هذه الآية وجدت أن هذه الآية إنما هي في التفضيل الكوني القدري ، فالله جل وعلا هو الذي يأمر كونا وقدرا بزيادة رزق فلان أو بنقصه ، فالله جل وعلا جعل التفضيل بين العباد ، وهكذا قول الله عز وجل : ﴿ **وَلَا تَتَمَنّوْا مَا فَضّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ** ﴾ ، فالمرأة لها حق من الميراث والرجل له حقه من الميراث ، وليس للمرأة أن تتمنى ما فضل الله به الرجل عليها فتتمنى أن تكون مثله لا أن تكون على النصف من الرجل كما هو مقرر في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ ، يتبين لك بهذا أن من يقول بأنه لا بد من جعل المرأة مساوية للرجل قد تمنى ما فضل الله به الرجال على النساء ، وهذا كما سمعت في هذه الآية قد نُهي عنه ، فالتفضيل في هذه الآية إنما هو تفضيل كوني قدري وليس تفضيلا دينيا شرعيا .

٢ / **التفضيل الديني الشرعي** ، فهو كما في قول الله عز وجل : ﴿ **تِلْكَ الرّسُلُ فَضّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ** ﴾ ، وكما في قول الله حل وعلا : ﴿ **وَلَقَدْ فَضّلْنَا بَعْضَ النّبِيّينَ عَلَى بَعْضٍ** ﴾ ، فهذا تفضيل متعلِّق بالشرع والدين .

اللفظ الحادي والثلاثون : **الرفْع** ، فالرفع في كتاب الله عز وجل نوعان :-

١ / **فالرفع الكوني القدري،** هو ما كان متعلقه الأمر الكوني القدري، وهذا سيأتي له مزيد بيان في الحلقة القادمة بإذن الله.

الحلقة (٣٨)

انتهينا في المحاضرة السابقة إلى الكلام في لفظ **الرفع** وذكرنا أن الرفع :-

١ / **رفع كوني قدري** ٢ / **ورفع ديني شرعي** ونكمل في هذه الحلقة ما يتعلق بهما.

١ / **فالرفع الكوني القدري** : هو كما في قوله تعالى :﴿ **وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً** ﴾ وكقوله ﴿ **الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها** ﴾ فالرفع هنا متعلق بالخلق والإيجاد

٢ / **وأما الرفع الديني الشرعي**:فهو كقول الله : ﴿ **يَرْفَعِ اللهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ وكما في قوله تعالى : ﴿ **تِلْكَ الرّسُلُ فَضّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ** مِّنْهُم مّن كَلّمَ اللهُ **وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ** ﴾ فهذا رفع ديني شرعي

انتقل بعد هذا إلى لفظ آخر وهو

اللفظ الثاني والثلاثون : التكريم فالتكريم في كتاب الله تعالى نوعان :

١ / **تكريم كوني قدري:** كما في قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا** ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ **فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥)** ﴾ ، فهذا التكريم لا يقتضي محبةً للمكرم ولا يقتضي رفعة له ولا يقتضي رضا عنه فجنس بني آدم مكرمون بهذا الاعتبار ؛ لكن منهم المهان المهين الكافر الحقير ومنهم من أكرمه ربه جل وعلا بالإيمان ، يقول الله جل وعلا : ﴿ **وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ** ﴾ ، فقد يقول قائل : ألا يتعارض هذا مع قول الله عز وجل : ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ** ﴾ ؟ ، فنقول : أن متعلَّق هذا شيء ومتعلَّق هذا شيء آخر فهذا التكريم في قوله : ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ** ﴾ إنما هو تكريم كوني قدري ، وأما التكريم في الآية الأخرى فهو تكريم ديني شرعي فيزول بهذا الإشكال ، فقوله جل وعلا : ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ** ﴾ ، واقع لبني آدم كلهم والله جل وعلا فضله على كثير ممن خلَق تفضيلا ، فهو يفهمون الخطاب ويردّون الجواب ويعقلون بخلاف غيرهم ، وقول الله جل وعلا : ﴿ **فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ** ﴾ هو من جنس قوله : ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ** ﴾ أي أنه من التكريم الكوني القدري .

وهذا كما تقدم معنا في لفظ **الإيتاء** ، فالإيتاء منه : ١ / **ما هو كوني قدري** ٢ / **ومنه ما هو ديني شرعي**

فإذا آتى الله عبدا من عباده أمرا من أمور الدنيا ، فهذا لا يعني رضا الله عنه ؛ لأن الله يعطي من الدنيا من يحب ومن لا يحب ولكنه لا يعطي الدين إلا من يحب ؛ ولهذا تجد الله جل وعلا في هذه الآية يقول : ﴿ **فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ** ﴾ ، جعل من إكرامه بإعطائه المال جعله من الابتلاء فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن يظن هذا المسكين أن الله لما أكرمه راض عنه فهو فهم هذا ، والآخر يقول الله عز وجل : ﴿ **وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ** ﴾ ، فيظن أن منعه وعدم إعطائه والتضييق عليه يدل على إهانة الله له ، الله عز وجل قال : ﴿ **كلا** ﴾ : أي ليس الأمر كما تظنون ، فليس إعطاؤنا دليلاً رضانا عن العبد وليس منعنا دليلاً على سُخطنا على العبد ، فقوله جل وعلا : ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ** ﴾ ، وقوله : ﴿ **فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ** ﴾ ، فهذا من التكريم الكوني القدري وليس من التكريم الديني الشرعي ، فالتكريم الديني الشرعي لا يحْصل عليه ولا يناله إلا من كان مؤمنا بالله وبرسوله .

٢ / **التكريم الديني الشرعي** : هو كقوله ﷺ : (**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة**) ، قال : (**فينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم تعال فصلّ لنا ، فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله لهذه الأمة**) ، وكما في قول سلمة بن الأكوع : والذي كرّم وجه محمد ﷺ ، هذا التكريم الديني الشرعي كما سبق لا ينال إلا بطاعة الله عز وجل لا ينال بمعصيته ليس إعطاء المال دليلاً عليه أبدًا ، وليس وجود الجاه دليلاً عليه وليس كثرة الولد دليلاً عليه ، فليست هذه الأمور دليلاً على تكريم الله عز وجل للعبد الكرامة الدينية الشرعية .

اللفظ الثالث والثلاثون : التصريف فالتصريف نوعان :

١ / **التصريف الكوني القدري** ، الذي متعلقه الأمر الكوني القدري ، هو كما في قول الله جل وعلا : ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُوراً** ﴾ ، **يقول ابن كثير رحمه الله تعالى:** (أي أمطرنا هذه الأرض دون هذه ، وسقنا السحاب يمر على الأرض ويتعداها ويتجاوزها إلى الأرض الأخرى فيُمطرها ويكفيها ويجعلها غدقًا ، والتي وراءها لم ينزل فيها قطرة من ماء وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة) ، فهذا **تصريف كوني قدري** ، وهو كما في قول الله جل وعلا في

المنافقين : ﴿ **صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾ ، فصرْف الله جل وعلا لقلوب هؤلاء هو صرْف كوني قدري ، ومثله قوله ﷺ في دعائه : (**يا مصرِّف القلوب**) ، فالله جل وعلا مصرف القلوب وتصريفه تصريف كوني قدري.

٢ / **التصريف الديني الشرعي** الذي متعلقه الأمر الديني الشرعي ، فهو كقول الله جل وعلا : ﴿ **وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا** ﴾ ، فقوله وصرّفنا فيه من الوعيد ، أي : أتينا به على أنحاء متعددة وألوان مختلفة ، فالله عز وجل صرّف في هذا القرآن من الوعيد : ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا** ﴾ ، فهذا التصريف إذن تصريف ديني شرعي وليس هو تصريفًا كونيًّا قدريًّا ، ولذا قال : ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا** ﴾ ، أهل الإيمان يُحدث لهم هذا التصريف تقوى وذكرى ، وأما أهل الكفر والنفاق فلا يُحدث لهم شيءٌ من ذلك ، وإنما يقول كما قال من سبقهم : ﴿ **أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا** ﴾ ، والله عز وجل يقول لما ذكر الآيات قال : ﴿ **ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ** ﴾ .

اللفظ الرابع والثلاثون التفصيل فالتفصيل نوعان :

١ / **التفصيل الكوني القدري** ، هو كقول الله جل وعلا : ﴿ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ** ولتعلموا عَدَدَ **السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً** ﴾ ، وكما في قول الله عز وجل : ﴿ **هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق نفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾ ، الحديث هنا عن الآيات الكونية ، فالتفصيل يراد به التفصيل الكوني القدري **يقول الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره:** (لما قرّر ربوبيته و إلاهيته ذكر الأدلة العقلية الأفقية ، يعني : التي هي في الآفاق ، الدالة على ذلك وعلى كماله في أسمائه وصفاته من الشمس والقمر والسموات والأرض وجميع ما خلق فيهما من سائر أصناف المخلوقات ، وأخبر أنها آيات لقوم يعلمون ولقوم يتقون ، فالعلم يهدي إلى معرفة الدلالة فيها وكيفية استنباط الدلائل على أقرب وجه) .

إذن الآيات في قول الله جل وعلا : ﴿ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا** ﴾ ، أقول التفصيل في هذه الآية هو تفصيل كوني قدري ، وكذلك في قوله جل وعلا : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ .

٢ / **التفصيل الديني الشرعي** ، فهو كما في قول الله عز وجل : ﴿ **وَمَا لَكُمْ أَلا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُم** ﴾، وكما في قوله جل وعلا : ﴿ **وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ فهذا التفصيل هو تفصيل ديني شرعي ، ونحن إذا تدبرنا كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وجدنا كتاب الله جل وعلا قد فُصلت آياته ، وهذا التفصيل لم يبقِ شيئا إلا وقد ذكره الله جل وعلا في كتابه وأبانه كما في قوله عز وجل : ﴿ **مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ** ﴾ ، ثم إن الله عز جل قد أبان هذا بيانا محكما لا لبْس فيه ولا غموض ولا إلغاز ولا أحاجي وإنما ذكرها الله جل وعلا ليعقلها الناس ، كما قال جل وعلا في كتابه في آيات كثيرة : ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ ، فالله جل وعلا فصّل هذا الكتاب تفصيلا لكل أحد بحيث لا يلتبس عليه وبحيث لا تتشعب به الأهواء ولا تفترق به السبل ولا تختلف عليه المناهج ؛ لكن من عباد الله عز وجل من شاء الله تعالى هدايته فهداه إلى هذا التفصيل وأبانه عنده ، ومن الناس من أضله الله على علم فتجده يعارض هذا التفصيل ويقدح فيه ويطعن فيه ، وإلا فهذا القرآن قد فصّل الله جل وعلا آياته فما من حرام إلا وبينه عز وجل وما من حلال إلا وبينه الله تعالى وما من طيب إلا وبينه وما من خبيث إلا

وبينه ، فالله جل وعلا جاء في هذه الآيات بالقواعد الكلية التي يعرفها كل أحد وجاء بالقواعد التفصيلية التي يعلمها العباد ، وحينما نجد في كتاب الله عز وجل آيات مجملة فإنه لا يمكن أن يكون هذا الإجمال دائما ، وإنما لابد أن يأتي ما يفصل هذا الإجمال ويبينه ، ولهذا وجدنا الله عز وجل قد أحالنا على سنة نبيه ﷺ : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك لتبين للناس ما نُزِّلَ إليهم** ﴾ ، فالنبي ﷺ يبين لنا ما نزل الله عز وجل من الذكر بسنته القولية وسنته الفعلية وسنته الإقرارية فلله الحمد والمنة ، فهذا التفصيل هو تفصيل ديني شرعي وليس تفصيلا كونيا قدريا . فهذه الألفاظ التي ذكرناها وهناك غيرها كثير هي من الألفاظ التي تنقسم إلى كونية قدرية وإلى دينية شرعية وذكرنا لكم في بداية الحديث عنها أن العلم بها مهم جدا لطالب العلم وبخاصة من يتكلم في مسائل القضاء والقدر.

الحلقة (٣٩)

سبق الكلام فيما مضى من المحاضرات عن جمل من مسائل الاعتقاد ، وتبيّن لنا فيما مضى أنه ما من مسألة من مسائل الاعتقاد إلا ودليلها كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، واليوم في هذه الحلقة نتناول ...

مصادر التلقي عند أهل السنة والجماعة

أساس منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة هو اشتراط أن يكون الاستدلال شرعيا في دلائله كما يكون شرعيا في مسائله . فالدلائل لا بد أن تكون شرعية ، والدلائل الشرعية هي ما كانت متلقى من الشرع وما كانت متلقى من الوحي وهو كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

أهل السنة والجماعة لم يقدّموا رأيا ولم يقدّموا عادة ولا عرفًا ولا تقليدًا ولا قانونًا ولا أيَّ شيء على كتاب الله وعلى سنة رسوله ﷺ ، فالله جل وعلا يقول : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ ، ولمّا لم يقدّم أهل السنة شيئًا من ذلك على الوحيين كانت عقيدتهم ثابتة وراسخة ، فعقيدة أوّلهم كعقيدة آخرهم لا تتغيّر ولا تتبدّل وليس فيها اضطراب ولا اختلاف ؛ لأن الاضطراب والاختلاف دليل التناقض والله جل وعلا يقول : ﴿ **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** ﴾ ، والمناهج الأخرى والمذاهب التي لم تجعل دليلها كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، اضطربت واختلفت وتفرقت إلى فرَق عديدة وصاروا شيعًا كل حزب بما لديهم فرحون ، أما أهل السنة والجماعة فعقيدتهم واحدة لأنها هي الدين الذي بعث الله تبارك وتعالى به أنبياءه عليهم الصلاة والسلام ، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أوّل نبيّ ورسول إلى آخر نبيّ ورسول وهو محمد ﷺ دينهم واحد وعقيدتهم واحدة وكلهم يدعون إلى شيء واحد ، هذا الشيء الذي يدعون إليه هو عبادة الله تبارك وتعالى وحده وإخلاصها لله عز وجل ، ولهذا رأينا السلف أهل السنة والجماعة أهل الحديث إلى عصرنا هذا وهم على ما عليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فالنبي ﷺ لمّا ذكر اختلاف الطوائف واختلاف الفرَق ، وأخبر أن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، قال : " **كلها في النار إلا واحدة** " ، قيل : ومن هي يا رسول الله ؟ - لاحظ معي جواب النبي ﷺ لم يذكر النبي ﷺ في جوابه أسماء وإنما ذكر وصفًا –وهو: " من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي " ، فكل من كان على مِثل ما عليه النبي ﷺ وأصحابه فهو من الطائفة الناجية وهو من الطائفة المنصورة التي لا يضرها من خذلها حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى ، أهل السنة والجماعة اعتمدوا الأصلين كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، وهذا هو الذي أمر الله عز جل به فالله جل وعلا يقول: ﴿ **اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ ، فأمرنا الله تبارك وتعالى باتباع ما أنزل ، واتباع ما أنزله الله تبارك وتعالى ليس مقصورًا على شيء دون شيء ، وإنما هو في الأمور كلها ومن أعظمها العقائد ، ويقول الله جل وعلا : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ**

ضَلّ ضَلالاً مُبيناً ﴾، ويقول جل وعلا: ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾، فالعقائد والأحكام والمعاملات والأخلاق وغيرها كلها يجب أن تكون مستندة إلى كتاب الله تعالى وإلى سنة رسوله ﷺ ، والعقيدة أمر من الأمور التي لا ينبغي للناس أن يتساهلوا في شأنها وأن يتهاونوا بها ؛ لأنه بها يُدخل في الإسلام وبفسادها أو فقدانها يُخرج منه ، يقول النبي ﷺ : (**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله**) ، والتسليم لله عز وجل ولرسوله ﷺ ينبغي أن يكون مطلقاً ينبغي أن يكون التسليم تسليما مطلقاً فلا يؤمن الإنسان ببعض ويكفر ببعض ، يقول الله جل وعلا في شأن اليهود : ﴿ **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ** ﴾، ويقول : ﴿ **إِنّ الّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا** ﴾ ، فالإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه هذا كفر ، والقول بأن العقائد لا يصح أن يكون مستندها الكتاب والسنة ، قول فاسد وهو قول أهل الضلال ، فإذا كنّا لم نأخذ بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ في العقائد فكيف يكون التسليم ؟ وكيف يكون الإيمان ؟ ، فالعقائد مستندها النص الشرعي ، العقل والفطرة - العقل الصحيح و الفطرة السليمة من الأهواء والشبهات - لا يمكن بحال من الأحوال أن تتعارض مع الشرع ، فلا يمكن أن يتعارض بحال من الأحوال دليل نقلي ودليل عقلي ، و كما أنه يستحيل أن يتعارض دليلان نقليّان فكذلك يستحيل أن يتعارض دليل نقلي مع دليل عقلي ، بل العقل والنقل متفقان ولهذا من سلّم عقله للنص وجدت عقله لا يخالف النص الذي آمن به ، وأما من كان عنده ارتياب وشكّ فإنك تجد عقله يفتح له أبوابًا كثيرة من الخيالات ومن الأمور المستحيلة ، فأهل السنة والجماعة أعْمَلوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في المسائل والدلائل ، فالمسائل التي هي مسائل الاعتقاد يستدل عليها بالدلائل وهذه الدلائل يجب أن تكون مأخوذة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، **يقول الإمام محمد بن شهاب الزهري رحمه الله تعالى**: (من الله الرسالة ومن الرسول البلاغ وعلينا التسليم) ، **ويقول الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى**: (السُّنة عندنا آثار رسول الله ﷺ وليس في السُّنة قياس ولا تُضرب لها الأمثال ولا تُدرك بالعقول ولا الأهواء إنما هي الاتباع وترك الهوى) .

هذه هي السُّنة وهذه هي طريقة أهل السُّنة، ويقول ابن سيرين رحمه الله: (كانوا يرون أنهم على الطريق ما كانوا على الأثر)، يعني : أنهم يرون أنهم لا يزالون على الطريق وهو النهج الصادق (الطريق المستقيم) ما كانوا على الأثر، فما داموا مستمسكين بالأثر فهم على الجادة ومتى ما تركوها - متى ما تركوا الأثر - خرجوا عن هذه الجادة إلى طرق مِعْوجّة . ويقول ابن عبد البر رحمه الله تعالى: (ليس في الاعتقاد كله من صفات الله تعالى وأسمائه إلا ما جاء منصوصًا من كتاب الله أو صحَّ عن رسول الله ﷺ أو أجمعت الأمة عليه، وما جاء من أخبار الآحاد في ذلك كله أو نحوه يسلم له ولا يناظر فيه) ، يعني: لا يجعل مجالا للمناظرة ومجالا للمخاصمة والرد ، بل يجب أي يسلم للنبي ﷺ ذلك ، وأهل السنة والجماعة لا يفرّقون كما يفرّق غيرهم في مسائل الاعتقاد فيجعلون بعضاً يُستدل عليه بالعقل وبعضًا يُستدل عليه بالنقل ، بل هم يجعلون الجميع من بابةٍ واحدة وهي الاستدلال على مسائل الاعتقاد كلها بالنقل ، ولا يعني هذا الكلام أن العقل معطّل لا يمكن أن يدرك شيئا ، لا ، بالعقل ويمكن أن يثبت بعض الأمور لكنه لا يستقل فإذا أثبت العقل أمرا ما ، طلبنا عليه شاهدين من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فالمقصود أن مصادر التلقي عند أهل السنة والجماعة ، هما : كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

الحلقة (٤٠)

فهذه هي الحلقة الأخيرة من حلقات مقرر التوحيد لطلاب المستوى الثالث بكلية الشريعة .

سبق الكلام في الحلقة الماضية في بيان مصدر التلقي عند أهل السنة والجماعة وقلنا بأن : مصدر التلقي عند أهل السنة

والجماعة هو كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

وهذه الأمة لا يمكن بحال من الأحوال أن تُجمع على ضلالة ؛ لأن الله عز وجل يقول : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ الحجر ٩ ، والحفظ يقتضي عصمة الأمة جمعاء من أن تَنْسُب إلى دين الله تعالى وشرعه وكتابه وسنة رسوله ﷺ ما لم يأذن به الله ، فإذا أجمعت الأمة على شيء علمنا أن الأمة لم تجتمع على شيء يخالف كتاب الله ولا يخالف سنة رسوله ﷺ ، وإنما لابد أن يكون بهذا الإجماع مستند من كتاب الله تعالى ومن سنة رسوله ﷺ ، وسنة رسول الله ﷺ حق يجب اتباعها والنبي ﷺ هو المبين عن الله عز وجل وهو المبلغ عنه يقول الله عز وجل : ﴿ **وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون** ﴾ فالنبي ﷺ يُبيّن للناس ما نُزّل إليهم من ربهم ، فأهل السنة والجماعة يعملون بالوحيَيْن جميعاً ، وأهل الضلال ربما تركوهما جميعا وربما أخذوا ببعض وتركوا بعضا ، كحال من يأخذ بالقرآن ويترك سنة النبي ﷺ ، فحال هذا هو أنه لم يأخذ بالقرآن وإن زعم ذلك لأن الله عز وجل قال: ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنبوكم والله غفور رحيم** ﴾ فإذا كان يزعم أنه يأخذ بالقرآن ولا يأخذ بسنة النبي ﷺ فكيف سيتّبعه ؟ ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني** ﴾ ، فإذا كان هذا يزعم أنه يحب الله وأنه من أهل الإيمان فعليه أن يتّبع النبي ﷺ وهذا الاتباع لا يكون إلا باتباع سنته ﷺ . وآخرون زعموا أن النصوص إنما يستدل بها على الأحكام وأما العقائد فلا يجوز أن يستدل عليها بالشرائع - لا يجوز أن يُستدل عليها بالشرع بالسمع والنقل - وهؤلاء متناقضون لأنه ما من عمل من الأعمال إلا ولابد أن يسبقه اعتقاد ؛ لأن عمل أهل الإسلام لابد له من نية ، وهذه النية متضمنة للاعتقاد ، لا يمكن أن يكون عمل يراد به وجه الله وهو مجرد عن النية ، يقول النبي ﷺ : (**إنما الأعمال بالنيات**) ، فهذا تفريق بين متماثلات ، وطوائف تقول نعمل بالسنة لكن بشرط أن تكون السنة سنة متواترة لا أن يكون خبرها آحاد

<u>والمتواتر عند أهل المصطلح</u> : ما رواه جماعة عن مثلهم يستحيل تواطؤهم على الكذب وأسندوه إلى شيء محسوس ، فهذه الطوائف تقول : (لا يجوز لنا أن نستند في عقائدنا على أخبار الآحاد وهي ما سوى المتواتر ولو كان الخبر صحيحًا) ، وهؤلاء المفرقة فرقوا في العمل بخبر الآحاد بين العمل والاعتقاد فقالوا بأن ما كان من باب الاعتقاد فإنه لا يجوز أن يستدل عليه بخبر آحاد وما كان من باب العمل فيجوز أن يؤخذ بخبر الآحاد ، وهذا كما سبق قول باطل لأنه يلزم منه أن يكون هناك عمل بلا اعتقاد ، وهذا أمر لا يجوز للمسلم أن يعتقده ؛ لأنه كل عمل من الأعمال لابد أن يسبقه اعتقاد ، إما أن يعتقد إباحته ، وإما أن يعتقد كراهيته ، وإما أن يعتقد تحريمه ، وإما أن يعتقد استحبابه ، وإما أن يعتقد وجوبه .

فأنت الآن تصوم في شهر رمضان تمسك عن الأكل والشرب والنكاح وعن سائر المفطرات اعتقادا منك بوجوب هذا الصيام عليك ، فلو أن إنساناً قال : أنا سأصوم لكن لا أعتقد وجوبه ، أنا سأصلي لكن لا أعتقد وجوب الصلاة ، أنا سأحج لكن لا أعتقد وجوب الحج، أنا سأترك شرب الخمر لكن لا أعتقد حرمة شرب الخمر، أنا سأترك الزنا لكن لا أعتقد تحريم الزنا، نقول: لو فعل مثل هذا لكان كافرًا مع أنه ترك الزنا و ترك شرب الخمر و أنه صام و أنه صلى و أنه حج لكن مع هذا لا يكون مؤمنًا، فالعمل لا بد من اعتقاد يسبقه ؛ ولذا قال النبي ﷺ : (**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا** فالاعتقاد لا بد للعمل منه فالتفرقة إذن بين مسائل الاعتقاد ومسائل العمل في الاستدلال تفرقة خاطئة وأخبار الآحاد طريق شرعي صحيح متى ما صح الخبر عن رسول الله ﷺ.

فإذا ثبت الخبر عن رسول الله ﷺ وجب اعتقاد مقتضاه ووجب العمل بمقتضاه لكن الشأن في الصحة ، القصد أن التفْرقة لا تنبغي ، مما يدل على أن خبر الآحاد مقبولٌ شرعًا قول الله جل وعلا : ﴿ **فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي**

الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ ، ومعلوم أن الطائفة من الجيش يمكن أن تتواطأ على الكذب ومع ذلك قال الله جل وعلا : ﴿ **فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا** ﴾ ، والنبي ﷺ أرسل معاذًا إلى اليمن وأمره ﷺ أن يخبرهم بأوّل الأمر وآخره وهو التوحيد ، فأمره النبي ﷺ : (**أن يخبرهم بأن عليهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ، فإذا قالوا ذلك ، أمرهم بالصلاة ، فإذا قالوا ذلك أمرهم بالزكاة**) ، ولم يقل أهل اليمن ولم يقل الصحابة ﷺ ولم يقل سيد هؤلاء كلهم محمد ﷺ بأنّ هذا خبراً واحداً لا يجوز لكم أن تعتقدوه ، بل النبي ﷺ أمر معاذًا أن يذهب إلى اليمن وكانت بذلك الحجة من رسول الله ﷺ على أهل اليمن . فلو أن أهل اليمن ما قبلوا قول رسولُ رسولِ الله ﷺ لقامت عليهم الحجة بذلك ، وهذا الأمر أمر في الاعتقاد ، كذلك كان النبي ﷺ يرسل الرجل والرجلين إلى ملوك العرب وغيرهم يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده وإلى ترك الشرك والكفر وتقوم بذلك حجة رسول الله ﷺ عليهم ، فلو كان كما يزعم المتكلّمون لا يقبل خبر الآحاد في الاعتقاد لَمَا قامت الحجة على هؤلاء ، والنبي ﷺ أرسله الله عز وجل حجة على الخلق أجمعين ، ومعلوم أن هذا الحجة وهو رسول الله ﷺ يدعو فلان وفلان من الناس إلى دينه ، يعني : أن هؤلاء الأقوام يدعون غيرهم إلى دين النبي ﷺ وهم آحاد ، ومع ذلك تقوم الحجة عليهم .

وقبول أهل السنة والجماعة لأحاديث الآحاد لا يعني عندهم قبول خبر كل أحد بل هم لا يقبلون إلا ما صح عن رسول الله ﷺ ، فإذا كان الراوي مقبول الرواية فلا فرْق في قبول روايته بين كونها في أحاديث العقائد أو أحاديث الأحكام بل هو مقبول الرواية مطلقًا ، <u>يقول الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله</u> :

(إذا حدَّث الثقة عن الثقة حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ فهو ثابت عن رسول الله ﷺ) **<u>ويقول</u>:** (لم أحفظ عن فقهاء المسلمين أنهم اختلفوا في تثبيت خبر الواحد) .

<u>والإمام أحمد رحمه الله تعالى</u> سئل فقيل له : (ها هنا إنسان يقول : إن الخبر يوجب عملاً ولا يوجب علْمًا) ، **<u>فعابه الإمام وقال</u>** :

(ما أدري ما هذا) .

<u>ويقول حافظ المغرب ومحدثها الإمام ابن عبد البر رحمه الله تعالى</u>(ما جاء من أخبار الآحاد في ذلك كله أو نحوه يُسَلَّم له ولا يناظر فيه) **<u>ويقول الإمام ابن حزم عليه رحمة الله</u>** (خبر الواحد العدل عن مثله مبلغا إلى رسول الله ﷺ حق مقطوع به موجب للعمل والعلم معا) تبين لك بهذا أن أهل السنة والجماعة يأخذون بخبر الآحاد في المسائل العملية والمسائل العلمية لكن بشرط **ما هذا الشرط؟ <u>هذا الشرط أن يكون ثابتا عن رسول الله ﷺ .</u>**

بحمد الله تم